أول الطريق

صبيحة الشيخ داود

8765
31

DATE ISSUED DATE DUE DATE ISSUED DATE DUE
JAN 1 1

JLS-3-27-91
nycg 91-I 2051

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 018115210

أول الطريق

اول الطريق

الى النهضة النسوية فى العراق

الطبعة الأولى . . . . . آذار ١٩٥٨

الصور والعناوين للفنان

يحيى جواد

طبع بمطابع الرابطة ـ بغداد

al-Shaykh Dāwud, Ṣabīḥah

Awwal al-ṭarīq

أول الطريق

الى النهضة النسوية في العراق

بقلم

صبيحة الشيخ داود

عضوة محكمة الأحداث

بغداد ١٩٥٨

الى روح والدتي

إكباراً لأثرها واقتداراً نفضل واحتذاءً

بجميل ... اهدي "اول الطريق"

صبحي احمد زيد

6.2 S5 - 58 Arrowfield

2274
.876565
313

مقدمة

لمعالي الدكتور سناء الكبيسي
مدير المعارف السابق . رئيس المجمع العلمي

منير القاضي

المرأة صنو الرجل ، وشقيقته في الحياة . وزوجه الذي لا يستغني عنها ، ولا تستغني عنه ، وهما معدن البشرية ونجارها ، وأصل عُمَّار الأرض ، وضئضئهم الذي انبعث منه العلماء ، والأدباء ، والمخترعون ، والمؤلفون . . « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ... » .

والمدنية الانسانية قائمة على أكتاف الرجل والمرأة . وتأريخ الناس الضخم ، حكاية أعمال المرأة والرجل ، فكل منهما صانع في فصوله ، وبانٍ في كيانه ، والرجل وحده أبتر في الحياة ، والمرأة بمفردها عقيم قاعدة . فهما شريكان في بناء المدنية الانسانية الضخمة ، وإبداع عجائبها الباهرة . فمن الظلم أن ينسب ما حققه بنو آدم من الأعمال في الأرض الى الرجل وحده ، وتنسى المرأة ، وهي الصَناع ، وهي الحرث المنتج للرسل والأنبياء ، والفلاسفة والحكماء .

إن المرأة التي أحترمهـا كل الاحترام ، لأنني أشم منها رائحة الأمومة الزكية . إن المرأة التي أحترمها كل الاحترام ، لأنها مربية الرجال ، ومثقفتهم الأولى ، هي التي تصنع حقول الرجال ، وهي التي تغرس النوازع والمباديء فيها . فهي العنصر الأول في صرح البشرية ، وهي الجوهر المقوّم لبقائها ، وهي الهيولى لها ، وهي الصورة . « خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجهـا ، وبثّ منهما رجالاً ونساء ... » .

عاشا متلازمين متكاتفين ، متعاونين ، تحفهما الكرامة ، وتحوطهما الأمانة ، في رغد من العيش هنيء مريء ، الى أن غرّ الشيطانُ الرجلَ ، فجهل وتعالى ، وخدع المرأة ، وسطا عليها ، فارتكبا إثماً أضرّ بهما ..

« قال ، يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة ... » .

فالرجل كان هو المخاطب ، فهو باب الاستغرار الذي ولج منه عدوهما ، وانتصر عليهما ، وهو الخادع لزوجه ، والضار بها . ويظهر أن هذا السطو منه عليها ، أطمعه فيها ، فأخذ يستخضعها لأمره ، ويحكم فيها بحكومته الى أن استذلها ، وجعلها حلس بيتهـا ، وقعيدة دارهـا ، وحبيسة خدرها ، فتخدرت ، حتى سميت « المخدرة » . ولم يقف عند هذا المعنى ، بل أمعن في قلبه مستغلاً طيب قلبها ، وسلامة نيتها ، فقال « المخدرة من الخدر ، والخدر بيت الأسد الذي يخشى قربانه ، فهي في بيت الأسد ، أو هي الأسد في بيتها ... » ولكنها في الحقيقة والواقع ، أضعف من خيالهـا تحت سلطانه وقدرته .

هكذا سار الزمن ، وسارت معه ، محافظة على هذه الحالة التي ألفتها بلا اختيـار منها ، ورضيت بها تطبعاً ، لا طبعاً . ولم يكتف الرجل بهـــذا الحد من إمعانه في إخضاعها لحكمه وإرادته ، بل استعان عليها بالدين ، فأدخل في روعها أن الدين قد

عدّها عورة ، من شواها الى أخمص قدميها ، والعورة سوأة . واعتبرها من سقط المتاع ، وسقط المتاع ينبذ قصياً ، وهي الزهراء الفاتنة ، والأصل الطاهر ، والدرة الغالية ، والعلق الذي لا يباع ولا يسام . والدين أجلّ من أن يسفّ بالمرأة هذا الاسفاف ، وهو الذي منحها حقوقاً تساوي حقوق الرجل مساواة تامة .

ثم ان الرجل ـــ بعد ما حقق فيها تلك الحالة ـــ انحدر بها يتخبط الى أسفل ، وعلا بنفسه شامخاً ، فانفصلت عن ابن جنسها ، حتى صارت تتخيل أنها من جنس آخر ، فانطوت على نفسها ، وابتعدت عن شقيقها ، ابتعدت عنه في الملبس والزينة ، والعادات والأخلاق ، فلبوسها غير لبوسه ، وزينتها غير زينته ، وريشها غير ريشه ، وعاداتها تختلف في كثير من عاداته ، وأخلاقها تباين كثيراً من أخلاقه ، تستحي منه ، ويستحي منها ، وتبتعد عنه ، ويبتعد عنها ، وتستخفي منه ، ولكنه ينقب عنها ويترسم خطاها ، واتخذها متعة له ، وهي راضية مرضية عنده ، بل أصبحت المسكينة تتفنن في إظهار مفاتنها لتكون له متعة مقبولة ، وتتصنع بشتى المغريات لتحظى بالتقرب منه وإلفات نظره اليها ؛ فلله درّه من خادع ، ولها الله من مخدوعة .

مضت عليها قرون ـــ وهي على ما وصفت ـــ قابعة في خدرها ، راضية بما قسمته لها يد الرجل ، تنظر اليه نظرة المملوك الى مالكه ، والعبد الى سيده ، إن ضحك لها طارت نفسها فرحاً ، وإن عبس في وجهها طار روحها شعاعاً ، تتقلب بين اليأس والرجاء ، وتتضرع الى الله في ظلمات الليل عسى أن يلين قلبه القاسي عليها ، ويسترد اليه رضاءه عنها .

وكل ما فرضه عليها الرجل ، وما أقرّه فيها ، مخالف لحكم الطبيعة ، مخالف لحكم الدين . فالطبيعة ولدتهما شقيقين متماثلين ، متساويين ، متساهمين العمل في مقوّمات الحياة البشرية ، وفي بناء البشرية ، عاملين في بقاء الانسانية وخيرها .

والدين ساوى بينهما في الحقوق والواجبات ، فلكل منهما أن يكون عاملاً ، أو تاجراً ، أو زارعاً ، أو طبيباً ، أو قاضياً ، أو محامياً ، أو . . أو . . مما أعتاد الرجل أن يمارسه من الأعمال . وكل منهما يتملك ما يجوز تملكه ، وهو مستقل فيما ملك ، لا سلطان لأحدهما على الآخر في ملكه ، بل كل منهما حرّ في تصرفاته ، ومعاملاته ، حتى الزوجان الشرعيان ؛ فليس لأحدهما ولاية على الآخر في تصرفاته في ملكه ، ولا رقابة ، ولا تحديد .

مضت عصور ، وتلتها عصور ، والمرأة في منأى عن مشاركة الرجل في الاعمال الاجتماعية والسياسية ، بعيدة عنه في الأمور الاقتصادية والمعاشية ؛ فكانت النتيجة أن أصبحت طوقاً في عنقه ، وحملاً ثقيلاً على ظهره ؛ فلا هي حملت نفسها ، ولا هو استقل بمنافعه ، بل شاركته في مكاسبه ، وزادت في متاعبه ؛ فقد يتحمل الرجل الواحد مؤنة عشر أنفس أو أكثر ، بين زوج وأم وأخوات وأطفال ؛ فهو الكدود ، وهم الأكلة ، وهو وحده الكاسب المنتج ، وهم المستهلكون ؛ فهو متعب ، وهم متعبون . وبهذا اختل نظام المجتمع ، وضعفت طاقة العمل الانساني ، وتكاثفت ظلمات الفقر .. والفقر أصل كل بلاء ، وباعث كل شقاء .

ثم دارت عجلة الزمن ، فانتبهت المرأة من سباتها ، واستيقظت من منامها ، ونشطت من تخدرها ، فأدركت أنها صنو الرجل وشقيقه .. فلماذا يستأثر بالسلطان ، ويستقل بالمغانم ، وهو متعب نفسه وإياها ، وجانٍ على نفسه وعليها ؟ فأخذت تشقّ لها طريقاً مثل طريقه ، وتعمل مثل عمله ؛ فتبين لها وله أنها مثله في التعلم ، والتفكير والعمل ، والانتاج ؛ فمدّ كل منهما يده الى الآخر ، واستقوى بها على متاعب الحياة ، فانفلق عصر جديد ، طفقت تتبدل فيه المقاييس القديمة ، وأخذت الحياة فيه مجرى آخر في الشرق والغرب . وسيأتي يوم تأخذ الحياة فيه لوناً واحداً ؛ فلا شرقي ، ولا غربي ، ولا أبيض ولا ملوّن ، ولا رجال ولا نساء ، بل الكل إنسان عامل متعاون

مع غيره في الحصول على حياة فضلى ، ونظام اجتماعي أتم ، متعاونين في كشف ما أودعه الله هذا العالم من عجائب وغرائب ، واستخدام ما هو كامنٌ فيه من قوى ، واستظهار ما فيه من قوانين وقواعد طبيعية ، متمتعين بما فيه من مباهج وخيرات .

والعراق جزء من هذا العالم الفسيح بنفسه ، الضيق بتقاليده ، وشعبة من شعبه المتمدنة ، تقلبت فيه أحوال المرأة تقلب أحوال الرجل ، ولكن كان قسطها من التقلب أوفى وأربى ؛ فقد نهضت المرأة أوائل النهضة الثقافية فيه نهضة لا بأس بها ، فظهر فيهن الشواعر ، والفقيهات ، والمحدثات ، والصوفيات ، والرجل يساندها في كل ذلك ، بعد أن علمه الدين أن المرأة والرجل سواسية في المجتمع ، وأن كلاً منهما عضو في جسمه ، لا يصلح إلا بصلاحهما ، ويفسد بفساد أحدهما ، وأن كلاً منهما مأمور بالعمل ، منهي عن الحطة والكسل ؛ فكان عصراً زاهراً في حياة المرأة العراقية ، تملك فيه حظاً وافراً من الحرية والأدب الاجتماعي ، وتتقدم الى الأمام مع الرجل بخطى واسعة . ولكنها أخذت بعد ذلك تتراجع القهقرى ، عند ما ظهرت الفتن في بغداد تترى ، ثم عمت العراق كله الطامة الكبرى ، والقارعة العظمى ، طاغية التتر التي حبست الرجال في بيوتهم ، فضلاً عن النساء ، فتقاصرت خطاها ، وتراجعت بلا انتظام ، حتى انزوت في بيتها ، بل أصبحت حلسه وقعيدته ، وانفرد عنها الرجل في العمل ؛ فهو وحده العامل ، وهي الطاعمة الكاسية ، وهو وحده الآمر الناهي ، وهي الطائعة الخاضعة ، على أن حظ كثير من الرجال في ذلك العصر لم يكن أحسن من حظها ، إن لم يكن أسوأ منه . . . وهكذا سنة الانحطاط تطمس النور ، وتظلم الآفاق .

ولما حدث الانقلاب العثماني — والعراق أحد أجزاء الدولة العثمانية إذ ذاك — تفتحت أبواب البعث ، فانبعث العراق يتمتع بحياة جديدة كان للمرأة نصيب منها ، ولكن ظل بطيئاً يمشي الهوينا ، يتعثر ولا من قائل «لعا» ، الى أن تأسست

الدولة العراقية وأصبح باني مجد العراق (فيصل الأول) ملك العراق ، فوجه عنايته الى النهوض بالمرأة ؛ ففتحت مدارس البنات ، وأخذت المرأة تتقدم في مدارج العلم ، ثم أخذت طريقها الى دور المعلمات والمعلمين ، ثم الكليات . وكانت مؤلفة الكتاب الأستاذة صبيحة الشيخ داود ، عضو محكمة الأحداث ، أول فتاة دخلت كلية في العراق ، وهي كلية الحقوق ، باستثناء فتاة أخرى دخلت كلية الطب ، وكنت آنذاك عميد كلية الحقوق . وقد وجدت فيها النشاط ، والانصراف التام الى الدراسة والتتبع ، فتوسمت فيها كل الخير ، وحدست أنها ستكون القدوة الصالحة لأخواتها الفتيات العراقيات ، وقد صدق حدسي ، كما اني حزرت أن تقوم بخدمات صالحة في المجتمع النسوي في العراق ، وأن ستنشر مؤلفات وأبحاثاً علمية ، فكان ما حزرت ، فقد كتبت أبحاثاً في مواضيع مختلفة نشرت في المجلات والجرائد ، وكان آخر ما وقفت عليه من ثمار أعمالها كتابها « أول الطريق » . فقد ظهر لي من تصفحه أنها بذلت جهداً كبيراً في تأليفه ، خصوصاً ما أوردته في فصل (المرأة في الريف) ، وفصل (تعليم المرأة) ، وفصل (المرأة في ميدان العمل) ، وأعجبني كثيراً ما ذكرته في فصل (سوق عكاظ) ، وقد كنت من الشاهدين في هذا السوق الذي قام برعاية صاحب الجلالة المرحوم باني مجد العراق .

وقد دفعني الى كتابة هذه المقدمة قيام الصلة الوثيقة بيننا ، صلة أستاذ مخلص مع تلميذة نجيبة وفية ، فقد قضيت في تدريسها مع زملائها أربع سنوات في كلية الحقوق ، وهي الفتاة الوحيدة بين نحو ألف طالب يحترمونها وتحترمهم ، ويقدرون نشاطها وسعيها ، وتقدر أدبهم ، وحسن سيرهم معها على وجه المساواة ، والحرمة المتبادلة .

إن النهضة النسوية الثقافية التي فتحت بابها الأستاذة صبيحة الشيخ أحمد الداود في الدراسة العالية قد آتت ثمارها النافعة ، وامتد مفعولها الى سائر مدن العراق على اختلاف عناصره ، وأديانه ، ومذاهبه . وقد أثبت الاحصاء أن المتخرجات في

الكليات قارب ألفين وخمسمائة متخرجة ، من حقوقية ، وطبيبة ومهندسة ، ومعلمة ، وباحثة اجتماعية ، وصحفية ، ومذيعة ، وهـذا التقدم في الدراسة العالية ، والعمل في سائر مناحي الحيـاة الاجتماعية ، لدليل واضح على أن العراق سيقطع مسافات واسعة في الرقي ، ويشارك الأمم في سيرها ، ويشاطرها النفوذ في مقدرات العالم ، كما سيقدم للعالم الخطط الاجتماعية المفيدة .

إن الفتاة العراقية في عصرها الحاضر متطلعة الى السمو ، كغيرها من فتيات الأمم المتمدنة الأخرى ، ولا يبعد أن تفوق كثيراً من فتيات تلك الأمم . والذي أرجوه لها أن تحافظ على اتزانها ووقارهـا ، وتتمسك بتقاليدها الشرقية الصـالحة ، وأن لا تنجرف الى المهاوي التي انجرف اليها كثير من الفتيان والفتيات ، باسم المدنية ، فتضيع جهودها ، ونحن في مبدأ نهضة تحتم علينا أن نكون راسخي الأقدام في ميادين الفضيلة ، بعيدين عن الزهو والترف اللذين لا يعقبان إلا الخيبة والأسف .

وأخيراً أكرر القول إنني أتوسم ـــ في تليمذتنا مؤلفة الكتاب ـــ خيراً كثيراً ، وأرجو لها أن تبقى قدوة صالحة لأخواتها .

أوّل الطريق

الى النهضة النسوية في العراق

اذا كان لكل كتاب (فاتحة) على عادة المؤلفين ، ففاتحة كتابي وهو يستعرض قصة النهضة النسوية في العراق ، التماس عفو العاذرين لا لوم العاذلين على ما قد يبدو فيه من نقص حين تنشد جمهرة القارئين الكمال .

ولسائل ان يسأل :

متى اختمرت فكرة وضع الكتاب ؟ وكيف أخذت طريقها الى حيز التنفيذ ؟ وما الدوافع الى تسجيل كفاح المرأة العراقية في معركة البناء القومي والاجتماعي ودخولها معمعة النضال من أجل خلق مجتمع سليم يشيع فيه تكافؤ الفرص ، وتسوده العدالة ، ويقيم قواعده التحرر والتعاون .

لقد اختمرت فكرة تصنيف (أول الطريق) متأثرة أول مرة بالمحاضرة التي ألقيتها بدعوة من أخي الدكتور خالد الهاشمي عميد دار المعلمين العالية السابق وموضوعها « ملامح من النهضة النسوية »[1] . وخرجت وأنا أنهيها بنتيجة واضحة هي : أن الجيل الجديد يكاد يكون بعيداً عن معرفة تطورات قضية المرأة الجديدة في العراق ، وعلى غير علم بجهادها الشاق ، ووعيها المتكامل ، ووجدتني وسط أمواج من الحيرة والمساءلة ، والاعجاب من أبناء هذا الجيل ، وإزاء قلوب ونفوس حرة تريد أن تعرف وتعترف بجهاد الأخريات دون تعنت ولا خيلاء . فلم أكد أتخلص من محاضرتي تلك حتى وضعتني الظروف بين يدَيْ أكثر من دعوة لاخراج كتاب يحيط بتلك الملامح من قصة المرأة ، ويشرح ما أحاط بها من

(١) ١٩ آذار ١٩٥٦ .

الانفعالات والمؤثرات ، ويصحح الروايات التي نقلها بعض المؤلفين والكتاب والخطباء الذين عالجوا قضية المرأة دون أن يكون لهم سند من الحق والواقع في أكثر الأحيان . ولشد ما كان الألم يعصف في جوانحي حين أرى أجيالنا الطالعة جهلت الدور المشرف للنهضة النسوية ، وغفلت عن فهم أثر المرأة في حياتنا الاجتماعية والقومية ، ويزداد تأثري حين تضيع تلك الحقائق المجلية في عباب الزمن ، ومشكلات الحياة ، في حين أن تاريخ المرأة حافل بجلائل الجهود ، ومفاخر الأعمال ، وان نهضتها الحاضرة وليدة زمن طويل عبرت عن طريقه الى عالم أكثر حرية ، وأوسع نطاقاً وأبعد إمتاعاً وإشراقاً .

ولم أكد أشرع في كتابة الصفحات الأولى من «أول الطريق» حتى واجهني ما كنت أخشاه وأحاذر منه ، فقد بدت لي المصادر شحيحة ، وبعض من لديهم تلك المصادر من كرام العقائل ، والرجال قد رحلوا ومعهم أكثر ما ينتفع به ، وعدت أبحث عن مصادري الخاصة ، وأصول مذكراتي ، وأرجع الى من تصل بينه وبين النهضة وشيجة أو عروة ، ثم أوازن بين ما أعلمه بحكم صلتي بالنهضة وبين تلك المعلومات في سبيل تثبيت فصول الكتاب متوخية الحقائق والوقائع وفاء بأمانة المؤرخ وخلوصاً واستيعاباً لحق التأريخ .

ولست بحاجة الى القول إن الأمثلة على نصب البحث في موضوع دقيق كالذي يدور (أول الطريق) حوله ، كثيرة لا تقع تحت حصر ، ومنها أن الاستقصاء والبحث عن رقم أو تأريخ كان يتطلب جهداً متواصلاً ومراجعات عديدة ، ومتابعة شاقة قد تستغرق الأيام والأسابيع . وإن القارىء حين يواجه كتابي هذا ، ويمضي فيه سيرى مرحلة بعد أخرى مدى العناء الذي بذل ، والوقت الذي أنفق في تصنيف فصوله ، وتجريد معلوماته . وإنني حين أقول هذا لا أمن به على أحد ، فهو واجب علي باعتباري أول عراقية تتصدى لبحث مرحلة من أهم مراحل الحياة الفكرية

والاجتماعية إن لم تكن إنقلاباً عاماً . مرحلة البداية التي نرى فروعها اليوم يانعة مزدهرة ، ولكن جذورها مبعثرة في حكم الضياع .

ولست أزعم أنني كنت مسؤولة الى حد ما عن هـذه المرحلة التي عاصرتهـا ، وعملت فيها . . فانني لا أرى لنفسي أي فضل في هذا ، أللهم إلا ميزة السبق التي وضعتني مع طائفة من أخواتي العراقيات في هذه الحركة فبذلت جهدها لتكون طليعة غير مخفقة .

لقد كان لزاماً علي إذن أن أسجل هذه المرحلة .

كانت الحوافز لوضع (أول الطريق) تتجدد بين الفينة والفينة . ولا شك في أنني كنت أعد مسؤولة الى حد كبير لو لم أضطلع بهذا العبء بكوني واحـدة ممن ماشين النهضة ، وساهمن في إرساء قواعدها وأصولها ، بين أول دفعة من الطالبات ، وأول طليعة من المعلمات . . ثم في أول مرحلة للتعليم المختلط في هذه البلاد .

لقد سئلت مراراً من هيئات نسوية ، وأجنبية دبلوماسية ، بلهجة لا تخلو من اللوم عن سبب إعراضي حتى الآن عن وضع كتـاب يسجل أثر المرأة العراقيـة في موكب التطور المحلي ، بل التطور العالمي . . هذا الى جانب شعوري الخاص بمثل هـذا التقصير . . الشعور الذي ما عتم أن تحول الى تقريع وتأنيب . . فقـد كان الفراغ حقاً في هذا الباب بحيث لم يعد ثمة مجال لاغفاله أو الاغضاء عنه .

إن الأفكار أخذت تتجدد في هذه الأعوام بسرعة ، وبدأ المجتمع العراقي يشهد تحولاً خطيراً بدخول المرأة في الحياة العامة . وقد تكون مواقف المرأة وكفاحها في الماضي في سبيل أهداف حيوية صالحة اليوم للتندر . . كالسفور والحجاب ، والتعليم المختلط ، واشغال المرأة لوظائف الدولة وغير ذلك . وقد يكون من حق هذا الجيل أن يسخر ، ولكن عليه للانصاف أن يتذكر مدى الكفاح المرير الذي خاضته المرأة

لتصل الى ما نراه اليوم في أكثر حقول المعـــرفة والعيش . وإني لأسجل في (أول الطريق) تلك البداية المرة : مزيج من الجمود والعنف ، والسيطرة البيتية الكاملة ، ثم روح التصدي الباسلة في المرأة لمواجهة متطلبات الحياة وحاجاتها .

وعقيدتي أن الزمن لم يعف بعد على ما كانت تسام المرأة به من الأحكام الجائرة ، والقيود الجافة القاسية ، والمناهضة التعسفية الشائنة كما حدث في عام ١٩٢٣ عند ما احتج رجال اتسموا بالدين على إطلاق اسم « النهضة النسائية » على ناد للمرأة . . أو في مشاركة صبية في سوق أدبي . . وكما حدث عام ١٩٢٤ عند ما أرادت السيدة معزز توفيق برتو مديرة المدرسة البارودية للاناث المشاركة في الاستقبال الشعبي الذي أقيم يومئذٍ بمناسبة وصول الأمير غازي ولي العهد فسمحت لبعض الطالبات بالخروج الى ساحة الاستقبال في الكرخ بزي الكشافة يتقدمهن العلم العراقي تحمله الطالبة فردا كريمة الدكتور محمد شكري صكبان .

وكان النقد الذي وجه على المديرة بسبب خروج طالبات لا تتجاوز كبراهن الثالثة عشرة مصبوباً على ارتدائهن ملابس الكشافة الخاصة بالطلبة ومرورهن في شوارع بغداد بحيث عدّ عملهن انتهاكاً للفضيلة وخدشاً للحرمات التي تعارفها المجتمع . .

وكما حدث عام ١٩٣٢ عند ما بيعت مجلة العروسة المصرية بأضعاف ثمنها لأنها نشرت صورة (ابنة الشيخ) وهي تعزف على (البيان) .. وكما حدث سنة ١٩٣٦ في أول مرحلة للتعليم العالي المختلط ..!

في هذه اللمحة المستعجلة لا نملك أنفسنا من الدهش ، لما حققته السنوات السبع والثلاثون الماضية في ظل الحكم الوطني ليس في تقدم المرأة في مجالات العلم ومضامير الحياة الاجتماعية ، بل في هذا الوعي العظيم الذي ساهمت المرأة

فيه بقسط كبير وأخذت بسكانه ، ووجهته تلك الوجهة الوطنية الصحيحة . ولا نستبعد أن نشهد في السنوات السبع والثلاثين القابلة من آثار هذا الوعي ما تثلج له القلوب الكبيرة التي تؤمن بوطنها ، وتحبه أبلغ الحب ، وتجهد صادقة لتحول هذا الايمان والحب الى صروح باذخة لا تنال منها الغير ، ولا أحداث الزمان .

وحقيقة أخرى أحب أن أعطف قلمي على ذكرها في هذا المقام .

إن (أول الطريق) ليس تأريخاً بالمعنى الكامل (للنهضة النسوية العراقية) ، وليس بحثاً خالصاً بالأرقام والوقائع .. وإنما هو يصور جانباً من هذا التأريخ ، ويعني بابرازه ويمهد طريق البحث عنه باسهاب أمام اللواتي قد يتصدين له في المستقبل . وإن بعض أبواب البحث من التشعب والسعة بحيث تحتاج الى دراسات خاصة ومفصلة . وإنني حين أضع بضاعتي فيها ، تمتلىء نفسي من الأمل في أن تواصل أخريات المسعى لملء الفجوات التي بقيت لضيق الوقت ، أو لضيق الامكانيات وشحاحة المصادر . ولكني مع ذلك أحب أن أقول إني حاولت في كثير من الحرص أن أكون مفيدة في هذا الكتاب فلم أترك شاردة ولا واردة جرت في خيالي أو حياتي دون تسجيل حتى لو كانت بعض جديات تلك المرحلة تبدو مضحكة للعقلية المعاصرة الجديدة كما لمحت إليه مراراً . وإنني شخصياً أقف أحياناً مبهورة ومتعجبة بازاء بعض المقارنات بين الماضي والحاضر ، فلقد بلغ التطور في بعض نواحي حياة المرأة العراقية مدى لم يكن يتوقعه أكثر المتفائلين ، بل إن بعض العادات والمظاهر التي كانت مدعاة للهجمات والعتاب والسباب في الماضي تبدو اليوم عادات ومظاهر متحفظة الى حد الجمود .

ويذكر لي أحد وزراء المعارف السابقين أنه فوجىء بشخصية معروفة بمكانتها العلمية والدينية في النجف تزوره قبل بضعة أعوام لتطالبه بتذليل بعض العقبات

القائمة في طريق إيفاد كريمته الى الولايات المتحدة الأمريكية في ضمن البعثة العلمية . وما أعظم هذا التطور العجيب بالقياس الى المقاومة التي أبداها النجفيون حتى سنة ١٩٣٣ لفتح مدرسة للاناث ، فاضطر قائممقام المدينة الى أن يفتحها بعد أن يقسم بأغلظ الايمان أنها لبنات الموظفين وحدهن !

ويتحدث الأستاذ جميل بيهم صاحب التصانيف والمؤلفات المعروفة في قضية المرأة بعدة حوادث تلتصق بتطور المفاهيم لقضية المرأة العراقية .

وفي كتابه ـــ الانتدابان في سورية والعراق ـــ يقول « إن إقبال العراقيين على تعليم المرأة جاء من قبيل البشرى بحسن المستقبل . و (القبر ولا المدرسة) . هذا ما كان يصرح به جمهور من الشعب العراقي حينما سعت الحكومة لفتح مدارس البنات . ثم اشتد الصخب على هذه المدارس ، وقامت حولها ضجة ما كان أعظمها لما أمر ساطع بك الحصري القيم على المعارف وقتئذ بأن ترتدي الطالبات اتآماً سوداء فوق أثوابهن . . » .

وفي مجال آخر كتب الأستاذ بيهم يقول :

« إن أحد أنصار المرأة من علماء بغداد ، اقترح بمناسبة وجودي فيها على بعض أعضاء المجمع الأدبي تكليفي إلقاء محاضرة نسائية ، فلم تجمع كلمتهم على قبول هذا الاقتراح بداعي أن الرأي ليس مستعداً لسماع بحث علني في موضوع المرأة .

« غير أن جمعية أخرى في بغداد ما لبثت أن دعتني لالقاء تلك المحاضرة ، ولا أدري أكانت على غير رأي القائلين بعدم ملاءمة الظروف للبحث في هذا الشأن ؟ أم إنها كانت أجرأ من سواها ، إنما الذي يهمني أن أقول إنه ما أعلن منتدى التهذيب نبأ المحاضرة التي سألقيها حتى حصل لغط في بعض المجتمعات وجاءني على الأثر صديق من أعضاء المجمع الأدبي وشرع يسدي إلي النصح بالعدول عن الكلام في موضوع المرأة ويحذرني من العاقبة ، وذهب بعضهم مذهباً آخر في ردي عن عزمي

فراجعوا الحكومة ..؟ ولكن الحكومة كانت حازمة فلم تتعرض لمنع المحاضرة ، وإنما اكتفت بارسال عدد من الدرك للمحافظة . وأما النساء فقد كان تهافتهن على طلب أوراق الدعوة شديداً ، وإقبالهن على سماع المحاضرة عظيماً ، مما يدل على عظم استعدادهن للنهضة رغم شدة التضييق عليهن . وقالت صحيفة (العراق) يومذاك إن كثيرات من اللواتي جئن بعد بدء المحاضرة لم يجدن موضعاً للجلوس .. »

✣

ولست أنسى في تبيان بعض هذه المشاق التي عانتها المرأة العراقية ما حدثني به الأستاذ ساطع الحصري عما كان يكابد تعليم المرأة من المثبطات . وقد قال :

« ـــ في ذلك التأريخ ، كان الرأي العام لا يرضى بدخول أي رجل كان لأي سبب من الأسباب في مدرسة البنات ، حتى إن دخول عتال في المدرسة حاملاً على ظهره خزانة أو منضـــدة ، كان يمطر ادارة المعـارف بوابل من الشـكاوى والاحتجاجات . كما أن دخول أحد المفتشين الرسميين للرقابة والارشاد ـــ كان يثير مخـاوف الكثيرين من المسؤولين حتى بعـد مرور بضع سنوات على بدء الحكم الوطني . . » .

وما يقال في تعليم المرأة . . يقال في نشاطها في سائر المجالات الأخرى . فان المرأة كانت تستمد من الصعـاب والمشكلات التي تحيق بنهضتها عزيمة فذة ، وتصميماً قاطعاً ، واندفاعاً في النضال . وكانت نهضة المرأة ثمرة من ثمرات التطور والجهد المنظم ، وليست وليدة الطفرة والاحكام المبتسرة .

وسيرى الذين يقرأون هـذا الكتاب أنني حددت نهوض المرأة الجديدة بعاملي الثورة العراقية وحركة التعليم ، ولا يعني هذا أنني جهلت مقامها وجهدها ، ومكانتها في الأسرة قبل ذلك ، ولكن الذين يشايعون هـــذه النهضة الباسقة لا يدهشون لاقترانها بالثورة وارتفاع صيحتها في سبيل حرية الوطن وسيادته . ففي الثورة سارت

أول مظاهرة للمرأة . وفيها بدأت أول عملية اكتتاب لغرض وطني . وقدمت أول احتجاج . وفي الثورة لم تبال المرأة بكل تضحية بالمال والرجال ، والغالي والرخيص ، والنادر والمتيسر .

إنني لا أتورع مرة أخرى عن نشدان العذر من جمهرة القراء لما قد يجدونه في فصول هذا الكتاب من العيوب والمآخذ . وأود أن أعتذر بصفة خاصة مما ورد عني في بعض هذه الفصول بالذات ، فقد دفعت الى ذكرها بحكم صلتي وصلة أسرتي بموضوعات النهضة النسوية . وما كنت لأسلك هذا السبيل لولا ما وطدت العزم عليه عند ما بدأت مشروعي من رواية حديث هذه النهضة بروح التأريخ ، ووعي الحقائق ، وفهم الزمن .

وبعد ... فاذا كان هـــذا التطور الذي أتحدث عنه في الكتاب يلقي ضوءاً على مستقبل المرأة العراقية من خلال ماضيها ، فان الأمل أكبر في أن تكون عما قريب شريكة حقاً للرجل العراقي في نضاله المواصل لبلوغ حياة عادلة ، كريمة ينعم فيها جميع من يضمهم هذا الوطن ، وتظللهم سماؤه .

صبيحة

العراقية في ثورة ١٩٢٠

لكل نهضة من النهضات التي شهدها تأريخ العالم أوضاع معينة ومعالم محددة ، وقد تميزت النهضة النسوية العراقية بطابع خاص واستقامت على تخوم عنصرين بارزين : (أولاً) الثورة العراقية بما هيأته لها من يقظة وطموح ولجت عن طريقهما مسالك الحياة واستطاعت أن تضم صوتها الى أصوات المطالبين بحرية الوطن غير مبالية بما يتطلبه ذلك من الجهد والتضحيات . (وثانياً) التعليم بما حققه من وعي وانتباه ضمنا لها بمرور الزمن ما تنشده من الرقي والكمال .

ولما قامت الثورة العراقية في عام ١٩٢٠ انتظمت الشعب بأجمعه وانطلقت تلك القوة التي استسلمت للكرى أحقاباً طويلة ، كهزيم الرعود ، وزئير العواصف ، وقوة الأقدار لا تلوي على شيء .

وشهد تأريخ العراق أحداثاً خارقة ...

لقد صهرت الحوادث هذا الشعب وجلت معدنه ، فانطلق في ثورة عاتية يلقي في أتونها بكل ما يملك من طاقة وحيوية ويجود في سبيلها بالغالي والنفيس ، وتتداعى خصائصه في قوة الزخم لا تقف في وجهه عقبة ، ولا تفرق بين أبنائه قيود أو سدود .

وفي صراع هذه الأحداث الخطيرة ، ظهرت المرأة تثبت في عنفوانية رائعة أنها لا تقل عن الرجل في تفهم الأهداف الوطنية التي كان الشعب يرمي اليها ويؤمن بها أشد الايمان ، من أجل استكمال سيادته وحريته ، فلم تتخلف في الريف أو المدينة عن احتمال أعباء الجهاد بكل ما فيه من تضحية وفداء ، واستطاعت أن تسوق

الأمثلة الخالدة على جدارتها بحمل التراث القومي باستحقاق وأهلية . . بل ان المرأة في الريف حيث اندلع شرر الثورة ساهمت الرجل في كل شيء حتى القتال . وكانت تتابع المجاهدين تحمل أمتعتهم وتأتيهم بالزاد والمال ، وتستنفرهم الى القتال وتثير النخوة في نفوسهم (بالزغاريد) وأهازيج الهوسات .

وقد استوعب تأريخ الثورة العراقية شواهد حفلا بايمان العراقية وأثرها في التأريخ القومي ، ومن ذلك أن امرأة من عشيرة بني عارض في الرميثة كان لها ثلاثة أولاد وزوجها مع المحاربين ، وما كاد القتال ينشب مع القوات البريطانية حتى وقفت في وسط المعركة ناشرة شعرها وهي تصرخ :

وين اخوتي الطيبين أهل الحمية انطوا تلف للدين بالمية ميـــة

ولما قتل ولدها الأكبر جلست تلثم جروحه وتقول :

عفيه اولدي شيال راسي ردتك ترد ذوله الجواسي
وبموتتك كويت باسي

وقتل بعد ذلك زوجها في موقعة « النارضيات » فوقفت تندبه :

عمرك كضيته بعز يميمر أو لا واحد اليدناك يكدر
وبعزمك تعارچ العسكر ولموطنك معرض مكنطر
الفخر الك جاورت حيدر

وتقصد قضيت عمرك كله بعز وما كان أحد يستطيع الاقتراب منك وكنت في وطنك العقبة الكأداء أمام الأعداء .

وقتل ولدها الثاني في معركة العارضيات الثانية واسمه جبر ، فوقفت عنده تندبه وتقول :

شلتك بطني تسعة اصحاح واحفظتك من اجله شمس ضحضاح
المابين كومك كمر وضاح ردتك لمثل اليوم سفاح
تطارد و (الصوجر) أهل الارماح شيال راسي يوم الصياح

وبقى ولدها الصغير واسمه « حاتم » فكان مع الثوار في ساحات القتال . وفي ذات يوم نفدت ذخيرته ومؤونته فذهب الى الرميثة ليشتري الطعام من هناك وبقي يومين ، ولما رأت أمه أنه قد تأخر ذهبت اليه ، وعند ما شاهدته جالساً في داره صرخت في وجهه بعد أن لطمت وجهها « أجالس أنت وأبناء عمومتك طعمة لنيران مدافع الأعداء وطياراتهم ؟ أنا لا أرضى عنك إن لم ترجع لتقاتل مع المجاهدين » . فقال لها انه تعب ويحتاج الى الراحة . فأجابته إنها لا ترضى عنه حتى يعود الساعة . فقام وذهب الى ساحة القتال وهي وراءه (تزغرد) .

وكان لـ (نجيـــدة) من بني حجيم ولد في الثامنة عشرة قتل والده في واقعة « البواخر » بين الثوار والانكليز وطلبت الأم من ولدها ـــ ولما يمضي على زواجه سبعة أيام ـــ أن يحتل مكان أبيه بين الثوار وأمه تدفعه بالزغاريد . وقد قتل في معركة « القطار المحصن » فهجمت والدته على النيران وحملته وهي تهوس :

عريد اسم امك يا هيبه

أي أن أمك أفعى فيجب أن تكون عريداً (١) .

على هـذه الشاكلة كانت الريفية العراقية تشـارك الرجل في كفاحه ، في تلك الفترة الدقيقة . وهكذا كان أسلوب الحياة ، واندماج المرأة في الحياة العامة يؤهلها لركوب ذلك المركب من النضال العنيف ، ولكننا إذا انتقلنا الى المدن ، وخاصة بغداد ، حيث كان النشاط السياسي يبلغ ذروة ، نجد أن دخول المرأة في ذلك الصراع يأتلف مع طبيعة الحيـاة في المدينة ومع الظروف الاجتماعية القاسية التي كانت تسدل على المرأة ستاراً ثقيلاً يحول بينها وبين الظهور في المجتمعات ، ومع ذلك يجب أن نعترف بأن العراقية ولجت هـــذا الباب بكل حزم وأخذت تظهر بالتدريج للعمل بصمت في سبيل المساهمة ولو بحظ ايجابي محدود في الثورة .

---

(١) الآنسة زكية شاكر .

لا يخامرني أدنى شك في أن تأريخ الحركة الوطنية يزخر بصفحات ما زالت مجهولة يبين ذلك الأثر العميق للمرأة العراقيـــة في الكفاح واستماتتها في سبيل البواعث والغايات العليا التي آمن الشعب العراقي بها في تلك المرحلة التأريخية . وجميع تلك الأحداث والوقائع تشهد بأن المرأة العراقية لم تقف بمعزل عن تيارات الوعي الوطني ، على الرغم من أن الحجاب والأحوال الاجتماعية كانت تقف عاثوراً في طريقها ، ولم يثنها شيء عن مساهمتها في إلهاب العزائم وإثارة المطامح الوطنية ، ودفع الآباء والأبناء الى حومة المعركة ، واسترخاص التضحيـات مهما عظمت في الأهمية والشأن .

وشهدت وقائع تلك الفترة الحاسمة حقائق رائعة تدعو الى الاجلال والاكبار .

سيدات يدفعن بأزواجهن الى الجهاد ولو أدى الى المعتقلات .

ونساء لا يرضين عن تلك الأهداف عوضاً ولا بديلاً .

وانطوى تأريخ الحركة الوطنية على صفحات خطت بالدم والعرق والدموع . . ولكن المرأة كتبت فيه مع الرجل سفر حرية البلاد وسيادتها وكيانها .

وحدث في ذلك التأريخ أن تألفت لجنة تضم عقيلة الشيخ أحمد الداود وفريقاً من السيدات[1] لعضد الثورة عن طريق جمع المال لامداد المجـاهدين ونصرتهم . وفي الوقت عينـه كن يجمعن النســـاء من دورهن ويشرحن لهن ضرورة القيـام بالواجب عليهن الى جانب الرجال . وضربت المرأة بسهم وافر في تبرعاتها السخية بالحلي الثمينة والنقود دفعتها طواعية منها وحرصاً على تحقيق الغايات الوطنية النبيلة .

وقد نجحت اللجنة في عملها نجاحاً لفت الأنظار وسلمت المبالغ الكبيرة التي جمعتها الى الهيئات العراقيـة التي كانت تنهض بالثورة وأعبائها وتلقت اللجنة كتاباً تضمن التنويه بجهود المرأة العراقية واستبسالها والاشادة بمواقفها الوطنية .

---

(١) الأستاذ عيسى عبدالقادر .

ولا مفر لي من باب الاقرار بالوقائع التأريخية إذ أذكر في سرد هـذه الفترة دور المرحومة والدتي . إني ما أزال أذكر باجلال كيف تلقت أنباء اعتقال السلطات البريطانية والدي ونفيه الى هنجام ، وكيف كانت لا تتردد عن الافصاح دوماً بأن المرأة التي تؤمن بوطنها لا تهمها أية تضحية مهما كانت جسامتها ولو كان ثمن ذلك حرية زوجها وحياة ولدها . وحدث في ذلك الحين بعد أن قررت السلطات إبعاد والدي الى جزيرة هنجام أن مدير الشرطة البريطاني حصل على أوامر « بالتحري » في منزلنا على أمل أن يحصل على بعض التقارير والمستندات السياسية ، غير أن تلك المحاولة باءت بالخيبة والاخفاق .

ولم تتمالك والدتي وهي تشهد المدير البريطاني يقلب عالي المنزل على أسفله أن بادرته قائلة :

« ـــ يبدو لي أنك شرطي غشيم ؟! كيف تعتقد أن رجال السياسة في العراق من البلاهة والسذاجة بحيث يلجأون الى الاحتفاظ في منازلهم ـ المهددة بالتفتيش كل دقيقة ـ بأوراق ومستندات لتقع في أيديكم غنيمة باردة ؟

إن السياسي المحنك يقدر الأمور حق قدرها ويعرف كيف يحتفظ بمثل هذه الوثائق » . وفهم المدير البريطاني هـــذا التأنيب وأخرج منديله يجفف العرق المتصبب على جبينه . والواقع أن والدتي نجحت يومذاك في الاحتياطات التي اتخذتها لاخفاء المستندات والوثائق الخاصة بالثورة العراقية في سقف إحدى الغرف ، وكان من المستحيل أن يخطر ببال رئيس الشرطة أو غيره الوصول الى ذلك الحرز الأمين الذي لا تناله أيدي الشرطة ولا تمتد اليه عيونهم .

ولم تفت والدتي ـ يرحمها الله ـ فرصة دون أن تغمز قناة بعض المتغطرسات من الانكليزيات اللواتي كن يحاولن وضع أنفسهن في مراكز يحاولن عن طريقها النيل من كرامة المرأة العراقية والنعريض بجهلها . وكانت يرحمها الله تصب لاذع

سخريتها على رأس المس ـ بل ـ السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي .. وفي يوم من الأيام بادرتها بالقول : إن نساء هـــذا البلد يتحلين بأشياء كثيرة قوامها الفضيلة والوطنية الصادقة واعتزازهن بقوميتهن . أما العلم فيمكن تحصيله في عشر سنوات أو عشرين . ولكن المعضلة يا مس بل هي أن الأخلاق والروحيات والتمسك بالتقاليد لا يمكن لكل الأمم أن تحصل عليها ، لأنها غرائز يهبها الله لمن يختاره من الأمم ، ونحن لا نخجل من هذا ، بل نعتز بهذا التراث الكبير ، وسنقيم حياتنا على أركانه .

أول مظاهرة للعراقية عام ١٩٢٠

ولعل أول مظاهرة سارت فيها المرأة العراقيـة للافصاح عن اندفاعاتها الوطنية وقعت في سنة ١٩٢٠ بعـد استشهاد المرحوم عبد الكريم رشيد النجار المعـروف بالأخرس .

وبهـــذا نرى ان الاجتماعات التي نظمتها العناصر الواعيـة لاستنكار مسلك السلطات البريطانية في مقاومة الأحرار ، واضطهاد الميول القومية جلت الى حد بعيد سلائق الشعب العراقي . وشاءت المرأة أن تعبر من جهتها عن سخطها وثورتها على الظلم والضيم النازل بالبلاد يومذاك .

وفي الواقع ان مظاهرات جامع الحيدرخانة وما كان يلقى فيها من خطب نارية أشعلت الوعي الوطني واتخذت طابعاً أقلق السلطات الحاكمة ، فبذلت جهدها لمنع المتظاهرين ، وكبت الشعور الوطني العارم باللجوء الى وسائل القهر والاذلال ، فلم تفلح . وفي إحدى هـذه المظاهرات دهست سـيارة الحاكم العسكري والسياسي

المرحوم الأخرس المتقدم ذكره وقضت عليه ، فأثار ذلك الرأي العام وأدى الى انفجار بركان السخط والنقمة في كل مكان ، وجرى في اليوم التالي احتفال مشهود بتشييع جثمان الأخرس صوّر وحـــدة الأمة ، وصهر آلامها وآمالها في بوتقة واحدة . ولأول مرة خرجت المرأة من خدرها وشاركت في التشييع . وسارت جموعهن وراء المشيعين من الرجال وهن يدثرن أجسامهن بالعباءات السوداء ويسترن وجوههن وراء الملافع والحجب الثقيلة ، ويرددن في صوت واحد عبارات وطنية تفيض باللوعة والنقمة على الاستعمار والمستعمرين .

أول احتجاج للمرأة العراقية

وكما نجحت ثورة ١٩٢٠ في خلق وعي سياسي وفكري عظيم ، في طول البلاد وعرضها ، فانها نجحت الى حد كبير في أن ترسم للمرأة عنـــدنا صورة واضحة السمات ، بينة التقاطيع ، رائقة الألوان ، تمثل ما كان يخالجهـا من الانفعالات والاحســاسات وهي تشـد أزر الرجال ، وتضطلع بنصرهم ، وتقتحم بتلك الروح الكريمة كل العقبات ، وتضرب أحسن الأمثال على صدق وطنيتها ، ونبل نوازعهـا وميولها .. ويعنينا في هذا المقام أن نقول إن العراقية لم تقتصر على جمع الاكتتابات ، ونشر الفكرة الوطنية ، وتحريض الرجال على البذل والفداء ، وإنما شاركت ايضاً في الاحتجاج لدى السلطات البريطانيـــة يومذاك ، وتميزت المذكرة التي قدمتها السيدات العراقيات في عام ١٩٢٠ الى (المس بل) بطابع خاص ، فهي بمثابة أول احتجاج تجاهر به المرأة وتعلنه بلا ممالأة أو جبن .

وكانت السلطات البريطانية قد أقرت اجراءات مضادة ضد العناصر الوطنية ،

فاعتقلت والدي الشيخ أحمد الداود[1] وفريقاً من السياسيين ونقلتهم الى مكان مجهول ، وقد أثارت هذه الاجراءات قلق الأوساط المختلفة واستنكارها ، وكان أكثرها إيلاما إصرار السلطة البريطانية على عدم إعلان المكان الذي اعتقلت الساسة العراقيين فيه . ولكن والدتي وفريقاً من السيدات لم يتحملن هذا القرار في رضا وقناعة ، بل سرعان ما أعددن مذكرة احتجاج حملنها بأنفسهن الى المس كرترود بيل مستشارة المندوب السامي وفيها يجدن الأسلوب العقيم الذي عمدت اليه سلطات الاحتلال ويعربن في ثقة وإصرار عن أهمية معرفتهن بمصير المعتقلين . وقد رفضت المس بل في أول الأمر الرد على هذه المذكرة الشديدة ، ولكنها ازاء الموقف العنيد الذي وقفته عضوات الوفد وعدت بأن تجيبهن في أقرب وقت .

ونفذت والدتي قراراً جريئاً آخر . فقد أرسلت في اليوم التالي بكتاب صيغ بلهجة عنيفة الى المس بل . وتقول فيه ما معناه بأن إلتجاء حكومة عظمى كبريطانية الى أسلوب سخيف في كبت المشاعر الوطنية وتجريح الكرامة القومية لا يأتلف بشيء مع ما أعلنته من دخولها العراق بلبوس المحررين ، لا الفاتحين ، وان خشية سلطة قوية البطش والنفوذ ، كالسلطة البريطانية ، من التصريح بمكان فريق من المعتقلين السياسيين مسألة تكشف ضعف هذه السلطة وكذب ادعاءاتها ..

وكان نصر العراقية عظيماً حينما أذعنت السلطات البريطانية فأعلنت نقل المعتقلين بعد بضعة أيام الى جزيرة هنجام .

وهكذا نجد أن الثورة العراقية كانت محكاً لوعي العراقية . . وأثبتت في يسر

---

(١) كتب المرحوم الأستاذ سليمان فيضي في غمرة النضال : إن الجنود الانكليز داهموا دار الشيخ أحمد الداود المجاورة لداري فجراً ، فقيدوه واقتادوه بملابس النوم ، بعد أن نهبوا الحلى والنقود التي وصلت اليها أيديهم ، ثم أبعدوه الى هنجام (ص ٢٥٩ في غمرة النضال) .

أنها لا تتخلف عن واجب ، ولا تقعد عن تلبيته متى دعا المنادي . وصحيح أن ثورة ١٩٢٠ قوضت أول معقل كان يحجر مواهبها وكفاءاتها النادرة ، إلا أنها قيضت لها التقدم في أول الطريق وبدأت حركتها الاجتماعية التي شهدنا طلائعها في عدد محدود من السنين .

التعليم النسوي

قبل أن أسوق هـذا الحديث عن التعليم النسوي باعتبـاره الدعامة الثانية التي استوت عليها نهضة المرأة الجديدة بعد الثورة العراقيـة ، أجد من المناسب أن أنهي أقصوصة وقعت للأستاذ حكمت سليمان ، عندما كان يتقلد إدارة معارف بغداد ، تجلو البون الواسع بين جيلين في تفهم أهداف التربية والتعليم في هذه البلاد .

لم تكن تشكيلات التعليم في ولاية بغداد عام ١٩١٧ تلفت الأنظار بضخامتهـا ولا بميزانيتها الواسعة كما هو شأنها اليوم . إن هذه التشكيلات كانت تقتصر على مدير المعارف نفسه ، يعاونه (باش كاتب) واثنان من الكتاب ، ثم فراش واحد لخدمتهم . أما عدد المدرسين فكان محدوداً ، وعدد الطلبة لا يتجاوز عشرات .

وفي هـــذا الظرف عكف السيد حكمت سليمان يدرس الموازنة وينقل بين الفصول لتوفير مبلغ لا يتجاوز المائة ليرة كثيراً لانشاء مدرسة ابتدائيـة على إحدى العرصات الأميرية في حيّ الفضل من بغداد .

وكان المشروع تصدمه عدة عقبات ، أولاها : أن المبلغ المرصد للمدرسة محدود للغـاية . . وثانيها : أن المشروع يتطلب نقل الآجر « الطابوق » من الكاظمية الى شريعة المجيـدية بطريق النهر . وأخيراً وليس آخراً ، كان رجال الجيش العثماني يضعون أيديهم على كل كمية تصل من « الطابوق » ولو كان بأغراض أميرية كانشاء مدرسة لأبناء بغداد .

ولم يتراجع السيد سليمان .. بل كان يضع عشرات الحلول لتذليل هذه العقبات والسير بالمشروع قدماً . وخطر له فجأة خاطر :

لماذا لا يكتب الى القائم بأعمال الولاية باعتزامه إنشاء معهد يحمل اسم القائد التركي في العراق نور الدين بك ؟ ولماذا لا يطلب الموافقة على هذا القرار باعتباره خطوة أولى لتنفيذ المشروع ؟

ومضت أيام . .

وجاء الجواب بالموافقة ..!

ثم طلب السيد سليمان من القيادة عدم مصادرة الآجر الذي كان يستورد لبناء المدرسة ! وصدرت الأوامر أيضاً الى رجال الجيش بعدم مصادرة الطابوق وتسهيل نقله الى المكان الذي كان يجري بناء المدرسة فيه .

وفجأة حدث في هـذا التأريخ ما لم يكن في الحسبان ... صدرت الأوامر بنقل نور الدين بك من العراق . وبهذا النقل عادت مشاكسات رجال الجيش ، ومصادرة « الطابوق » وتهديد مشروع المدرسة بالاحباط ، ولكن مدير المعارف لم ييأس ، بل كتب الى القائد الألماني الذي خلف القائد التركي : بأنه كان قد أطلق اسم نورالدين بك على المدرسة . أما الآن وقد وصل البناء الى السقف فليس ما يمنع إطلاق اسم القائد الجديد على السقف ..؟!

وهاج نائب الوالي لهـــذا التقريع الذي تضمنه كتاب السيد حكمت سليمان وسأله : هل كان يصح إيراد مثل هـذا الأسلوب في المعاملات الرسمية ؟ فأجاب : وهل مصادرة « الطابوق » من رجال الجيش تدخل ضمن الأعمال الرسمية أيضاً ؟!

وسارت أعمال البناء بعد ذلك بسرعة ، بحيث أنجز في بضعة أسابيع ، وافتتحت المدرسة وقبل في صفوفها عدد من أبناء بغداد .

ومرة أخرى لاحظ السيد حكمت سليمان أن المدرســـة الحديثة تحتوي على قاعات الدراسة وحدها ، وأن الطلبة يمضون كل أوقاتهم في الصفوف لعدم وجود ساحات كافية حولها أو في خارجها . .

مرة أخرى قرر أن يتشبث بكل الوسائل التي تدعم المشروع الناشيء . وفي هذا السبيل دعا نائب الوالي شفيق بك لزيارة المعهد .

وركب الاثنان عربة تجرها الجياد المطهمة تدق بحوافرها أرض الشوارع الضيقة وتثير خلفها عاصفة من التراب حتى وصلا الى المدرسة . وقد أعجب نائب الوالي بالأسلوب الذي تتبعه في تعليم العشرات من أبناء الولاية ، ورجا أن تكون خطوة لمشاريع أخرى مماثلة لها .

واهتبل السيد سليمان الفرصة فلفت نظر الوالي الى حرمان المدرسة من ساحة يفاد منها في أوقات الفراغ للطلبة ، كما لفت نظره الى إمكان ضمان ذلك باستملاك بعض المقاهي المجاورة لها ، منها واحد أقيم على عرصة أميرية . وفي سورة الحماسة والاعجاب اقتنع نائب الوالي بالفكرة ووافق على الاستملاك . ولم يشأ مدير المعارف أن يفوت هذا الظرف المناسب ، فعمد في اليوم الثاني الى تعويض أصحاب المقهى وفي الوقت عينه ضم المقهى الثاني الذي كان ملكاً للولاية ، ولئلا يضيع الوقت بدأت عملية الهدم بهما في اليوم التالي لذلك مباشرة .

وتمضي القصة . . قصة مدرسة الفضل ، في طريق متعثر متوعر ، مملوء بالصعاب . ان المشروع ، واستملاك المباني المجاورة للمدرسة لم يرق جماعة من أعضاء اللجنة المنبثقة عن مجلس الولاية . وفجأة يقرر أعضاؤها عقد اجتماع طارىء للبحث في الموقف ، كما لو كان جزءاً من خطة عسكرية ، ويتفقون في النهاية على مطالبة الولاية باحالة مدير المعارف الى محاكم الجزاء لقيامه بهدم مبان أميرية ، ووضعه اليد على أراضي عائدة للدولة .

ودعا نائب الوالي مدير المعارف يستوضحه معنى هذه الشكوى ، فرد مشيراً الى زيارتهما للمدرسة واستملاك المباني ... كان ذنبه أنه أنشأ مدرسة ! واعتدى على حرمة الأراضي الأميرية ... لمصلحة أبناء الدولة !

واهتز نائب الوالي من الغضب . دعا اللجنة الى اجتماع مهد القول فيه بالحديث عن الدافع النبيل لمدير المعارف ورغبته في تعليم أبنائهم . وسأل : هل كان مثل هذا الصنيع الجميل يصح أن يكون سبباً لطلبهم الغريب في محاكمته ؟ فان كان الأمر كذلك فانهم يتجردون من خلة الوفاء والتقدير ، ولا يتميزون بشيء من الوعي والميل الى خدمة مواطنيهم .

وعقب هذا البيان بتمزيق القرار .

رويت هذه الحادثة لأخرج الى نتيجة واحدة تتصل بما رافق التعليم في العراق من المظاهر في العهود التي سبقت الحكم الوطني . لم تكن هناك إلا اعتمادات محدودة في ميزانية الولاية . وكان أعضاء مجلس الولاية لا يقرون تنفيذ أية مشاريع للتعليم أو غيرها خشية أن لا يبقى ما يدفع لرواتب الأعضاء أو للموظفين[1]. ولم يكن في البلاد إلا عدد قليل من المدارس والكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة . . وإذا كان مبلغ تعليم البنين هذا الحظ من التقصير والضيق والانكار ، فما بالك بتعليم الاناث حيث يكاد ينعدم إذا استثنينا طائفة من الكتاتيب البسيطة تديرها (الملايات) لتعليم قراءة القرآن الكريم ، وأصول الديانة ، وبعض المدارس القليلة للطوائف غير المسلمة ، كانت أسر محدودة العدد ترسل بناتها إليها للتعلم وهن بلا ريب قلة بالنسبة لغيرهن[2]. وقد روى لي فخامة السيد حكمت سليمان أنه عندما تولى ادارة المعارف قام مرة بزيارة مدرسة الاليانس وعلم أن ١٠٠٠ تلميذة من الفتيات اليهوديات يتلقين العلم فيها .

وبعد هذه الزيارة جرى خياله بلغة الأرقام وساءل نفسه : إذا كان هذا العدد يمثل الطالبات في جالية تتراوح عدتها بين ٣٠ و ٤٠ ألف نسمة ، فأي عدد من المدارس للاناث يجب أن ينشأ لبنات المسلمين المحرومات العلم والتعليم ..؟ وهل

---

(١) فخامة السيد حكمت سليمان .

(٢) معجم العراق للهلالي .

يصح التريث في العمل على النهوض بتعليم الفتاة المسلمة وإعدادها عقلياً وروحياً ..؟!

ويذكر فخامته أن هـــذه الزيارة هي التي حملته فيما بعد على إنشاء مدرسة الخاتونية في بغداد .

ويتسع المقام أيضاً لسرد حكاية أخرى عن التعليم وقعت في العهد التركي تظهر بجلاء أن مراحل التعليم في هذه البلاد مرت بمراحل شاقة طويلة كانت تتراوح بين اللطف والعنف ، والقوة والتسامح ، والاهتمام ، والانكار والاهمال .

كان في العراق نظام متبع في المدارس الدينية يقضي بأن يكون لكل أستاذ عدد من المريدين والتلاميذ ، وأرادت المعارف في ولاية بغداد أن تخرج بأسلوب الحياة الخاصة للتلامذة من طور الجمود الى دور آخر أكثر تناسقاً وانسجاماً مع مظاهر التعليم والعيش الكريم . فمنحت كل طالب سريراً وفراشاً يغطيه قماش أبيض نظيف ، الى جانب ما هيأته لهم من وسائل الراحة والنظافة .

وحدث أن قام مفتي بغداد يومذاك بزيارة للمدرسة الدينية ، فما كاد يرى ذلك حتى اهتاج وقطع زيارته فجأة ، وأعلن الويل والثبور على إدارة المعارف بدافع أن تحصيل العلم لا يتأتى في (الشراشف) البيض ولا في تمشيط الرؤوس ، وإنما يجب أن يتم بالجلوس على الحجارة والاصغاء الى الدروس .

وحبكت النكتة السيد حكمت سليمان لهذه الثورة ، فخاطب الوالي قائلاً :

ـــ والي بك ! أفتى المفتي . فقم باجراءاتك ..!!

نخرج من هـذا كله الى أن الاهتمام بتعليم الفتاة كان ضيقاً ، والفرص التي تمنح لها محدودة لا تبين ، ولم تبد عناية خاصة لتكوين مدارس حديثة تتبع السبل الصحيحة في التقويم والتربية كما هو الشأن اليوم .

ومع أن عدد الكتاتيب للبنين المحدود هو الذي ميز ثقافة ذلك الجيل ، فقد كان

من النادر وجود مثل هذه المعاهد (البدائية) للبنات . . هذا إذا استثنينا الكتّاب الذي افتتحته (الملاية أمينة) ، وهو لا يضم من الفتيات عـــدداً يزيد على أصابع اليدين . أما الدروس فلا تعدو قراءة القرآن الكريم والكتابة البسيطة . . وبعبارة أخرى كان استفحال التعصب والتقاليد التي تحرم الفتاة حق العلم من أبرز المعالم التي يتعين الاشارة إليها في الحديث عن كل خطوة في مراحل تعليم المرأة .

وكان (الكتاب) يتألف في العـادة من حجرة أو من سرداب تغلب على جوه العفونة وتعمه الظلمة والحرمان من نور الشمس . أما المقاعد فكانت حصيراً مصنوعة من القصب (البواري) أبلاهـا الزمن وأحالهـا الى مجموعة من الأعواد اليابسة تعشش فيها الأمراض والمكروبات . فليس غريباً والحالة هـــذه أن يصاب معظم الطلبة أو الطالبات بالروماتيزم أو المرض الذي اسمه أبو صفار وغيره من الأمراض المتوطنة .

وتتم القراءة في هـذه الكتاتيب بصورة جماعية . الملاية تقرأ وتهز رأسها في حركة دائبة والطلبة يقلدونها ويرددون عباراتها . . كالببغاوات لا يفقهون لها معنى ولا يدركون حرفاً من الحروف والكلمات إلا ما ندر .

والفراغ من تلاوة سورة من سور القرآن الـكريم أيضاً يتصف باحتفالات تقليدية كان الغرض الظاهر منها تكريم المواهب وحفّ النبوغ بالتقـــدير . أما الحقيقي فهو ما يناله الملا في العـادة من الكسا « الكسوات » والهدايا النقـدية وغيرها . . وقد تستمر هذه القصة . . قصة (ختمة) القرآن الكريم سنوات ، حتى إذا ما أكمل الطالب أو الطالبة الأجزاء الثلاثين ، أقيمت حفلة كبيرة تنويهاً بهذه الفترة الحاسمة من حيـاة الطلبة ..! وطبيعي أن يؤذن ختـام القرآن بانتهـاء مهمة الكتاب وفتح صفحة جديدة لا تقل من ناحيتها المعنوية عن شهادة الجامعة في الوقت الحاضر ، وعندئذٍ ينظم موكب يقطع دروب بغـداد بين الـكتاب ومنزل الفتى أو

الفتاة تتقدم الموكب حملة الشموع وسعف النخيل ، على حين ترتدي الفتاة المحتفى بها وصويحباتها ملابس جديدة دلالة على التوفيق الذي أصابته من العلم .

وفي ذلك العهد لم يكن تعليم الكتابة على الورق كما هو اليوم ، بل يتم عن طريق صفيحة من القصدير أو التنك ، ويستخدم الطلبة أقلاماً من القصب في الكتابة عليها . وتستكمل عدة الكتابة بدواة تحتوي على حبر مصنوع من نفايات الحديد مضافاً إليها أوراق الورد .

وكان العرف التربوي يومذاك أن لا يرفع التلميذ رأسه ، ولا أن يعترض على موضوع من المواضيع أو يناقش فيه أو يسأل سؤالاً . . لأن ذلك يعد خروجاً عن الأدب ، وسبباً في إلحاق العقاب بالطلبة ووضع أرجلهم في (الفلقة) وضربهم بالعصا ضرباً مبرحاً . . وهذا الاجراء كان طبيعياً لا غبار عليه . . إذا أخذنا بعين الاعتبار ما كانت عليه ثقافة الملا المحـــدودة والمستوى الثقافي والاجتماعي السائد في ذلك العهد .

يضاف الى ذلك أن تقلص نطاق التعليم بمفهومه العـام ، والى اقتصاره على طبقات معينة ، يرجع الى عدة عوامل ، بينها اعتبار اللغة التركية لغة التعليم والسياسة التي كانت تسير في ضوئها الحكومة التركية(١) .

في هذا الجو ، وبين هذه التيارات جميعها ، وجد التعليم النسوي طريقه أول مرة في العراق عند ما قرر الوالي نامق باشا عام ١٨٩٩ (١٣١٨ ألهجرية) إنشـاء أول مدرسة بنات للدراسة الابتدائية والمتوسطة دعاه (إناث رشدية مكتبي) .

وفي هذا المقام يحسن بي إقتبـاس رواية طريفة جاءت في معجم العراق تحكي ما كان عليه الوضع يومذاك من اتجاهات في تعليم المرأة ورغبات في إعدادها الثقافي .

---

(١) مجلة المعلم الجديد ـ العدد الخاص بالتعليم النسوي .

لقد ارتأى الوالي أن يعرض على مجلس معارف ولاية بغداد موضوع تأسيس هذه المدرسة . فلما جمعهم ، وأكثرهم من العلماء والرجال المتدينين ، عرض الوالي ما قر عليه رأيه ، فوافق الجميع على ذلك ، إلا أنهم أخذوا يتباحثون في أمر البناية التي تصلح لتكون مقر مدرسة الاناث ، فطال جدلهم وتعددت شروطهم في تلك الدار ، إذ كان رأيهم أن تتصف بما يلي :

(١) أن لا تكون إحدى الدور المجاورة مشرفة عليها .

(٢) أن لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع .

(٣) أن لا يكون في الدور المجاورة لها أشجار عالية .

وغايتهم من كل هـــذا التشدد هي أن لا تتعرض الفتيات وهن يسرحن في صحن الدار في أثناء الفرص أو الاستراحة لاشراف أحد المجاورين !

ولقد كان المرحوم الشاعر الأستاذ جميل صدقي الزهاوي أحد أعضاء مجلس معارف الولاية صامتاً لا يبدي رأياً ، حتى إذا سكت الجميع دون الوصول الى نتيجة تكلم قائلاً :

ـــ إن هذه الشروط والأوصاف التي بينها حضرات السادة الأماجد لا تنطبق إلا على بناية واحدة لم أر أليق منها لأن تصبح داراً لمكتب الاناث ؟

فقال الوالي :

ـــ هات يا أستاذ !

فقال الزهاوي :

ـــ إن هذه البناية هي حوض منارة سوق الغزل ، إذ هو المكان الوحيد الذي تتجمع فيه كل هذه الأوصاف . فهو أعلى مكان في بغداد ، حيث لا يشرف عليه بناء . ثم إن الفتيات يصعدن سلالمه دون أن يراهن أحد ، وليس له شبابيك . ثم إذا تكلمن فلا يسمع صوتهن أحد !

فضحك الوالي وضحك الجميع . واتفقوا على إحـــدى الدور الواقعة في محلة الميدان الجديدة لتكون مقراً لهـذه المدرسة ، وتم تعيين أمينة شكورة خانم معلمة أولى لها يعاونها ثلاث معلمات أخريات ، وتم تسجيل زهاء ٩٠ طالبة فيها(١) .

مكتب الاناث الاسرائيليات

وفي غضون هـذه الفترة أخذ التعليم يسير بخطى بطيئة لا تتسم بأي عمق أو مزية ، وظل عدد المدارس محـــدوداً ، والطالبات قلة بالنسبة الى ما كان ينتظر من الاقبال ، ولكن مع هذا كله ، فقد أنشئت مدارس قليلة في عدد من المدن العراقية .

وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩١١ افتتح في بغـداد مكتب الاناث الاسرائيليات وحضر الاحتفال أحمـــد جمـال بك(٢) وكبار قادة الجيش والموظفين الملـكيين والوجهاء والأعيان ، وبلغت نفقات المعهد ٢١٫٠٠٠ ليرة عثمانية(٣) .

وأخذ اهتمام السلطات العثمانية بتعليم المرأة يحتل مكاناً من عنايتها أوسع من قبـل .

وفي ٢٥ كانون الثاني سنة ١٩١٣ افتتح في بغداد مكتب الاتحاد والترقي للاناث المسلمات وتبرع للمكتب السيد عبدالحسين أفنـدي الدده بعشر ليرات عثمانية(٤) ، وبقى هذا المكتب قائماً حتى الاحتلال البريطاني .

---

(١) معجم العراق ـ للأستاذ عبدالرزاق الهلالي .

(٢) هو جمال باشا السفاح .

(٣) مجلة لغة العرب « ١ : ٢٤٧ ، ٢٤٨ » .

(٤) مجلة لغة العرب « ٣ : ٣٩٢ ، ٤٤٤ » .

مدرسة زهرة خضر

وينبغي أن نلاحظ أن البلاد خلت أو كادت تخلو من معاهد للبنات منذ إعلان الحرب العالمية الأولى ودخول الانكليز العراق .

لقد تجاهل المحتلون إعادة هـــذه المدارس « لأنهم أولاً ليسوا محتاجين الى استخدام الاناث في دوائر الحكومة . وثانياً ، لأنهم لا يوجد لديهم عـدد كاف من المعلمات . وثالثاً ، لأن النـاس كانوا متعصبين غير راغبين في إرسـال بناتهم الى المدارس »[1] .

ولكن هذه الأسباب كلهـا لم تقف حائلاً في وجه بعض السيدات العراقيـات اللواتي عز عليهن حرمان بناتهن من التعليم ، في الوقت الذي أخـــذت تنتشر فيه الدعوة في مصر وسورية وغيرها من البلاد الشرقية الى المطالبة بحقوق المرأة . هذه الدعوة كانت محل اهتمام العراقيات وتطلعهن الى حقوق مماثلة لها ، أبسطها منح المرأة فرص التعليم والثقافة لتكون ربة بيت فاضلة ، وأماً حصيفة قادرة على أن تقدم جنوداً صالحين يخدمون وطنهم في سائر الأحوال والمضامير .

ولا يخامرني أدنى شك في أن أوضح خطوط هـــذا الاتجاه . كانت تمثله المرحومة زهرة خضر[2] التي افتتحت في سنة ١٩١٨ معهداً بثلاثة صفوف ضم ٤٠ طالبة في وقت واحد . أما الدروس التي تقوم بتدريسها فلم تتعـد القرآن الكريم والرياضيات وبعض الفنون المنزلية .

وقد تباينت الأحكام في هذا العمل الذي أقدمت عليه زهرة خضر فقابله بعضهم بالتقدير والارتياح . أما ذوو الأغلبية فدمغته بالأباطيل والضلالات وسلقت خططه بألسنة حداد لا تفهم ولا ترحم .

---

(١) معجم العراق ـــ للأستاذ عبدالرزاق الهلالي .

(٢) شقيقة المرحوم الأستاذ عبدالرحمن خضر .

والحقيقة أن مدرسة زهرة خضر ، هي أول مدرسة أهلية تضطلع سيدة عراقية بانشائها ، دافعها الى ذلك حرص بالغ على مستقبل بنات وطنها ، ورغبة صادقة خالجت صدرها في تعليمهن .. كل ذلك كان جزءاً من رسالة نهضت بها ، ودعت إليها ، وعملت من أجلها على أحسن الوجوه .

ثم حل عام ١٩٢٠ .. البلاد تقف على ناصية طرق عديدة ، والعراقيون تتنازعهم عوامل لها مشابه في كل أمة كريمة تطالب بحقها في الحياة الحرة الكريمة ، وتهيء لبنيها وبناتها مجالات العيش الرغيد ، والعمل المثمر المجدي .

في هـذا الظرف استشعر الانكليز وهم يتولون مقاليد السلطة في البلاد ويمسكون بأزمة السياسة فيها أنه لا مناص لهم — وإن بعد الزمن — من تحقيق بعض الاصلاحات الداخلية ، سواء أكان ذلك عن رغبة حقيقية ، أم لذر الرماد في العيون .

ومهما يكن من أمر ، فقد وعى تأريخ التعليم النسوي طرفاً مما له علاقة بتلك الفترة حينما دعت المس كروترود لوثيان بل المعروفة بدراستها المشرقية وبأنها محور النشاط البريطاني السياسي في العراق يومذاك ـ فريقاً من السيدات العراقيات الى حفلة شاي كان الغرض منها تعرّف آرائهن في المسائل التي كانت السلطات البريطانية تضع نصب عينيها تحقيقها ، وقد وقعت هذه الدعوة في العهد الذي كان السر ريدر بولارد سفير بريطانية السابق في إيران يشرف على إدارة المعارف .

وفي هذا الاجتماع ألقت المس بل خطاباً استهلته بالحديث عن رغبة الانكليز في منح العراقيين فرص الاضطلاع بأعباء بلادهم وادارة شؤونهم واستفسرتهن عن المسائل التي يرغبن في تحقيقها حتى تعمل السلطات البريطانية على إخراجها الى حيز الوجود .

ووقفت المس بل تنتظر جواباً .. وتدير عينيها في وجوه السيدات ، ولكن

السكوت القاتل ظل مخيماً على جو الاجتماع بعض الوقت وكل واحدة من الحاضرات تحار في صياغة الجواب المناسب . وبعد لأي بادرت والدتي الى الكلام فقالت :

ـــ إن الحديث عن أية اصلاحات سيبقى مبتوراً ما لم يشمل المرأة وإعطاءها قدراً من الاهتمام والعناية .

وران صمت عميق على الحاضرات ، على حين استأنفت والدتي خطابها للمس بل قائلة :

ـــ وأنا أعتقد أن أية خطوة تتخذها السلطات في شأن التعليم يجب أن لا تهمل حق الفتاة العراقيـة من العلم ، وينبغي أن نمهد لفتح مدرسة تكون شاهداً على أن العلم حق مشاع للجميع ، وأن تبقى للعلم قدسيته في إعداد الفتاة إعداداً كاملاً لأن تكون زوجة بارة وأماً صالحة !!

وردت المس بل قائلة بلهجة صافية لا شائبة فيها :

ـــ إن هذه الملاحظة التي أبدتها السيدة أم سلمان ملاحظة واردة . وأنا أرجو أن يكون هذا رأي سائر المدعوات .

فقالت والدتي :

ـــ إني واثقة بأنهن جميعاً يشاركنني هذا الرأي .

وفعـلاً . . أعربت الحاضرات عن مشاركتهن . وختمت المس بل الحفلة قائلة إن هذا الموضوع سيكون محل اهتمام السلطات . .

وقد تحدثت المس بل عن هـذا الاجتماع في مذكراتها . ففي ٤ أيار ١٩١٩ كتبت تقول :

« والدي العزيز ، من أهم ما حدث هـــذا الأسبوع أنني أقمت حفلة شاي لسيدات بغداد في منزل السر برسي ، ولم أدع إليها إلا السيدات من الطبقة العليا ومعظمهن مسلمات ، وما كنت أتوقع تلبيتهن الدعوة ، غـير أنه لم تأزف السـاعة

المعينة حتى توافدان زرافات ووحدانا ، وكان من ضمن المدعوات عائلة أرمنية هي مدام سيفان وبناتها اللاتي أحبهن كثيراً جداً ، وقامت بمعاونتي في ترتيب الحفلة واستقبال الضيوف رئيسة الراهبات وبعض الراهبات فكانت الحفلة شائقة جداً » .

وقد سمعت إحدى السيدات تقول إنه لم يسبق حتى في البيوت الاسلامية أن بذلت عناية تامة لاقامة حفلة كهذه لا أثر للرجال فيها . وهكذا كان نجاح الحفلة متوقعاً مع عدم وجود الرجل شريك المرأة ! أليس هذا بالأمر الشاذ ؟ »

« وقالت سيدة أخرى ، هي زوجة الشيخ أحمد الداود مدير الأوقاف عند ارفضاض الحفلة إنه لو أتيح لهن أن تضمهن اجتماعات كهذه ، لكان نظرهن الى الحياة يختلف عما هو عليه اليوم . »

« بعد هذا رأيت أنه لابد من تدبير مشروعات لتحيق هذه الغاية ، وأول عمل سأقوم به في هذا السبيل ، هو استئجار إحدى دور الصور المتحركة لاحياء ليلة بها وجعلها مقصورة على السيدات . إنهن بحكم عادات هذا المجتمع لا يشاهدن شيئاً ما ولا يخرجن دورهن . . »

وعملت الخاتون بل على إنجاز وعدها فعلاً بعرض بعض الصور المتحركة عن طريق فانوس سحري دعت لمشاهدته فريقاً من السيدات ، غير أنها لم تستطع التجرد من أوشاب العقلية الاستعمارية التي كانت تسيطر عليها ، ولشد ما عقد الدهش ألسنة الحاضرات عند ما وجدن هذه الصور تمثل مشاهد الفقر والتأخر والحرمان في بغداد والمدن العراقية وحدها . ولست أنسى الدرس الذي قررت سيدات بغداد إلقاءه عليها بعد أن بدأ العرض ، ففجأة قررن مغادرة المكان تحت ستار الظلام وتركن الداعية وحدها تراقب فانوسها السحري بلوعة الخيبة ومرارة الاخفاق .

✠

ومرة أخرى نقف مع مطالبة سيدات بغداد بانشاء مدرسة للاناث ، لقد كان

وقع هذا الطلب متفاوتاً ، كان هناك تباين واضح في فهم القصد منه ، وفي وقت واحد اختلفت التأويلات وتعددت الآراء حوله .

اهتزت (أوساط) من الفزع والجزع ، واعتبرت هذه الدعوة تضليلاً وارجافاً ، وخروجاً بالفتاة عن الطريق السوي . وكان هذا رأي الأغلبية التي هاجمت الدعاة الى تعليم الفتاة ، لأن فيه إفساداً للعقل ، وانتهاكاً للحرمات ، ومضيعة للأخلاق ، ونزاعاً الى الابتعاد عن التقاليد ، ولهذه الأسباب كلها كان حظ والدي واضرابه وفيراً من السباب المر ، والشتم المقذع . . والتجريح المنكر .

وشهد منزلنا كما شهدت دور الآخرين من الذين ناصروا الدعوة لتعليم الفتاة الكثير من العنت والارهاق وفداحة الأحكام . ولكن والدتي ، وهي تملك حصاة نيرة وأفقاً واسعاً ، لم تلق بالاً الى نقد أو تحرش . وكان والدي الشيخ أحمد الداود يقف في وجه الزوبعة وهي تتجمع في الآفاق ويسخر من الرسائل الخالية من التواقيع قد شحنها مرسلوها بفحش القول وهجر الكلام . . وكم وقف الاثنان بعناد ظاهر صامتين معتصمين بالايمان والصبر ، متذرعين بقوة الحق ، متمسكين بعروة الجلاد وسلامة الرأي .

أما الفريق الآخر .. فقلة نظرت الأمر بمنظار الواقع وحسبت حساباً للمستقبل وما يتألق في أقباسه وأضوائه . هذه القلة هي التي آمنت بأحكام التطور ، واعتصمت بسنن المنطق ، ووثقت بأن الزمن الذي يستوي فيه الرجل والمرأة آت بلا ريب .

وفي الحق ، أن نظارة المعارف عمدت الى اتخاذ الترتيبات الخاصة بافتتاح المدرسة بعد أن مهدت لها باشارات وايضاحات تناقلتها صحف ذلك الزمان ، وتم استقدام المس كيلي في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ للقيام بفتح المدرسة وتسجيل الطالبات .

قالت المس بل في مذكراتها « إن إنشاء المدرسة كان مشهوداً جرت فيه مراسم الاحتفال بافتتاح أول مدرسة للبنات ، وحضر هـذا الاحتفال الطبقة العالية من

السيدات الوطنيات ، فاستبشرت أخيراً بتوافدهن إليه أكثر مما كان المنتظر . وقد عنيت المس كيلي مديرة المعارف باقامة معالم الزينة والبهرجة على البناء ، فظهرت المدرسة بمظهر خلاب نمّ على سلامة الذوق وحسن الاختيار . »

« وقد ألقيت خطبة باللغة العربية ، أوضحت فيها ترتيبات المدرسة وأثنيت على وصف طرق تهذيب الأحداث التي ستسلك فيها ، نالت الاستحسان والقبول من السيدات المسلمات الحاضرات ... »

في يوم الاثنين ١٩ كانون الثاني أقيمت حفلة ، أشارت صحيفة العرب التي كان يصدرها المرحوم الأب انستاس الكرملي إليها ، وأقتبسها في هـذا المقام لعلاقتها بالتيارات القائمة يومذاك ، ولا سيما مفاهيم المجتمع العراقي للمرأة من ناحية تعليمها وتثقيفها .

قالت العرب :

« دعت السيدة (كلي) مديرة مدرسة الاناث كرائم البغداديات للاحتفال بفتح مدرسة الاناث الرسمية ، وما أزفت الساعة الثالثة والنصف الزوالية من يوم الاثنين الماضي إلا توافدت المدعوات الى المدرسة الواقعة بمحلة الميدان بالجادة الكبرى ، وبعد أن استقر المكان بالمدعوات قامت المديرة السيدة كلي وألقت خطاباً بليغاً بينت به لزوم تعليم المرأة ومنزلتها في العالم الاجتماعي . »

« وبعد أن شكرت الحاضرات على اجابتهن لدعوتها ، طلبت منهن أن يغضضن النظر عما يجدنه من النواقص في هذه المدرسة ، لأنها بنت بضعة أيام ، وكل شيء يبتديء صغيراً ثم يكبر ، وهذه سنة الله في أرضه . »

« وبعد ذلك قامت المس بل الكريمة وألقت خطاباً بليغاً باللغة العربية بينت به منزلة الأم ودرجة تأثيرها على أولادها قائلة إن ليس للمدرسة من سلطان على تبديل سجايا الطفل الذي اقتبسها من أمه ونقشت على تعاريج دماغه ، لأن التربية الأولى

هي الأساس الذي يبنى عليه مستقبل حياة الطفل ، فان كان قوياً تمكنت المدرسة من أن تبني فوقه بناءً اخلاقياً علمياً مرضياً وإلا فينهار ما تبنيه المدرسة . ولذلك فان حضن الأم هو أعظم مدرسة يتلقى فيها الولد أسرار هذه الحياة .

« وبعد أن بينت ان الغاية من هذه المدرسة هي إحضار أمهات صالحات ، وان هذه المدرسة هي فتحت وفقاً لرغائب الأهلين ، وانها ستحترم عاداتهم ومقدساتهم تماماً حتى لا يخول لناظر المعارف نفسه أن يزورها . وقد تجنب تعيين طبيب لمعاينة الطالبات ، بل عين للمدرسة طبيبة حاذقة لمعاينة التلميذات ، وأوعدت الحاضرات بتكثير المدارس وتزييد معاهد العلم . فهتفن الحاضرات هتافاً عالياً . ثم خطبت السيدة (هول) رفيقة ناظر المالية المحترم واشتركت في إحساسات بل وكلي المحترمين . »

ثم قرأت صبيحة بنت السيد أحمد أفندي الشيخ داود إحدى الطالبات البالغة من العمر ثماني سنوات خطاباً وجيزاً بالنيابة عن رفيقاتها شكرت به دائرة المعارف ومديرة المدرسة وحضرة المس بل واسترحمت منهما تكثير المدارس وتعميمها ، ثم حيت مستقبل الفتاة العربية الناهضة . فكان لخطابها وقع حسن في النفوس لصغر سنها ولحسن أدائها ، فهتفت لها الحاضرات هتافاً عالياً . وبعد ذلك طفن بالسيدات المدعوات الى غرف التعليم فأعجبهن انتظامها وحسن ترتيبها . وبعد ذلك أديرت عليهن أقداح الشاي والحلوى ، ثم شاهدنا ألعاباً جميلة قامت بها التلميذات ، ثم انفرط عقد الجميع وألسنتهن تلهج بالشكر والثناء على القائمات بهذه المدرسة وتمنين لهذه المدرسة النجاح والرقي . » انتهى .

« لقد اتخذت المدرسة بناية واسعة في شارع الرشيد بالقرب من المدرسة المأمونية مقراً لها . »

وحددت ساعات الدراسة بين ٩٫٣٠ صباحاً و ١٢٫٣٠ و ١٫٣٠ حتى ٣٫٣٠ .

وأعلنت المدرسة بعد افتتاحها بأسبوع بأنه : لا مانع للبنات من جلب طعامهن الى المدرسة فيما إذا لم يمكنهن الذهاب الى بيوتهن وقت الظهر وستعطل المدرسة في يومي الجمعة والأحد من كل أسبوع .

أما المواضيع التي تقرر تدريسها ، فهي اللغتان العربية والانكليزية والحساب والتأريخ والجغرافية والتأريخ الطبيعي والتدبير المنزلي وعلم الصحة وأشغال الأبرة والرسم والرياضة البدنية ويدرس القرآن الكريم في المدرسة للبنات المسلمات . أما البنات غير المسلمات فستبدى لهن المساعدة والتسهيلات لأداء واجباتهن الدينية بتدريس تعاليمهن على قدر الامكان .

وقد حددت الأجرة الشهرية بروبية واحدة .

وحدث في ذلك الحين ما كان متوقعاً من افتتاح المدرسة ، فان عدد الطالبات لم يزد على ثمانية هن ، باكيزة واصف (عقيلة الدكتور فائق شاكر) وصفية واصف (عقيلة السيد جلال شاكر) وحسيبة الشيخ أحمد الداود (عقيلة السيد أكرم مشتاق) وسليمة خضر (عقيلة مراد الشاوي) ومديحة توفيق الخالدي وعفيفة توفيق الخالدي ، ومديحة صالح (عقيلة الأستاذ عبدالوهاب الأمين) وصبيحة الشيخ أحمد الداود .

وبافتتاح هـــذه المدرسة أوصدت المرحومة زهرة خضر أبواب المدرسة التي أنشأتها ، بناء على طلب نظارة المعـارف وانضمت هي نفسها للتدريس في المعهد الجديد .

وهذه المدرسة أرست الأسس لمرحلة جديدة في تعليم المرأة . . ولكن العاصفة العاتية التي ثارت في وجه القائمين بها .. ووجه الأسر التي أدخلت بناتها فيها لم تهدأ ! وتطورت المقاومة من السلبية الى الايجابية ، من الشتائم والسباب وإلصاق التهم الشائنة ، واختلاق الأراجيف لاثارة عناصر الرجوعيـة ، الى الرجم بالحجارة ، والركون الى وسائل تأنف النفوس الحرة منها وتأباها .

وبلغ الغيظ منتهاه عند ما أخذت المعلمات والتلميذات يتعرضن لعدوان طائفة من الفتيان بالقاء الحجارة عليهن حتى اضطرت السلطات الى اتخاذ احتياطات خاصة لصيانة سلامة المدرسة والطالبات ..!! ووضعت حرساً خاصاً من رجال الأمن للمرابطة في باب المعهد . وكان هذا تمهيداً لنقل المدرسة من دارها في الميدان الى البناية الحالية لدار المعلمات .

وعلى كل حال ليس من بدّ لمن يحاول استقصاء تأريخ تعليم المرأة العراقية من أن يقرر عاجلاً أن تطوراً ملموساً نشأ خلال سنوات قليلة تغيرت فيها المفاهيم ، واستسلمت الى حد ما عناصر المقاومة العنيفة . . وتبدلت أهداف التعليم أعيانها . فبعد أن كان الغرض من فتح المدرسة المشار إليها — وهي لا تتجاوز المرحلة الابتدائية — إعداد معلمات حسب ، أصبح بعد ذلك ينحو الى إعداد مثقفات قادرات على أن يخدمن بلادهن ويساهمن في أكثر من مضمار اجتماعي وثقافي . وحصلت تغييرات أخرى في مسالك التربية نفسها ، فلم يقتصر هدف المدرسة على تعليم القراءة والكتابة ، بل شمل إعداد عناصر نسوية تتوفر لها عناصر الكمال العقلي والثقافي .

لقد شق التعليم النسوي طريقه يومذاك في بطء ظاهر ، وفي وجه مقاومة ضارية .

وتروي السيدة مديحة عقيلة المرحوم الأستاذ ابراهيم كمال والمعلمة في مدرسة البارودية عام ١٩٢٤ أن مشادة عنيفة وقعت بين شقيقتها السيدة معزز مديرة المدرسة ، والمرحوم الأستاذ فهمي المدرس المعروف بمناهضته لتقدم المرأة بسبب قيام مدرسة الرياضة باعطاء درسها لطالباتها على سطح المدرسة لضيق مساحتها . وكانت الطالبات يرتدين (تنانير) زرقاء اللون و (بلوزات) بيضاء ... وقد استوقفت هذه الحركة الأستاذ المدرس ، وكان يجاور المدرسة ، فأطل من داره وأخذ يكيل الشتائم للمعلمة ، لأنها تقوم بهذه التمارين على السطح ، وبشكل وصفه بأنه مشين .

ولم يكتف بهذا ، بل بعث رسالة مسهبة بالأمر الى وزارة المعارف التي تلقت قبل ذلك مذكرة من السيدة معزز ، وقررت ايفاد هيأة من مفتشيها توجهوا بعد دراسة الموضوع برجائهم إليها لتصرف النظر عن الحادثة قائلين : إن موقفنا رغم وضوح حجتنا موقف الضعيف ، وموقف اولئك على ضعف براهينهم موقف القوي . وان هدفنا الآن أن نقنع أبناء الشعب بفائدة التعليم ، ونتحمل في سبيل ذلك كل الصعوبات حتى نصل الى ما نريده .

وتخطر ببالي أيضاً محاولة قام بها السيد صالح حمام قائمقام النجف في سنة ١٩٣٥ لفتح مدرسة للاناث . فانه ما كاد يعلن عزمه حتى ثارت في وجهه مقاومة عنيفة حمل بسببها على أن يعلن أن المدرسة فتحت لبنات الموظفين (وكفى الله المؤمنين شر القتال . .) ولكن بعد بضع عشرة سنة كانت بنات النجف يدرسن في الكلية الطبية ويوفدن في بعثات علمية .

وقد ذكر المرحوم الأستاذ سليمان فيضي (في غمرة النضال) : « ان جانب الكرخ كان يفتقر الى مدرسة ابتدائية للاناث ، وكانت الطالبات من ذلك الجانب يعبرن الى الرصافة للدراسة في مدارسها ، فراجعت وزارة المعارف مطالباً بفتح المدرسة المذكورة ، فأشير علي بتقديم عريضة بهذا الشأن فنظمت العريضة وحصلت على توقيع يوسف السويدي عليها ، ثم أسلمتها يد الشيخ كاظم الدجيلي ، فطاف على وجهاء الكرخ وأعيانه ، ثم أعادها إليّ بعد ذلك فقدمتها الى وزارة المعارف ، ولم تمض أيام قليلة حتى فتحت المدرسة أبوابها واستقبلت طالباتها . »

في أقل من عشر سنوات خطا التعليم خطوات لفتت الأبصار بنتائجها . وليس عجيباً أن ينبري أولئك الذين ناهضوا التعليم النسوي وأعلنوا الحرب على دعاته فيكونوا في طليعة الذين اعترفوا بقوة التيار الجديدة ، ونادوا بارسال بناتهم الى المدارس بل بلغ الأمر أكثر من ذلك ، فلم يدخروا جهداً في الاكثار من هذه المعاهد . وأتى

بعد ذلك حين من الدهر ساهموا هم أنفسهم في إيفاد بناتهم الى بعثات علمية متخطين بذلك الحواجز والعقبات التي أقاموا هم أنفسهم وعملوا على إزالتها من طريق التطور بمعاولهم الخاصة ، وأثبت الزمن أن عجلة التأريخ لا تعود الى الوراء .

لقد ظهر لوزارة المعارف أن عدد الطالبات ارتفع ارتفاعاً بيناً ، مرده ما لمسه الناس من أغراض التعليم الشريفة ، وما شاهدوه من قيام المدارس على قواعد من الفضيلة والخلق الرفيع والاعداد الصحيح . . يضاف الى ذلك ما تمنحه للفتاة من فرص التوظف في التعليم . وهذا الاقبال الملحوظ دعا المعارف الى فتح ثلاث مدارس جديدة غير المدرسة المركزية :

(١) مدرسة البارودية ـــ مديرتها السيدة معزز برتو .

(٢) شعبة المركزية ـــ مديرتها السيدة حسيبة الشيخ أحمد الداود .

(٣) مدرسة الحيدرية ـــ مديرتها السيدة انجيل ارستاكيس .

وبسبب الاقبال على التعليم وجدت وزارة المعارف نفسها وجهاً لوجه في عام ١٩٢٨ إزاء مسؤولية أخرى . . مسؤولية إعداد المزيد من المعلمات للاستعانة بهن في صفوف التعليم بمدارس الاناث التي أخذت تتزايد يوماً بعد يوم . ولذلك بادر الأستاذ ساطع الحصري مدير المعارف العام يومئذ الى فتح أول دار للمعلمات بصف واحد ضم خمس طالبات كنت إحداهن . وعهدت المعارف بادارة المدرسة الجديدة الى المس كيلي ، وكانت المرحومة الأستاذة أمة سعيد تمارس تعليم الطبيعيات ضمن هيأة التدريس . وفي الواقع تمت هذه الدار فيما بعد حتى أصبحت تغذي المدارس العراقية بالمعلمات . وارتفع عدد المقبولات فيها من هـــذا العدد الذي لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة الى مئات في كل سنة . وزادت هذه الدور ـــ دور إعداد المعلمات ـــ من واحدة في بغداد العاصمة الى دور أخرى شملت مراكز بعض

الألوية . . ولن يبعد الزمن الذي ستضطر فيه وزارة المعارف الى إنشاء دور مماثلة لها في مركز كل لواء من الألوية .

ويعنينا في هـــذا المقام أن نذكر أن وزارة المعارف عنيت بالدفعة الأولى من المتخرجات في هذا المعهد فمنحتهن عام ١٩٣٤ حقوقاً إستثنائية للقبول في الصفوف الثانوية الأخيرة وأداء الامتحانات العامة . وقد اتخذ الأستاذ محيي الدين يوسف هذا القرار عندما كان يشغل منصب مدير المعارف العام . كما أن كتاباً كاملاً بتعليم المرأة صدر للأستاذ جعفر حسين النجفي عام ١٩٣٠ ، وهو أمر يلفت النظر ، خاصة وان مؤلفه اعتمد الدعوة الى نشر تعليم الاناث .

واذا أنعمنا النظر في هذه المرحلة ، نجد أن دار المعلمات قد نقلت تعليم الفتاة العراقية الى طور آخر ، وأفق أوسع ، ودراسة أكثر تنظيماً واتساقاً وانسجاماً مع أصول التربية الحديثة . وفي الوقت عينه عجلت بانشاء المدارس الثانوية للبنات ، فتم في عام ١٩٣٠ تأسيس أول مدرسة وقبل فيها عدد من الطالبات كانت أحوال قليلات منهن تهيئهن للتعليم الجامعي جنباً الى جنب مع الرجل في مقاعد الدراسة .

ولم تطل هذه البرهة التي اتصفت بمظهرين :

١ــ أن فئة محدودة من أسر معروفة عمدت الى إيفاد بعض بناتها للدراسة في الجامعات الغربية . ولا بدع في ذلك ، فقد كان بعض أفراد هذه الأسر قد تأثر بما كان يصل إليه من ملامح التقدم العلمي في الخارج . ومع أن آحاداً فقط أوفدن للتعلم للمرة الأولى في سنة ١٩٢٧ فقد واجهن مع أسرهن عاصفة النقد ، ولكنهن قررن المضي في الشوط الى النهاية .

٢ــ أن الأحوال الاجتماعية أنفسها أخذت تتمشى مع واقع الحال . كان السفور قد أخذ ينتشر بين عوائل مسلمة قليلة ، غير أن هذا وحده لم يجعل الاقدام على الثقافة الجامعية سهلاً ميسوراً ، وإنما أبقاه مرهوناً بانتظار ظروف أحسن وأفضل .

.. وحتى العراقيات من غير المسلمات اللواتي كان السفور طبيعة في حياتهن الاجتماعية ، لم يسلمن من تلك القيود ، ولم يستطعن تخطي العراقيل الموضوعة في طريق تعليم الفتاة العراقية .. كما حدث للدكتورة نزهت ، كريمة الأستاذ رزوق غنام النائب والصحفي المعروف .

وقد ذكر لي الأستاذ غنام أن كريمته تقدمت في سنة ١٩٣٢ بطلب للدخول في كلية الطب . ولكن هذا الطلب الجريء لم يلبث أن صدمته معارضة هيأة الكلية ومن ورائها السلطة الصحية .. وقررت رفضه مبررة قرارها بتأويلات وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان .

ولم يستسلم الأستاذ غنام ، ولا كريمته لهذا القرار الجائر . وقرر أن يتشبث بكل الوسائل لحمل الادارة الصحية على العدول عن قرارها هذا .

وطرق أبواب مدير صحة بغـــداد والتجأ الى المسؤول عن شؤون الصحة .. وأخيراً طرق أبواب البلاط الملكي وتشرف بمقابلة الملك فيصل الأول فاستمع إليه في روية وأناة . ثم أصدر أمره بقبول الطالبة غنام .

أما وضع الفتاة المسلمة فكان أكثر قساوة ، كما كانت العثرات المقامة في سبيلها أشد ضراوة ووعورة ... واذا لم يكن المجتمع العراقي على استعداد لادراك فكرة التعليم الجامعي للفتاة ، فكيف يستسيغ أن تدرس الفتاة المسلمة مع الرجل في صف واحد . واذا تجاوز عن هذا كله ، فكيف يتجاوز عن دخول حفيدة الشيخ داود صاحب الطريقة الدينية في كلية الحقوق .. ومع الرجال !

في هذه المرحلة بعينها لم يكن مناص من التضحية لتذليل هذه الصعوبات وشق الطريق أمام الفتاة العراقية .

وفي هـذا الوقت عقدت العزم على أن أخوض المعمعة وحدي متذرعة بأقانيم المثابرة والايمان والصبر .

وشهد عام ١٩٣٦ أول طالبة مسلمة تدرس في إحدى الكليات . وتتخطى جميع السدود والحواجز وتثبت في وجه التيار .

تقدم التعليم

ومن استقراء الاحصاءات الرسمية نجد أن عدد الطالبات في المدارس الابتدائية ارتفع خلال السبع والثلاثين سنة الماضية إلى أرقام قياسية ، فبعد أن كان عدد مدارس الاناث في سنة ٢٠ــ١٩٢١ لا يزيد على ٣ ، قفز في سنة ٢٥ــ١٩٢٦ إلى ٢٧ ، وفي ٣٠ــ١٩٣١ إلى ٤٥ ، وفي سنة ٣٥ــ١٩٣٦ إلى ١٢١ ، وفي سنة ٤٠ــ١٩٤١ الى ١٤٥ ، وفي سنة ٥٠ــ١٩٥١ إلى ١٩٠ ، وفي سنة ٥٥ــ١٩٥٦ إلى ٢٦١ ، وفي سنة ٥٦ــ١٩٥٧ الماضية الى ٣٤٩ .

وسار عدد الطالبات على هذا القياس التصاعدي : لقد كان في سنة ٢٠ــ١٩٢١ لا يزيد على ٤٦٢ ، فارتفع في سنة ٢٥ــ١٩٢٦ إلى ٤٠٥٣ ، وفي سنة ٣٠ــ١٩٣١ إلى ٧٠٤٦ ، وفي سنة ٣٥ــ١٩٣٦ إلى ١٧٧٦٥ ، وفي سنة ٤٠ــ١٩٤١ إلى ٢٣٣٢٩ ، وفي سنة ٤٥ــ١٩٤٦ إلى ٢٨٠٦٨ ، وفي سنة ٥٠ــ١٩٥١ إلى ٤٢٢٤٩ . أما في سنة ٥٦ــ١٩٥٧ فالى ١١١٢٠٨ ، وفي سنة ٥٧ــ١٩٥٨ الحالية إلى ١٢٤٧٠٤ .

وارتفع عدد المدارس الاعدادية للبنات من مدرسة واحدة في سنة ٢٩ــ١٩٣٠ إلى ١٥ في سنة ٣٩ــ١٩٤٠ ، و ٣٠ في سنة ٤٩ــ١٩٥٠ ، و ٤٥ في سنة ٥٥ــ١٩٥٦ .

وكان عدد الطالبات في سنة ٢٩ــ١٩٣٠ لا يزيد على ١١ فارتفع في سنة ٣٩ــ١٩٤٠ إلى ٢١٢٠ ، وفي سنة ٤٩ــ١٩٥٠ إلى ٤٥١١ ، وفي سنة ٥٥ــ١٩٥٦ إلى ١٠٥٥٨ ، وفي سنة ٥٧ــ١٩٥٨ الحالية الى ١٢٨٨٥ . . فتأمل ذلك ؟

وقفز عدد المتخرجات في (صف المعلمات) ودور المعلمات والدورات التربوية في مختلف السنين[1] من ٣٦ في سنة ٣٠ــ١٩٣١ الى ٦٥ في سنة ٣٤ــ١٩٣٥ ، و ١١٢ في سنة ٤٠ــ١٩٤١ ، و ١٣٩ في سنة ٤٣ــ١٩٤٤ ، و ٢٠١ في سنة ٤٩ــ١٩٥٠ ، و ٢٢٣ في سنة ٥١ــ١٩٥٢ ، و ٢٨٤ في سنة ٥٣ــ١٩٥٤ ، و ٢٤٦ في سنة ٥٥ــ١٩٥٦ .

وارتفع عدد الطالبات في دور المعلمات والدورات التربوية للاناث في سنة ٥٧ــ٩٥٨ الحالية إلى ١٩٥٣ مقابل ٤٨٧ فى سنة ٤٣ــ٩٤٤ .

وبلغ عدد الطالبات في معاهد الفنون البيتية في سنة ٥٧ــ٩٥٨ الحالية الى ١٣٦٣ طالبة ، مقابل ٥٨ طالبة فقط في سنة ٣٢ــ٩٣٣ بمدرسة التدبير المنزلي التي افتتحت بقرار مجلس مديري المعارف في ٦ آب ٩٣٢ ، وعهدت المعارف بادارتها لأول مرة إلى المس « تايس » الأمريكية الجنسية ، ثم تعاقب على ادارتها عدد من المديرات آخرهن السيدة ناهدة الحيدري المديرة الحالية .

وأخـــذت النسب المئوية لنجاح الطالبات تستوقف الأنظار أيضاً إعجاباً بها . ومن إحصاءات وزارة المعارف لسنة ٥٥ــ١٩٥٦ الأخيرة يظهر أن نسبة النجاح في المدارس الابتدائية الرسمية للذكور بلغت ٦ر٥٩ في المائة ، وللاناث ٨ر٧٠ في المائة ، وللمدارس الأهلية على التوالي ٦٨ و ٧ر٧١ ، وللطلبة الخارجيين والخارجيات ٢ر٢٠ و ٣٨ .

وفي المتوسطة الرسمية ٥ر٨١ و ٨ر٧٥ ، والأهلية ١ر٤١ و ٢ر٦٢ ، وللخارجيين ٦ر٢٤ و ١ر٢١ . أما في الاعداديات الرسمية فكانت ٨ر٤٨ و ٦ر٤٩ ، والأهلية ٢ر٢٤ و ٣٢ ، وللخارجيين ٨ر١٣ و ٧ر٢٥ .

---

(١) كانت المعارف تعتمد على المتخرجات في « صف المعلمات » ، وهو الصف السادس من المدرسة الابتدائية المركزية ، لسد حاجتها من المعلمات ، وظل ذلك قائماً الى سنة ١٩٢٦ ، حيث افتتحت دار المعلمات بصف واحد ، ومنحت الدار خريجاتها الخمس الشهادة في ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٧ بعد دراسة سنة واحدة .

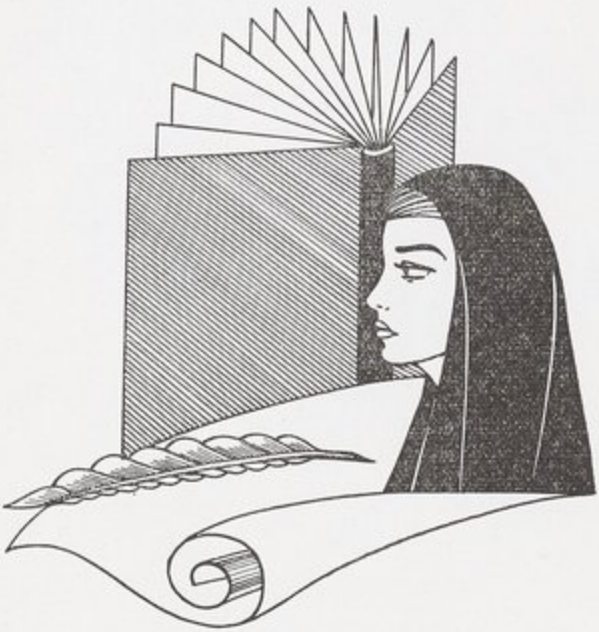

أوّل الطريق إلى التعليم العالي

ثم جاءت الخطوة الثانية في أول الطريق . .

بينما كان أحد أساتذة دار المعلمين العالية في طريقه الى قاعة التدريس لاحت لعينيه لافتة معلقة فوق باب تحمل عبارة « خاصة بالطالبات » ! وعقد الدهش لسانه وهو يُدوِّر بعينيه بين هـــذه اللافتة عشرات الطالبات يخطرن في ملابس عصرية تنسجم مع أحدث طراز للخياطة .

وثاب بعـــد قليل فقـال يحدث نفسه : « غرفة خاصة بالطالبـات » . . هـذا أمر حسن ، ولكني أخاف يوماً تضطر فيه الدار الى وضع لافتة تكتب فيهـا « خاصة بالطلاب » !

لقد بلغ التعليم العالي للمرأة هذه المرحلة في أقل من ربع قرن ، وأصبحت المعاهد العليا والكليات تضم مئات من الطالبات . . وفي بعض هـــذه المؤسسات العلمية ارتفع عددهن الى معدل لا يقل عن عدد زملائهن من الطلاب .

وحتى سنة ١٩٣٦ كان مجرد التفكير في دخول الفتاة الى معهد عال يعد مغامرة خطيرة تصدمها كثير من العثرات والعوائق . . فكيف باقتحام تلك الأسوار الشاهقة ودك القلاع الحصينة التي رَصَّت أحجارهـا التقاليد الباليـة والرجوعية السخيفة والأحكام الضالة التي أقامت الفوارق بين الفتى والفتـاة ، فيسرت للأول الفرص للنجاح والتعلم ، وحرمت الثانية أيسر الحقوق .

لا مراء إذن في أن الاحدى والعشرين سنة الماضية كانت بمثابة معركة حاسمة ، انتصرت فيها المرأة وخرجت في النهاية ظافرة مكللة بأكاليل المجد والغار . سنوات قاسية عجاف استطاعت المرأة خلالها أن تقطع أشواطاً بعيدة أتقنت فيهـا دورها

وأعطت المثال الصالح على المواظبة والعمل المثمر .

كان التطور والتجديد يدلفان في حذر الى العقول والأفهام ، فيزيحان ببطء ما ران عليهما من أوابد العصور ، وعفار التقاليد ، وسخام الأحقاد الواغلة في القدم .

وفي أوج هذا الانتقال ألقت العراقية (باصبع الديناميت) وأعلنت بأنها لم تعد تكتفي بما اجتازته من مراحل الدراسة ، بل عليها أن تنال قدراً أعلى من العلم وأوفر يضعها في مصاف أبناء العراق المتعلمين ، وفي مستوى أخواتها في البلاد العربية .

ولست أزعم أن إعلان هذه الخطوة كان محفوفاً باليسر والسهولة ، وأن السير في هذه الطريق كان خلواً من المشاق والعقبات ، كان كشأن المسالك التي اجتازتها المرأة العراقية منذ عام ١٩٢٠ ... وكان على الفتاة أن تتدرع بعدد الشجاعة والجرأة ، وتتذرع بأسباب الصبر والاعتداد قبل أن تخطو خطوتها التالية للأولى .

وأبادر فأقول إنني كنت متأثرة بالروح التي استحوذت على منزلنا ، وكان والدي بالرغم من حرج مركزه الديني من أشد المتحمسين لافساح المجال للمرأة المتعلمة .

وأتممت دراستي الثانوية ، وكنت مصممة على دخول كلية الحقوق .

وجاء في هذا الحين من ينصح لأبي بارسالي الى خارج البلاد ، كما جرت عليه عادة الأسر الموسرة ، لأن دخولي الكلية في بغداد شيء مستحيل .

وتحمس والدي وقال :

ـــ بالنسبة لي لا تهمني تكاليف التعليم في الخارج ! فان الله قد وسع علينا في الرزق ، ولكن ماذا تعمل الفتيات الفقيرات اللاتي لا تمكنهن أحوالهن المادية من تحصيل التعليم العالي في الخارج ؟ هل يقضي عليهن بالحرمان من نعمة العلم ! ثم هل من قانون يحظر على الفتيات الانتساب الى الكليات المختلطة ؟

ورافقت والدي لمقابلة الأستاذ صادق البصام وزير المعارف يومئذ ، وأمضينا معه نحو نصف ساعة أعرب الوزير فيها عن معارضته لدخولي كلية الحقوق وقال إنه يؤثر أن تتلقى الفتاة دراستها لتكون معلمة أو مربية .

وقال والدي :

— قانوناً لن تستطيع كلية الحقوق رفض طلب ابنتي للالتحاق بها !

وسكت الوزير !!

وفي المساء اتصلت ذو شخصية مرموقة بوالدي وبحثت معه أمر التحاقي بالكلية .

وقال في معرض كلامه :

— إن قبول ابنتك في الجامعة سيثير الرأي العام . ثم لا تنس أن بين طلاب الحقوق كثيرين من القادمين من الأرياف فلن يقبلوا هذا الوضع وسيؤثر في سمعة ابنتك ووضعها الاجتماعي .

ولكن والدي تمسك برأيه في عناد وقال :

— إن ابنتي ستدخل الكلية !

وأقسم إننا لم ننم في تلك الليلة ، ولكننا جميعاً ، أبي وأمي وأنا كنا مصممين على مواجهة هذه التجربة الى النهاية .

كان ذلك في تشرين الأول .

ولأعطي صورة أكثر وضوحاً لذلك الامتحان العسير الذي كان دون الوصول إليه خرط القتاد . أعيد ما رواه لي أحد إخواني[1] بعد إحدى وعشرين سنة من تأريخ مرور تلك الفترة .

قال لي : كنا جمهرة من التلاميذ الجدد ، وقد ازدحمنا على باب حجرة سكرتير

---

(١) الأستاذ راسم عبدالحميد — المشاور الحقوقي لمصلحة مصافي النفط .

عميد الكلية ، وكل منا يحمل بيده الأوراق الخاصة بطلب الانتماء منتظراً دوره للدخول ومقابلة السكرتير . أما طلاب الصفوف المتقدمة الذين كانوا في ممرات الكلية فلم يشغلهم شأن إلا أن يقطعوا الوقت بخطوات متثاقلة وهم ينؤون بحقائب محشوة بالكتب والأوراق ، تسبغ عليهم سيماء المحامين المحترفين ووقارهم .

هذا المشهد بجملته وبما يحيط به من التدافع بالمناكب ، وضوضاء الكلية كان يضاعف من وطأة ذلك الجو الخانق المشوب بالملل . وفجأة خيم صمت عميق ولاذ الجميع بهدوء عجيب ، ثم انشق جمهور المزدحمين ، ففتحوا بينهم ممراً ينتهي بباب حجرة السكرتير ، واذا نظري يقع على فتاة يبدو عليها النحول ، وقورة الملامح ، تسير وقد أطرقت بنظرها نحو الأرض ، فلم تر وجوهنا المتطلعة نحوها بفضول .

مَن هذه ...؟ ومن تكون ؟ ترددت هذه الأسئلة ، وكنت من المنصتين . . فاذا أنا بقائل يرد إنها « صبيحة الشيخ أحمد » تريد أن تدخل معنا « كلية الحقوق » . تحمس فريق منا لهذه الفكرة ، إنها لفكرة رائعة ، فان « الآنسة » تفتح فتحاً جديداً في حياة « المرأة » في العراق ، فالفتيات لا يقبلن على الدراسة في مثل كلية الحقوق . إنها الأولى ، نعم ..! هي الأولى . . هكذا تردد الحديث ، وأثار ذلك البعض فقال بحنق إنها بدعة ، لماذا تريد الانتماء الى الكلية ، هل تريد أن تصبح محامية ؟!

وأجاب بعضهم : إنها مهنة مخفقة لأمرأة !.. انتهى

لقد خشيت أمي أن تحدث مظاهرة عند باب الكلية ، فاستصحبتني معها في السيارة ، وأنا يومئذ أرتدي العباءة وعلى وجهي البرقع الأسود . فلما بلغنا باب الكلية (وهي البناية التي تشغلها كلية الملكة عالية اليوم) وجدنا الطلاب متجمهرين على جانبي الطريق . وتأملت والدتي الطلبة فلاحظت أن على وجوه بعضهم دلائل الاستنكار ، وعلى وجوه البعض الآخر دلائل الرضا والقناعة ، فدفعتني بيدها وقالت :

— إذهبي ، وحافظي على هدوء أعصابك !

انتزعتُ البرقع عن وجهي ، وبقيت أتمسك بالعباءة وأشد عليها بيدي بقوة ، على الرغم من أني كنت أرتدي ملابس محافظة جداً ، جعلت هيأتي أقرب الى هيأة راهبة : أكمام طويلة وملابس سود وعباءة سوداء .

ونزلت من السيارة .

ونزلت أمي ورائي ووقفت تقدمني للطلاب بما معناه « أعتقد أنكم ستعاملون أختكم معاملة طيبة . فأنا أتركها أمانة لديكم . وأعتقد أنها ستكون عند حسن ظنكم ، ولن تتركوها إن شاء الله تندم على هذه التجربة » .

وكان لهذه الكلمات وقع السحر على الطلاب . ورد بعضهم بكلمات طيبة حماسية .

نجحت التجربة الأولى ، دخلت أول فتاة مسلمة التعليم العالي من أبوابه الواسعة ، الفتاة الوحيدة بين زهاء ١٨٠ طالباً . وتمزقت تلك الحجب التي كانت تحول بين الفتاة والدراسة العالية مع الرجل جنباً الى جنب ، وأثبت العلم أن سلطانه أقوى من جميع القيود والتقاليد .

وحينما بدأت دراستي . . أفرد لي مساعد العميد مقعداً الى جانب من الصف ، أطلق الطلاب عليه مجازاً اسم (اللوج) ، لأنه شبيه بألواج السينما . كنت أدخل الصف وأبقى أتابع الدرس على حالة لا يحسد عليها أحد ، وأظل الساعات ألوذ بمكاني الى أن تنتهي الدروس فأحمل كراريسي وكتبي عائدة الى منزلي .

قضيت السنة الأولى كلها في (اللوج) المنفرد ، كأني في سجن لا أتحدث مع أحد ، ولا يتحدث معي إلا القليل منهم ، وكنت أجلس فوق مقعدي أربع ساعات كل يوم قابعة في عباءتي .

وحاول البعض من زملائي أن يسمعني كلمات نابية ، فكنت أتألم ولا أرد عليه .

وحدث يوماً أن دخلت الى الصف فوجدت زميلاً رسم لي صورة كاريكاتورية بالعباءة على (السبورة) وكتب تحتها « محامية بالعباءة » . وعند ما فوجيء بدخولي أسرع يمسح الكتابة ، ثم انتفل الى مسح الصورة الكاريكاتورية ببطء مقصود .

وأعترف أني تعلمت في هذه الفترة التي اكتنفتها المشاق والآلام أشياء كثيرة . لقد كان لثباتي ، واعتدادي بنفسي ، وبالمقومات الخلقية والأدبية التي أدين بها ، واستعاذتي بالصبر والجلد ، أكبر الأثر في هزيمة المكابرة والمقاومة اللتين كنت أواجه بهما من جماعة من الطلبة ، واستحالت تلك المعارضة والجفوة بعد قليل من الزمن الى طابع من الشعور بالندم ، والاحساس بغثاثة ما كانوا يستمرئون إظهاره من الترات والأحقاد عليّ ، بدافع تقليدي من سوء الظن ، لا من سوء الفطن . وكان شأني حيال الجميع ، شأن الأخت التي تكبر أخواتها ، وتحترم فيهم جلال العلم ، وكرامة الأخوة . وكانت تبلغ سمعي أحياناً كثيرة تلك الانتقادات الموجهة علي لانتمائي الى الكلية فلا أعيرها بالاً ، ولا التفاتاً ، لايماني بأن الحقيقة أبلغ من كل سلطان .

كان المسؤولون الذين عارضوا انتمائي الى الكلية يسألون سراً عن أحوالي ! هل حدث شيء ؟ هل أثر وجودي في جو الدراسة ؟! ودهش الجميع للنتيجة . فقد أصبح الطلاب أكثر تهذيباً في أحاديثهم ، وحدث شيء من المناقشة التي تخلقها طبيعة وجود المرأة بين رهط من الرجال .

وفي منتصف السنة الدراسية اتفق على إرسال وفد من الطلبة للاشتراك مع التلامذة الجامعيين في مؤتمر عربي يعقد في القاهرة . واجتمع الطلاب لانتخاب الأعضاء اللائقين ، على أن يجري ترشيح عدد كاف منهم ، ثم تجري على المرشحين عملية الانتخاب .

فصار كل من التلامذة يرشح زميلاً له ، ثم طلب العميد « عبدالحميد متولي »

أستاذ القانون أن يرشح هو عن الكلية « الآنسة صبيحة » فسرت همهمة وأصوات احتجاج من التلامذة الرجوعيين ، ثم تأجلت الجلسة الى يوم آخر للانتخاب . وفي يوم الانتخاب وقع الاختيار على أربعة تلامذة من المرشحين ، ولم يكن إسمي بين المرشحين ، فنهض أحد الطلبة وقال للعميد :

ـــ أستاذ . لمَ لم أر اسم الآنسة صبيحة بين المرشحين ؟!

وظهر الارتباك على وجه العميد فأجاب :

ـــ لم يرشحها أحد !

فأجاب الطالب : إذن أرشحها أنا !

فقال العميد : هل وكلتك الآنسة على ذلك ؟!

فأجاب : إن الترشيح اختيار المرشح للمرشح ، نظراً للاعتماد عليه ، وان وجود فتاة في الوفد ، وهي أول فتاة دخلت الكلية ، فيه فخر لوفدنا ، إذ إنه سيجد أمامه في مصر فتاة جامعية .

وقد قص هـــذا الزميل الحادثة لي بعد عشرين عاماً وقال إن صوته ضاع بين صراخ المتزمتين والمشاكسين .

ونظر العميد الى الطالب وقال بأسف :

ـــ تفضل فاجلس ! أنتم لسه ! لازم يكون وفدكم زي كده !

والعجيب أن زميلاً لي هو الأستاذ سلمان عبدالجبار نائب المدعي العام في وزارة العدلية يبشر اليوم بتأييد حقوق المرأة ، ويدعو الى حريتها الكاملة ، وقف في ذلك الاجتماع معارضاً ترشيحي للوفد وقال :

ـــ إن الفتاة أو المرأة لا يمكن أن تمثل إلا نفسها ! إننا لا نؤمن بها ، ولا بحريتها ، حتى تمثل وفد الطلبة الى مصر .

كانت هـــذه الحالة كفيلة بأن تصدمني في آمالي كلها ، غير أني وقد نذرت على نفسي أن أمضي في الطريق الى غايتها ، صممت أن أضرب الأمثال الحسنة على صبر المرأة العراقية وتضحياتها النبيلة .

كان الحلم الواسع هو السلاح الوحيد الذي شهرته في وجه المتزمتين من الطلبة وغيرهم . هذا الحلم في معاملتهم ، وتفسيري لتصرفاتهم . وكنت أقول في حق بعض الطلبة : ربنا لا تؤاخذهم على ما يبدون ، فهم لم يروا في حيـاتهم سوى أخواتهم وأمهاتهم ، وهم أولى بأن يجهلوا معنى اختلاط الفتاة مع الشباب على مقاعد الدراسة وفي صف واحد ، وفي مجتمع واحد !

ولقـد كان لما توسلت به من الحلم والتحلي بمكارم الخلق والثبـات في مواجهة العاصفة بالهدوء ، أثر بعيد في نفوس أولئك الزملاء ، فلم يمض وقت طويل حتى تغيرت نظرتهم وظفرت بتقديرهم وكسبت احترامهم .

وكان معظم الأساتذة في الكلية مصريين . . أثار دهشهم إقتحام فتاة في غضارة العمر أبواب هـذه الدراسة الشاقة . وزاد ذلك ما كنت أبديه من الاقبال الجدي على الدراسة واستيعاب الموضوعات والحصول على درجات عالية فيها ، على الرغم من أنني كنت أعمل في التدريس بعد إنهاء ساعات الدراسة الصباحية التي تبدأ فجراً ، وأقوم بوظيفة رسمية في وزارة المعارف .

وما زلت أذكر موقفاً حرجاً واجهته في أول عهدي بالكلية . فقد أخطأ أحـد الأساتذة المصريين عند ما دخلت الى الصف متأخرة بعض الوقت . ولفت دخولي الصف انتباهه فقال بلهجة عتاب يشوبها العنف والقسوة :

ـــ إن الآنسات يضربن مثلاً سيئاً للشبان في الدوام !!

واحتملت هذا التعريض بهدوء ، وأخذت أتابع الدرس باهتمام ، وأعترف أن

سلوكي حمل ضميره على تأنيبه . فاعتذر لي بحرارة بعد فراغه من التدريس .

وكان الأستاذ عبده حسن الزيات يحاضر في القانون الروماني ، وحدث مرة أن أحد الطلاب أطلق نكتة لم أتمالك من الابتسام لها .

ولاحظ الأستاذ الزيات هذه الحركة فاستشاط غضباً وزمجر قائلاً :

— إني لم أنم الليلة الماضية في سبيل إعداد هـــذه المحاضرة ، ولكن الآنسة تبتسم لمحاضرتي هذه ! نعم الآنسة تبتسم .

ولم تهدأ العاصفة ، فقد ترك الدرس غاضباً ، واضطررت لأول مرة أن أذهب الى حجرة الأساتذة لأذكر له سبب ابتسامتي .

وفجأة انخرط الأستاذ الزيات بالبكاء أو ما يشبه البكاء وهو يعتذر لما حدث وقال إنه لم يكن يتصور أنني ابتسم بعد أن عهدني ألوذ بالصمت داخل الصف وخارجه ، وإنه تألم عند ما ابتسمت مخافة أن تكون محاضرته سبباً لذلك !

وقد كررت أسفي معربة عن قدري لعلمه وخلقه حق قدرهما ، ومعترفة بعلو كعبه وسمو فضله .

وفي السنة الثانية لدخولي الكلية رأينا أستاذاً جليلاً عالماً ، هو الأستاذ عبدالعزيز محمد أستاذ « العقوبات » . لقد كان هذا الرجل عظيم الاطلاع ، عظيم الأخلاق ، متواضعاً يزينه خلق العالم من التواضع والكياسة . وكنت معجبة بعلم هذا الرجل وأخلاقه ، فانصرفت الى دروسه بكل نشاط .

وأستاذ آخر كان مثار التفات الجميع ، هو « المرحوم الدكتور سيف » أستاذ القانون الاداري . كان هـــذا الرجل ذا دكتوراه في القانون الاداري من جامعة باريس ، إلا أنه كان من طراز العقليات القديمة المحبة للتعقيد والحفظ ، وكان « رحمه الله » زيادة على ذلك ، شديداً متشدداً في منح الدرجات والفحوص ، فأثار

سخط الجميع بقدر ما كان الأستاذ عبدالعزيز محمد موضع حب الجميع .

وكان عميد الكلية في هـــذه السنة مصرياً أيضاً ، هو المرحوم الدكتور محمود عزمي الصحافي والفقيه القانوني المعروف .

كان محمود عزمي أستاذاً قديراً في فرعه (العلوم المالية) ، وكان أيضاً شديداً ، وعلى شيء كبير من الحدة في الطبع ، والقسوة في التصريح ، إلا أنه كان عالي الأخلاق ، وقد شجعت طباع المرحوم عزمي ، المرحوم سيفاً على استمراء شدته وعناده ، حتى تمادى في إرهاق الطلبة ، ولم يلتفت الى تبرمهم . وانتهت السنة بذلك الحادث المروع الذي اغتال فيه أحـــد الطلبة المرحوم سيفاً ، وأصاب الدكتور المرحوم عزمي بجروح نقل على أثرها الى القاهرة . وكان ذلك آخر العهد به ببغداد .

ثم الأستاذ الدكتور حسن جاد أستاذ القانون التجاري ، كان المثل العالي للأستاذ المدرك لمسؤولياته ، فضلاً عما كان عليه من حسن الخلق وطيبة النفس ، وقد أحبه الطلبة لهذه المزايا جميعاً . وكان فوق ذلك جدياً ، صعباً لا يكسب رضاه إلا بعد جهد وعناء واستيعاب لمواضيع الدرس الذي يتولى تدريسه .

وكان جهد الأستاذ جاد منصباً بالدرجة الأولى على جماعتنا ـــ جماعة اللوج . كان علينا أن نصور له ثمرة جهوده وإعداده للمحاضرات . وكنت أستوعب دروسه استيعاباً يصل الى حد الحفظ على الغيب ، فكنت بهذه الوسيلة أجعله يشعر أنه حقاً قد أفهم القانون التجاري تلامذته . وظن قياساً على متابعتي الحماسية لدروسه أن زملائي كلهم أو جلهم قد وعوا مباحثه ، وأخذت مع زميلين لي نكثر من الأسئلة ونأتيه بالوقائع القانونية ، فكان هذا يثير اغتباطه ويضاعف من حماسته للتدريس .

وكان كذلك لأستاذين بارزين في هـــذا المعهد فضل لا تشوبه شائبة ، أولهما المرحوم حسن أبو السعود ، وهو مثل صادق للمربي الذي فتن بمسؤولياته التربوية وآمن بها من أعماق نفسه ، وكان قد ندبته الحكومة المصرية للتدريس في كلية الحقوق

صبيحة الشيخ داود الطالبة فى كلية الحقوق

مدة غير قليلة ، وثانيهما الأستاذ منير القاضي وزير المعارف السابق ورئيس المجمع العلمي العراقي ، وهو صورة حية لتأريخ كلية الحقوق ، جمع في نفسه خلة العالم بما فيها من تصريح وجهر وذب عن حياض المعرفة . ولست أنسى هنا التنويه بفضل غيرهم من الأساتذة مثل علي ممتاز ، وعبدالرحمن البزاز ، والمرحوم حسين علي الأعظمي .

وفي السنوات الثلاث الأخرى التي أمضيتها في كلية الحقوق ، كان كل شيء قد تغير بسرعة . بدأت المناقشات تحتد حول حقوق المرأة ، وهل يعد وجودها في المجتمع ضرورة قومية ، أم يجب أن تلزم الدار ؟

ما موقف العراق من التيارات التي تسير فيها نهضة المرأة ؟ هل يجب الوقوف في وجه التيار الى النهاية ؟ وأثيرت قضايا جدلية حول الحجاب والسفور ، تعليم المرأة أو عدمه ، كنت أدعى الى المشاركة فيها ، وتهيء آرائي بصفة خاصة مجالاً للمناقشة بين المؤيدين والمعارضين .

وكان أنصار المرأة في البداية أقلية . . ولكن عند ما تخرجت أصبحوا أكثرية !

وكان النقد الذي جوبهت به عند دخولي الكلية عام ١٩٣٦ نقداً جارفاً عارماً . . تحول بعد قليل الى موجة من الاكبار والاحترام .

والطلبة الذين رسموا صورتي بالكاريكاتور ، أو تطاولوا بالتعريض الجارح . . سرعان ما آمنوا بأخوة العلم ، وشهروا هم ألسنتهم في وجه المنتقدين دفاعاً عني .

حتى إنهم عند ما ظهرت النتائج بحصولي على الدرجة الثانية في الامتحان العام للسنة الأولى ، وبحصولي على الأولية في السنوات الثلاث التالية لها ، لم يثرهم فواقي عليهم ، ولا الأرقام المدهشة التي أحرزتها في الامتحانات ، بل كانوا في مقدمة الذين قابلوا النتيجة بالاعجاب المقرون بالاحترام .

وكنت عند دخولي الكلية قد جوبهت بمنافسة طالب يهودي عاش أعوام دراسته على الظفر بالدرجة الأولى ، فصممت على أن أتحداه ، وأخذت أتابع الدراسة عشرين ساعة في اليوم ، وفي أحيان كثيرة كنت أصل الليل بالنهار . وقد انتصرت عليه في النهاية وفقته .

✣

هكذا كان عام ١٩٣٦ نقطة تحول خطيرة في تعليم المرأة العراقية ، شجعت

الكثيرات على سلوك هذا الطريق السوي بحماسة ظاهرة ، وإقبال كبير . وساهمت وزارة المعارف بدورها في الأخذ بالتيار الجديد ، ففتحت أبواب الكليات للفتاة العراقيـــة ومنحتها جميع التسهيلات ، فلم يمض عام واحد حتى قبلت دفعة من الطالبات في دار المعلمين العالية تضم ثماني طالبات ، وأخـذت الكليات الأخرى تتبارى في هـــذا المضمار . ولم يمض عشر سنوات حتى سجلت كل كلية عدداً من المتخرجات . واذا أنعمنا النظر في الاحصاءات الرسمية نصل الى نتيجة باهرة تدعو الى الدَهش والاعجاب . فقد كان عدد المتخرجات من المعاهد العالية سنة ٣٩ــ ١٩٤٠ طالبة واحدة فقط . فقفز في السنة التالية لها الى ١١ منه ٢ من الحقوق ، وفي سنة ٤٤ــ١٩٤٥ الى ١٨ ، وفي سنة ٤٥ــ١٩٤٦ الى ٣٧ ، وفي سنة ٤٧ــ١٩٤٨ الى ٦٢ ، ثم في السنة التالية لها الى ٨٠ .

وارتفع عدد المتخرجات في سنة ٥٠ــ١٩٥١ الى ١٦٠ ، فقفز في سنة ٥١ــ ١٩٥٢ الى ٢٠٢ ، وفي سنة ٥٥ــ١٩٥٦ الى ٢٥٠ .

وكان عدد المتخرجات في كلية الطب مثلاً طالبة واحدة في سنة ١٩٣٩ ، و ٥ في سنة ١٩٤٣ ، و ١٠ في سنة ١٩٥٤ ، و ١٢ في سنة ١٩٥٦ .

وبلغ عدد الطالبات في المعاهد العالية التابعة لوزارة المعارف ١٠٣١ من مجموع ٤٠٣٨ من الطلبة في سنة ٥٥ــ١٩٥٦ ، فقفز الى ١٢٣٢ طالبة من مجموع ٥٣٦٣ من الطلبة في ٥٦ــ١٩٥٧ . وعدد الطالبات في المعاهد العالية غير التابعة لوزارة المعارف ١٨٤ في سنة ٥٥ــ١٩٥٦ ارتفع الى (٢٥٥) في سنة ٥٦ــ١٩٥٧ .

وتجلى الاقبال في هذه المرحلة بصورة خاصة على الدخول في كلية الحقوق ودار المعلمين العالية . وتشير الاحصاءات الى أن عدد المتخرجات في كلية الحقوق بلغ ٢ في سنة ٤٠ــ١٩٤١ ومثل ذلك في السنة التالية لها ، و ٣ في سنة ٤٣ــ١٩٤٤ ، و ٢ في سنة ٤٥ــ١٩٤٦ ، فقفز هذا العدد الى ١٣ في سنة ٤٦ــ١٩٤٧ ، و ٢٨ في سنة

٥٠ــ١٩٥١ ، و ٤٦ في سنة ٥١ــ١٩٥٢ .

وتخرجت ٩ طالبات في دار المعلمين العالية في سنة ٤٠ــ١٩٤١ ، ولكن في سنة ٤٥ــ١٩٤٦ ارتفع هذا العدد الى ٣٥ ، وفي سنة ٥٠ــ١٩٥١ الى ٦٤ ، وفي سنة ٥٥ــ١٩٥٦ الى ٥٨ .

وكان عدد المتخرجات في كلية العلوم والآداب سنة ٥٥ــ١٩٥٦ قد بلغ ٣٨ طالبة منهن ٣٣ في الآداب و ٥ في العلوم مقابل ١٣ في أول دفعة تخرجن عام ٥٢ــ١٩٥٣.

أما في كلية الهندسة ، فان عدد المتخرجات في سنة ٥٥ــ١٩٥٦ بلغ ٣ فقط ، مقابل طالبة واحدة في سنة ٤٩ــ١٩٥٠ .

ويحسن بنا في معرض الحديث عن الكليات العراقية أن نشير الى ما حققته كلية الملكة عالية التي افتتحت عام ٤٥ــ١٩٤٦ فان تنوع الدراسة والاختصاص المهني والمنزلي من شأنهما أن يميزاها عن سائر المعاهد ، وهي المعهد الوحيد الذي جميع طالباته من الاناث ، وإن كان يتولى التدريس فيه عدد كبير من الأساتذة الرجال . وكانت المرحومة الست أمة سعيد ، التي أسدت أجل الخدمات لتعليم المرأة العراقية ، أول عميدة لها . ثم أسندت عمادة الدار الى الدكتور محمود غناوي الزهيري الذي مازال يشغلها بالوكالة .

وقد بلغ عدد المتخرجات في سنة ٥٦ــ١٩٥٧ الماضية ٧٢ ، وفي سنة ٥٥ــ ١٩٥٦ (١١٤) مقابل ٤٧ في أول دفعة تخرجن في المعهد عام ٤٧ــ١٩٤٨ ، و ١٠١ في سنة ٥٤ــ١٩٥٥ .

وارتفع عدد المقبولات في السنة الحالية الى ٣٩٣ .

وفي سنة ٥٧ــ١٩٥٨ الحالية سجل قبول الاناث في كلية الطب رقماً قياسياً بالنسبة للسنوات العشرين الماضية . فقد التحقت بها ٣٤ طالبة دفعة واحدة . وحدث مثل ذلك في المعاهد الأخرى ، فقد انتمى الى كلية الهندسة ٧ طالبات ، وكلية الملكة

عالية ١٤٥ ، وكلية التجارة والاقتصاد ٢٧ ، وكلية العلوم والآداب ١٠٦ ، وكلية الصيدلة والكيمياء ٦٥ ، وكلية الحقوق ١٤ طالبة ، ودار المعلمين العالية ٩٨ .

وهـــذه النتائج الباهرة فى رأيي ، هي بمثابة انقلاب اجتماعي وثقافي عظيم لم يقتصر على الأسلوب ، بل تناول تطوير التعليم بصورة عامة . فقد فتحت الكليات العلمية أبوابها للمرأة ، ومهدت لها سبل العمل فى الدولة ، وفي الأعمال الحرة التي ظلت الى عهد طويل وقفاً على الرجال وحدهم .

لقد مارست الطبابة ، والصيدلة ، والسكرتارية ، والمحاماة ، والصحـافة بثقة ونجاح . ووجدت فى الوظائف الحكومية مجالاً جديداً ، تثبت فيه جدارتها ، وترضي طموحها وتسبغ عليه إنسانيتها ، باحثة إجتماعية أو أمينة مكتبة عامة أو زائرة صحية.

أقدمت المرأة فى العـامين الأخيرين أول مرة على مباشرة أعمال كانت محرمة عليها ، فعينت مديرية الآثار القديمة العامة اثنتين من المتخرجات فى قسم الآثار بكلية العلوم والآداب للمشاركة فى الدراسات الآثارية .

وأول مرة أيضاً تولت العراقيـة المثقفة الاشراف على عمليات إبادة البلهارزيا فى بغـــداد الى جانب عملها فى المختبرات التابعة للأمراض المتوطنة . وبدأت بين الكليات والمعاهد العالية فى الأعوام الأخيرة حركة جديدة تقوم على الاستعانة بالمرأة فى مناصب التدريس حتى أصبح اليوم فى الكليات عـدد غير قليل من المعيـدات أو أستاذات مساعدات .

البعثات العلمية

ومما يدعو الى الافتخار أن المرأة العراقية لم تقنع بما نالته من مكانة فى التعليم العالي عن طريق الكليات المحلية ، بل اتجهت الى الدراسة فى خارج البلاد وظفرت

بشهادات الدكتوراه فى عدد من الفروع . ومع أن تأريخ التعليم الحديث فى العراق لم يحص بتدقيق عدد اللواتي تركن بلادهن الى المعاهد الأجنبية ، فمن الثابت أن مديحة صالح زكي طبيبة الأسنان كانت أول عراقية سافرت على حسابها الى فرنسة سنة ١٩٢٦ ، وغادرت بغداد بعد عشرة أعوام من ذلك التأريخ ثانية للحصول على الدراسة العالية .

وكانت السيدة مديحة ياسين عمر الرسامة المعروفة ، والسيدة مارتا عساف أول عراقيتين سافرتا سنة ٢٦ــ١٩٢٧ الى الخارج فى بعثة حكومية . وبعد ذلك التأريخ أخذت البعثات العراقية تضم كل سنة عدداً من الفتيات لا يقل عن ربع الموفدين . ولا غرو في أن تتسم السنوات العشر التي عقبت الحرب العالمية الثانية باتساع نطاق مشاركة العراقية فى البعثات العلمية ، سواء أكان ذلك للتخصص فى بعض الموضوعات أم عن طريق الاستفادة من الزمالات والمنح الدراسية التي تمنحها بعض الدول أو الوكالات التابعة للأمم المتحدة . واليوم عشرات من فتياتنا يتلقين دراساتهن شرقاً وغرباً ، ويحرصن أشد الحرص على أن يمحضن وطنهن الخدمة الصادقة المطلوبة منهن .

الطلائع

ولا يغيب عن البال أن مراحل التعليم العالي للفتاة العراقية تمشت مع أهداف النهضة النسوية التي ذرّ قرنها فى عهد الحكم الوطني ، فسارت مثلها سيراً وئيداً مثمراً وخطت خطوات قوية رزينة .

كانت الكلية الطبية (الدكتورة ملك غنام) وكلية الحقوق (المؤلفة) في مقدمة المعاهد التي فتحت أبوابها للفتاة العراقية .

وفي سنة ١٩٣٧ بدأت دار المعلمين العالية في استقبال أول دفعة من الطالبات تخرجن في سنة ٤٠ــ١٩٤١ وهن : بدرية محمد علي الهاشمي ، وبدرية محمد علي الوكيل ، وأليس سمعان ، وعزة الاسترابادي ، ولطيفة متي كرومي ، وزهرة باقر الجلبي ، وجوزفين صالح ، وهيلة مراد .

وتخرجت في كلية الصيدلة والكيمياء الآنسة جوزفين برجوني ، والسيدة رحيمة يوسف سنة ١٩٤٠ ، وكانت الأولى أول صيدلانية تمارس عملها الحر .

وفتحت كلية العلوم والآداب التي أسست في ١٩٥٠ أبوابها من البداية للطالبات وتخرجت أول دفعة فيها سنة ٥٣ــ١٩٥٤ تضم أربع عشرة طالبة هن :

جانيت توفيق قصير ، وجوليا غريب ، وحياة جميل حافظ ، وخالدة ضياء الدين ، وسافرة جميل حافظ ، وسعاد حبيب سرسم ، ولطيفة مهدي العزاوي ، وليلى أنطون سمحيري ، وملكية نعمان الأعظمي ، وناهدة صبري رسام ، ونجلا مظهر ، ونصرية نعمان الأعظمي ، ووديعة طه النجم ، وفيوليت سليم .

وتخلفت كلية الهندسة عن التيار ، فلم تدخلها إلا فتاة واحدة ، هي الآنسة جوزفين غزالة ، فقد تخرجت في سنة ٩٥٠ أول مهندسة عراقية . على أن هذا المعهد العالي بدأ الآن يلفت أنظار الطالبات ويجذب انتباههن ويحول خطاهن نحوه بحيث إن سبع طالبات سجلن أسماءهن في هذه السنة ، وهو رقم قياسي بالنسبة للسنوات السبع الماضية التي اتجهت المرأة بها لدراسة الهندسة .

وتخرجت في كلية التجارة والاقتصاد أول دفعة من الطالبات سنة ٥٠ــ٩٥١ تضم : رحمة طويق ، وجوليت حسقيل ناجي ، وسمحة يامين .

وبجمل القول أن التعليم العالي للمرأة العراقية كشف النقاب عن مزايا عالية ودوافع ذاتية كريمة تحلت بها المرأة في كفاحها للتعلم والدراسة ، فأصبح للعراق

جيل جديد قادر على تحمل التبعات والاضطلاع بتكاليف القيادة وأعباء التوجيه والارشاد .

وليس شيء أدعى الى الاغتباط من أن تحتل المرأة مكانها بجدارة ، مديرة لمستشفى ، أو رئيسة لقسم ، أو مشرفة على مؤسسة اجتماعية ، أو ثقافية . وستضيف نجاحات أخرى الى ما كسبته ، ما دام غرضها الجوهر دون العرض ، واللباب دون القشور .

نادى
النهضة
النسائية

طلع عام ١٩٢٣ ، وفيه تم تأسيس (نادي النهضة النسائية) ، وهو أول ناد للمرأة العراقية . وأعتقد مخلصة أن البداية كانت رائعة ، فسرعان ما لفتت الأنظار ، وإن قوبلت مقاصده كغيرها من مطالب المرأة بتلك المقاومة التقليدية من الانكار والايذاء الجارح في أكثر الأحيان . ولكن الشواهد برهنت على أن أكثر من أمر كان يبرز نضال المرأة كطاقة جديدة في مضامير الخدمة الاجتماعية ترمي الى إخراج المرأة من ديجور الظلمة التي كانت تعاني مشكلتها وتحول بينها وبين وجودها عضوة مفيدة تعرف ما لها وما عليها ، وما لنفسها وما للوطن عليها من حقوق ومسؤوليات .

وهذه المرحلة من كفاح المرأة تأثرت أكبر التأثر بما كان يصل بين الحين والآخر من أخبار جهود المرأة في تركية ، وجهادها في مصر وسورية ، وهما طليعة الحركة وانتظام المرأة في المجتمع الحديث بنزولها الى ميادين الخدمة الاجتماعية بعد أن تسلحت بعدد العلم والثقافة والشعور بالمسؤولية . . وكان هذا التأثر أكثر وضوحاً ، وأبعد عمقاً بنزول المرأة المصرية الى ميدان الصراع العنيف للوطنية التي كان اندلاع أوارها ضد الطغيان الأجنبي قد بلغ أقصى مداه عام ١٩١٩ .

والعجيب أن (نادي النهضة النسائية) العراقي قد أسس في نفس السنة التي ألف فيها الاتحاد النسائي المصري برئاسة السيدة هدى الشعراوي .

في هذا الظرف شق نادي النهضة النسائية طريقه الى الوجود .

كان بعض المشتغلات فى الحقل النسوي مثل عقيلة عبدالرحمن باشا الحيدري ، وعقيلة السيد نوري السعيد ، وعقيلة السيد جعفر العسكري رئيس الوزارة يومذاك ،

والسيدة نعيمة سلطان حمودة عقيلة الشيخ أحمـــد الداود ، والسيدة أسماء الزهاوي شقيقة الشاعر الأستاذ جميل صدقي ، والآنسة حسيبة جعفر بك ، والآنسة بولينا حسون صاحبة مجلة « ليلى » ، قد عزمن على الدعوة الى وجود مثل هذا النادي ليجمع شمل المرأة ويقوم بتعليم الفتـاة وإعدادها لتصبح عضواً فعـالاً في خدمة المجتمع . .

وقوبلت هذه الدعوة برد قوي « صخب الرجال المحافظون وضجوا ، وبلغ من تعصبهم أنهم أخذوا يشكون المنتدى الى الحكومة[1]. »

وقالت الكاتبة البريطانيـة المسز ستيفنسن عقيلة المستر دارور مستشار وزارة العدلية في مقال بمجلة « النيريست » عام ٩٣٠ إن الصحف علقت يومذاك تعليقات كثيرة ، وقد أثارت هذه الحركة ضجة كبيرة وقامت عليها قيامة الرجوعيين فكتبوا عنها في الجرائد المحلية ، حتى إن بعض متعصبيهم قد طلب من الحكومة التدخل لخنق هـــذه الحركة ، مدعين بأن السفور يغزو البلاد ، وأن البيوت والدور الاسلامية تهددها المثالب الغربية ، الى غير ذلك من الادعاءات الباطلة .

وزعمت الكاتبة أن غاية النادي غامضة ، ولم يكن في منهاجه أكثر من استماع بضع خطب تلقيها عضواتها . وهذه أمور مغايرة للواقع ، فقد نشرتُ في سنة ٩٣٠ رداً في صحيفة البـلاد استغرق أكثر من أربعة أعمدة عالجت فيها وضوح أهـداف النادي في رفع مستوى المرأة العراقية وضمان حقوقها الاجتماعية . وبينت أن فكرة النادي اختمرت في رؤوس عدد كبير من فضليات السيدات والأوانس ، وأن حصر فضل الفكرة بسيدة واحدة ، هو انتقاص للفكرة العامة المختمرة في رؤوس سيدات هذا الوطن ، وافتراء على التأريخ والواقع[2] .

على أن السيدة دراور اعترفت بأنه لم يكن بين المسلمات من أعضاء النادي من

---

(١) الانتدابان في سورية والعراق ـــ للأستاذ جميل بيهم .

(٢) البلاد ـ ٣٠ تشرين أول ١٩٣٠ .

لا تضع على وجهها الحجاب المتعارف في بغداد ، مع أن كثيرات منهن كن متمسكات باللباس القديم ويسترن شعرهن بملافع سود لا يظهر منها شيء سوى خصلتين على جانبي الوجه ، ولم يرغب النادي في السفور ، على الرغم من طلب كثيرات من الأعضاء ذلك ، محتجات بالشكل الواهي الذي وصل اليه الحجاب .

وعلى أي حال . . .

عقدت المؤسسات أربعة اجتماعات خصوصية « تعاهدن فيها على الاتحاد والتعاضد والتفادي في سبيل النهضة ، وقررن فتح باب المساهمة لمن ترغب المشاركة في هذا المشروع الوطني » .

وأعلنت المؤسسات « أن الغاية المقدسة التي ترمي إليها النهضة النسائية العراقية هي إرشاد النساء والفتيات ، الى الشعور بهويتهن الحقيقية ، ومعرفة مركزهن السامي والاندفاع الى التنوّر والتهذيب لاصلاح أحوالهن الأدبية والاجتماعية وحسن القيام بالأعمال التي يتطلبها منهن المعترك الانساني ، وبالواجبات والخدم الشريفة التي تنتظرها منهن الأمة ، وبها يسعدن أنفسهن وأهاليهن والوطن أجمع .

وأما النادي النسائي المنوي فتحه ، فهو المعول عليه لتعزيز هذه الغاية والتوسل بجمع جميع الوسائل الممكنة لبلوغها ، فسيفتح أبوابه لجميع السيدات الفاضلات على اختلاف مذاهبهن ، وتعطى الدروس والتمارين المتعلقة في التهذيب والاقتصاد والصحة وتربية الأطفال والأشغال المنزلية .

وسيسعى السعي الحثيث الى تكثير مدارس الاناث وترقية تعليمهن وتربيتهن ، وسيكافح بكل قواه العادات المستهجنة التي ترذلها الشرائع الآلهية والقوانين الاجتماعية ، لأنها تنافي الفضيلة والشرف الحقيقي ، والاقتصاد اللازم للبلاد .

وسننشر برنامج النادي عند استئذان الحكومة بفتحه بالصفة القانونية ونبحث فيه ونشرح الشرح المطلوب . فالى النهضة أيتها السيدات والأوانس ، الى النهضة من

سبات الجمود والخمول .

إن المشروع مشروعكن ولسعادتكن وسعادة من يلوذ بكن ، وفي النتيجة هو للوطن العزيز الذي ظل متأخراً حتى الآن في هذا الأمر الحيوي .

إن المشروع عظيم جليل جميل ، إلا أن سبيله مملوءة شوكاً ودغلاً ، وما كانت العراقيات ليرجعن الى الوراء بعد أن خطون هـذه الخطوة الجبارة الأولى التي بلغ خبرها إخوانهن العربيات الناهضات في بلاد أرقى من بلادهن ، ففتحت العيون من بعيد ومن قريب لمراقبة دخولكن في هـــذا الميدان ، وألوف من العروق تنبض في ألوف من القلوب لدى كل حركة تبدر منكن فى هذا الشأن الخطير(١) . »

وكما أوضحت .. لقد أثار اقتحام المرأة ميدان العمل وتبلور مطالبها على النحو الذي ورد فى البيان ، ضجة فى الأوساط العراقية شطرت النـاس الى شطرين : متزمت متشائم ينعى دواعي الخلق والفضيلة فى المجتمع ، ويعلن فى السر والعلن تلك الآراء الشيطانيـة التي خرجت بالمـرأة عن جادة الصواب . . ومتفـائل يعلق ما حدث بأحكام التطور ، والانتقال الطبيعيين .

وكانت صحيفة الاستقلال التي تداولت تحريرها أقلام واعية ودعت منذ الثورة الثورة العراقية الى إحقاق مطالب المرأة ، بين هـــذا الفريق . ومما قالته بعنوان « النهضة النسائية المباركة » :

« في البلاد اليوم نهضة نسائية مباركة يثلج لها صدر كل وطني ووطنية في العالم العربي قاطبة ، وترمي هذه النهضة السعيدة الى بنيان الفضائل السامية وبلوغ الغايات النبيلة ، وهي ترقية المرأة في الأخلاق والعلم والتهذيب ، وتحسين أحوالها الاجتماعية في إدارة شؤون منزلها والاعتناء بأولادها وزوجها كل العناية ، والمحافظة على آدابها وعاداتها الدينية والقومية الشريفة كل المحافظة . »

---

(١) مجلة ليلى .

« ومن مظاهر هـــذه النهضة قيام بعض فضليات سيداتنا من الأسر الكريمة بحركة مباركة ، وهي تنفيذ الفكرة التي مازلن يفكرن فيها من أكثر من سنتين ، وتلك الفكرة هي تأسيس ناد أدبي للسيدات يساعدهن على البحث في شؤون تعليم الفتاة وتهذيبها ورفع شأن المرأة وتعزيز فضائلها الدينية والقومية . « الاستقلال »

وأعود ثانية الى نادي النهضة النسائية . كان النادي قد بدأ أعماله في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٣ بانتخاب السيدة أسماء الزهاوي ، شقيقة الشاعر المرحوم جميل صدقي الزهاوي ، رئيسة له . وركز جهوده في ثلاثة أهداف :

(١) فتح دورة لتعليم الأميات .

(٢) القيام بخياطة الملابس للفقيرات .

(٣) القيام بتربية وتعليم عدد من اليتيمات .

وبهذا يكون النادي أول هيأة نسوية عراقية تحقق مبدأ الاعالة الاجتماعية وتشارك عضواته في خدمة العشرات من بنات هذا البلد وتوجيههن التوجيه الصحيح وتهيئتهن لحياة كريمة شريفة .

وكانت حلقة (النهضة النسوية) تلتئم في منازل بعض العضوات ، فتلقى الخطب وتناقش المشروعات والآراء وتوضع الخطط والمناهج . وعقدت اجتماعات عديدة في منزل حرم عبدالرحمن باشا الحيدري تارة ومنزل حرم عبدالوهاب باشا آل فرطاس تارة أخرى ، ذلك قبل أن تستأجر عصبة النهضة النسائية أحد المنازل الكبيرة في حي الميدان ببغداد ، لتكون ناظماً لنشاط النادي ومقراً لفعالياته الانسانية والخيرية .

ويتسع المقام هنا لأن أنقل خطاباً للسيدة نعيمة نوري السعيد إحدى العضوات المؤسسات ألقته في الاجتماع الثاني للهيأة ، شرحت فيه بعض أهداف هذا النادي ، وهو كما أسلفت ، يمثل أول جمعية نسائية في العراق الحديث .

قالت في خطابها :

« أرجو من لطفكن أن تسمحن لي بأن أقول كلمة بخصوص الغاية التي اجتمعنا من أجلها ، وأظن أن ذكر هذه الكلمة أثناء بدئنا في العمل مما يفيدنا في المستقبل . »

« إن الغاية من اجتماعنا ، في دار شقيقتنا حرم المرحوم عبدالوهاب باشا ، هي عين الغاية التي اجتمعنا من أجلها نهار السبت الماضي في دار شقيقتنا حرم عبدالرحمن باشا . وهـــذه الغاية هي المذاكرة بخصوص تأسيس ناد أدبي تجتمع فيه خيرة سيدات بغداد وأوانسها . »

« وإني أعتقد إن وجود هذا النادي ، هو أهم ما نحتاج نحن معاشر العراقيات ، وأظن أن جميع شقيقاتي يشاركنني في هذا الاعتقاد . »

« قد اتضح للعالم اليوم أن الأمة لا تترقى ، ولا تنجح النجاح المطلوب ، إلا اذا تعاون رجالها ونساؤها في العـالم ، ولا يمكن للنساء أن يساعدن الرجال في خدمة الوطن ، إلا اذا كن متعلمات بصورة كافية . لهذا فان جميع الأمم أخذت تتسابق الى تعليم بناتها ، وتحسين حالة نسائها منذ سنين بعيدة . »

« وقد انتشرت حركة تعليم البنات في البلاد الشرقية والعربية ، فان النساء في تركية ومصر وسورية وغيرها ، قد سرن خطوات واسعة في طريق التعليم والتهذيب . »

« أما هنا في العراق ، فان الظروف الماضية قد حرمت أكثر بناتنا من التعليم الكافي ، وتركت أغلب نسائنا غير قادرات على حسن القيام بالوظائف العائلية الشريفة التي خلقهن الله تعالى لها ، وقد جرى هذا ، مع أن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . ولا أرى من لزوم لذكر الحالة التي وصلت إليها الحياة العائلية في بلادنا ، بسبب عدم الاهتمام بتعليم الفتيات ، لأن ذلك من الأمور المعروفة . »

إن بلادنا العزيزة قد دخلت الآن في حيـاة جديدة ، وبدأت أمتنا تسير نحو الترقي والفلاح ، فأصبح من الواجب علينا ، نحن نساء هذه البلاد ، أن نقوم بواجبنا

نحو هذه النهضة ، وأن نسعى لترقية شؤون فتياتنا القومية . »

« إن نصف الأمة تقريباً يتألف من الرجال ، والنصف الثاني من النساء . وليس من الممكن ، ولا من المعقول ، أن يتقدم نصف الأمة الأول اذا لم يعاونه النصف الثاني ، فواجباتنا اليوم عظيمة وكثيرة ، ونحن مسؤولان عنها أمام وجداننا وأمام وطننا وأمام الله . وأنا أعتقد أن النادي الذي نتذاكر فى تأسيسه سيكون أكبر مساعد لنا على إصلاح أمورنا وقيامنا بواجباتنا المقدسة ، لذلك فانني أرى أنه من الضروري أن نبذل ما في قدرتنا لانشائه . »

« يظن البعض فى بلاد الشرق أن النساء لا يقدرن على القيام بالأعمال المفيدة والمشاريع النافعة المتعلقة بهن . وهذا الظن هو خطأ ، ولا أرى حاجة لذكر براهين على ذلك ، لأن البراهين عليه أكثر من أن تذكر ، وتاريخنا العربي مملوء بالأعمال العظيمة التي قامت بها نساء العرب ، ولا سيما فى صدر الاسلام . والذي اؤمله الآن هو أن نشتغل بجد واهتمام لكي نبرهن بنجاحنا فى تأسيس النادي على خطأ هذا الظن ، وحيث ان كل مشروع جديد يلاقي بعض الصعوبات ، فمن المحتمل أن توجه بعض انتقادات غير محقة الى أعمالنا . فينبغي علينا أن نتوقع مثل هذه الانتقادات من الآن ، وأن نستعد لمقابلتها بزيادة الاهتمام بعملنا والاجتهاد فى تحسينه . فلنتقدم الى العمل بكل نشاط وإخلاص » .

✠

لم تكن الطريق أمام نادي النهضة النسائية ممهدة ، ولا منثوراً فيها الزهور والرياحين ، بل كانت الظروف جميعها توحي بتلبد الأفق وتجمع الغيوم لتقضي على هذا المشروع الوليد فى مهده .

وقد زعمت المسز دراور أن عدم اعتياد هذه البلاد لمثل هذه الأعمال أدى الى اضمحلال النادي شيئاً فشيئاً ، فقلت محاضراته ، وتباعدت المدد بينها ، وترك دفع

بدل المشاركة وكان خمس رويبات ، وقلّ حضور العضوات مع وجود هيأة منتخبة لم تقم بعمل ما ، ولم تعرف كيف تعمل ، وهكذا انقلب النادي ببطء الى محل لشرب الشاي ، ثم ترك البيت وتخلى عن الأيتام .

وهذه المزاعم تغاير الواقع أيضاً . لقد روت لي المرحومة السيدة أسماء الزهاوي أن فريقاً من رجال الدين كبر عليهم إطلاق اسم (النهضة النسائية) فرفعوا شكاوى الى الحكومة يستعدونها على النادي لرفع كلمة (النهضة) والاقتصار على عبارة (نادي المرأة) ، مفسرين النهضة تفسيرات غير صحيحة ، أملتها الأهواء والأحقاد . وقد وقفت السيدة أسماء بوجه هذا التحدي ، وأصرت على أن تبقى (النهضة النسائية) علماً للنادي ، وغرضاً من أغراضه . ولما أصرت السلطات على مساندة أولئك المكابرين ، قبلت إيصاد أبواب النادي ... لكن النهضة لم تقف عند حد ، وكان نجاحها الحجة البليغة والبرهان الدامغ .

معركة العراقية مع المجاب

ونتنقل بعد ذلك الى جانب آخر من المعركة !

لم يكن انتصار العراقية ، في معركة التعليم ، إلا بداية خرجت منها الى النور ، فأطلت على موكب الحيـاة ، وأعدت فيها نفسها لخوض غمار معامع جديدة ، وفي مقدمتها تمزيق الحجاب .

وهـــذه المعركة الجديدة لم تقل ضراوة وعنفاً عن سابقاتها ، فقد كانت قوى الرجوعيـة تتألب لتقف في طريق التحرر ، تارة بالغمز واللمز ، وتارة بالفحيح والتشهير ، ومرة ثالثة بكيل الاتهامات وخلق الأباطيل .

أجل ! إن الأراجيف التي قيلت كثيرة ، والألسنة التي انطلقت كانت عاتيـة لا ترحم ، والأقلام التي أطلقها أصحابها من عقالها أمعنت في المزاعم والأكاذيب . ولكن المعركة كانت تنجلي بسرعة . كانت إرهاصاً لنضج الوعي ، وبشيراً بانكشاف الحقائق ، ونذيراً بهزيمة الأراجيف !

وقبل أن أمضي في تسجيل هذه المرحلة من كفاح المرأة ، أقصُّ بعض الحقائق للعبرة والذكرى :

زار الملك فيصـل الأول في يوم من أيام تشرين الثاني ١٩٢٦ مدرسـة الاناث المركزية لاستبانة النشاط التعليمي فيها ، وهي ـ كما ذكرت ـ أول مدرسة حديثة للبنات أنشئت في العراق . ولكن الملك فيصلاً ما كاد يعبر وصيد الباب متطرقاً الى صف الدراسة حتى تراجع وهو يكتم ابتسامة وديعة حاول جاهداً إخفاءها .

كانت كل من الطالبات وراء مكاتبهن كتلة من السواد ، من الرأس الى أخمص

القدم ، حتى الوجه ، سدل عليه برقع أسود مثقب ثقوباً لا تشف عما وراءها .

وكان المشهد يستوقف الأنظار ، ويدعو الى الضحك والاشفاق معاً ، لأن أكبر طالبة لم تتجاوز العاشرة .. والزائر ملك عظيم يرسي نهضة بلد ، ويبعث مجداً قديماً .

وفي لحظة عاجلة اتخذ الملك قراراً بالعدول عن إكمال زيارته للمدرسة ، واكتفى بمصافحة المديرة وهي أمريكية الجنسية ، فسألته :

ـــ لماذا يا صاحب الجلالة لا تزور قاعات الطالبات ؟

فرد على الفور : لست بحاجة الى مشاهدة غمامة سوداء .

وليس هذا وحده . .

هناك ما هو أدهى وأمر !

إن السيد عبدالرحمن النقيب ، أول رئيس وزراء في العراق ، بلغ تطيره من السفور أن حذر أهل منزله من السير داخل المنزل بدون عباءة ، خشية أن تمر إحدى الطيارات فيقع نظر الطيار عليهن !

وكان للسيد عبدالرحمن النقيب نفسه موقف قاس على مشاركتي في سوق عكاظ .

هذه قصة السفور في مراحله المتصلة تطرقت إليها على عجل لأمضي الى صميم الموضوع . ولا يفوتني أن أذكر أنني أعني بالسفور ما يتصل بالمرأة في الطبقة المتوسطة ، امرأة المدينة ، لأن العراقية في الريف ليست محل بحثي في هذا المقام ، ذلك أنها كانت منذ فجر الريف وما زالت تمارس حقها الطبيعي في مشاركة الرجل في مشاق العيش . . في الحقل ، والمنزل ، والتسوّق .

وكما مثلت قضية تعليم المرأة ذلك الدور البعيد في حياة الناس منذ إنشاء الحكم الوطني كان السفور والحجاب قد أقاما الدنيا وأقعداها ، واقترنا بمشادات عنيفة ملأت أعمدة الصحف ، وشارك فيها كثير من الشعراء وقادة الفكر ورجال السياسة والدين . . وفي مقدمتهم الرصافي والزهاوي .

لقد استنفرت لهذه الحملة الأقلام من كل مكان ، وخرجت من نطاقها المحلي العراقي الى الصعيد العربي الواسع ، فكان لها صدى هنا ، ووقع هناك ، صورت بعضه الصحف ، ومنها الصحيفة التي كانت يصدرها الأستاذ حسين الرحال .

ولم يقتصر القراع على أعمدة الصحف وحدها ، فقد شاعت في خلال ذلك أغنية معروفة للمطرب العراقي الأستاذ محمد القبانجي قال فيها :

إبنيه بنت البيت كصت شعرها　　عالمودة تمشي دلوع عافت سترها
عالمودة تمشي دلوع يا ربي سترك　　تحفظ جميع الناس منها ومكرها

ومنها :

كص الشعر كل يوم عند المزين　　والركبة ركبة شاب من ورة تبين
لو للعلم تسعين يا بنتي أحسن　　خلي الخلاعة تروح للغرب أهلها

الى آخر هـــذا الكلام الذي يمثل جانباً من المقاومة التي شهرتها تلك القوى بوجه تقدم المرأة ، لحرمانها حقوقها كانسان ، ووصمها بكل ما يشين !

والغريب أن الأستاذ القبانجي نظم ولحن ، وغنى هذه الأغنية عند ما كان يزور ألمانيا عام ١٩٣٠ لتسجيل بعض الأسطوانات ، وشاهد سفور الألمانيات فتأثر لذلك وأفصح عما خالج نفسه بهذه المقطوعة التي انتقلت الى العراق في الوقت الذي كان السفور يأخذ سبيله الى طائفة من الأسر البغدادية . .

في هذا الخضم نسجت قصة السفور والحجاب سطورها الأولى ، ولا يعنينا هنا البحث عن بواعثها ـــ فقد كانت لها مشابه في أقطار أخرى قريبة وبعيدة ـــ بمقدار ما يعنينا تسجيل مرحلة تتصل اتصالاً وثيقاً بالنهضة النسوية وبما تمخضت عنه من نتائج ضخمة ، في مقدمتها هذا الاقبال الشديد على معاهد العلم في الداخل والخارج .

إنني لا أعلم أن قضية هزت دنيا العراقيين وشغلت أذهانهم كالخطوة التي أقدمت عليها المرأة في السفور ، ولا أعرف أن مسألة حظيت باهتمام صفوة المفكرين وقادة

الرأي ، حتى سواد الناس ، كثورة المرأة على الحجاب .

ولا بدع في أن يعبر النقاش العنيف الذي ثار في السنوات العشر الأولى من الحكم الوطني عن مدى افتتان الناس في اجتلاء أثر هذه القضية ومعرفة نتائجها ، فلم تخل صحيفة ولا مجلة من مقال أو أكثر ، ولم يبق شاعر أو أديب ، إلا أدلى بدلوه بين الدلاء ، حتى أولئك الذين لم تواتهم الجرأة في نشر أسمائهم الصريحة ، عمدوا الى الكتابة بأسماء مستعارة ، مدحاً وتأييداً ، أو قدحاً وتفنيداً . ومن أعنف الحملات التي شنت على المرأة قول إبراهيم أدهم الزهاوي :

رأيت في النوم إبليساً فقلت له ... جد الشياطين لا تبخل بتبيان
اعط الجواب لصب لا قرار له ... كيف الوصول . . . . . .
فقال مرتجلاً بيتاً أجاد به ... وكان مختفياً عن كل إنسان :
سل السفوري عما تستشير به ... إن السفوري من جندي وأعواني

وقول حسين الظريفي في قصيدة عنوانها (خلوا احتجاب الغانيات وشأنه) :

يريدون هتك المحصنات وجوهها ... ويرجون أن يلقوا بتلك الستائر
أما والعلى إني لأطرح العلى ... اذا هي كانت في سفور الحرائر
وخلوا احتجاب الغانيات وشأنه ... فنحن على أبواب خطب مكاسر
سأصفع من لم يزدجر بمقالة ... فيا ويل من لم يزدجر بالزواجر

وهذا الافتتان من جمهرة القارئين بالجدل الذي دار حول السفور والحجاب حمل السيد مصطفى القاضي من أدباء بغداد على تصنيفه في كتاب باسم « مختارات في السفور والحجاب » ونشره عام ١٩٢٤ .

والكتاب بجملته سند تأريخي هام يبين الصراع الشاجر بين أدباء بغداد حول السفور والحجاب ، وقد ضم عشرين مقالة ، منها ست عشرة مقالة لأنصار الحجاب ، وأربع فقط لأنصار السفور . وكان الأستاذ توفيق الفكيكي ، والأستاذ خليل اسماعيل

من وزراء المالية السابقين ، والأستاذ محمد بهجة الأثري ، طليعة الذين جاهروا بمعارضتهم لسفور المرأة .

وقد ذكر لي الأستاذ الفكيكي النائب ، والأديب الحقوقي ، أن سبب إثارته لتلك الحملة كان يتركز فى استنكاره للحركة التي قامت بها السيدة معزز محمد توفيق برتو مديرة مدرسة البارودية للاناث فى تشرين أول ١٩٢٤ حينما سمحت لطالباتها بالاشتراك فى الاحتفالات التي جرت يومئذ لاستقبال الأمير غازي ولي العهد وهن سافرات يرتدين زي الكشافة المعروف فى مدارس البنين وتتقدمهن طالبتان بالعلم العراقي ، وانه لهذا السبب انبرى للسفور ، ونشر سلسلة مقالات فى « المفيد » للمرحوم الأستاذ ابراهيم حلمي العمر ، ندد بالطريقة التي اتبعتها مربية فى معهد علمي ، متحدية لشعور الرأي العام ، وللتقاليد الاجتماعية ، وللعنعنات القائمة يومذاك ، وانه لم يعارض تعليم الفتاة لتكون ربة بيت وأماً صالحة .

وبديهي أن السيدة برتو لم تعدم أنصاراً يدفعون عنها السهام التي ريشها الأستاذ الفكيكي وغيره . . وظلت هذه الحملة بين السفوريين والحجاب قائمة عدة شهور . ونحن حين نتأمل معركة المرأة مع الحجاب ، لا يسعنا إلا إكبار المرأة التي ألهبت الأقلام ، وأثارت حولها الأفكار ، ولن ننسى أن السيدة معزز كانت صاحبة الفضل الأول في ذلك النقاش الذي خدم المرأة ، وأوضح خطوط قضيتها . وكان لزاماً أن يؤدي ذلك الاحتكاك حول قضية الحجاب والسفور ، القضية الاجتماعية البارزة ، الى إثارة مسائل أخرى تتصل بالأحوال الشخصية بوجه عام ، فضلاً عن القضايا الأخرى الدقيقة المتعلقة بالطلاق والزواج في نطاق الشرائع الدينية ، والأحكام المدنية.

مودة قص الشعر

والسيدة معزز التي سببت ذلك الصراع الفكري حول الحجاب والسفور كانت

أول عراقية تدخل (مودة قص الشعر) الى العراق . . وكاد عملها يؤجج سخط المتزمتات ويثير سخائم نفوسهن ، ولم تفلت الى بضع سنوات من ألسنتهن الحادة يطلقنها بلا حساب في المجالس والمجتمعات النسوية . وكان ظهورها في الشارع ، وهي في طريقها الى المدرسة يعصف بالكثيرين ، فيحملهم على التنفيس عن نقمتهم سراً أو جهراً ، بالصاق التهم بها ووصفها بالمسترجلة ، أو (المرأة الشبيهة بالرجال) ..

وقد بدأت السيدة معزز بنشر هذه (المودة) بين طالباتها أولاً . . وكانت تقوم بعملية (قص الشعر) في المدرسة نفسها ، إذ لم يكن في بغداد يومذاك ما نراه اليوم من (صالونات الحلاقة) ، ولا من الاختصاصيات في تنظيم الشعر ، وكان جل ما تعمله الطالبة أو الفتاة العراقية ، هو أن تذهب الى المدرسة المذكورة . . وما أكثر المحن التي واجهت السيدة معزز بسبب هذه (المودة) ، وما أكثر المتاعب التي خلقتها لها من أمهات الطالبات وهن يرين في ذلك عاراً وأي عار !!

أعود الى تلك المشادة الفكرية حول الحجاب والسفور .. وما أثير فيها من الحجج والبراهين أو الادعاءات والاتهامات ، بين العناصر التقدمية المؤيدة للمرأة والرجوعية المناهضـــة لها . . فبينما ادعى الأستاذ الفكيكي أن السفور حملة من « إيجاد المستشرقين لافساد الأخلاق » . أخذ الأستاذ خليل اسماعيل يسائل ، كيف يمكن أن يحدث السفور في بلد كبلادنا ؟ « ونحن بلد إسلامي يأمر ديننا النساء بأن يقرن في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية » . أما الأستاذ الأثري ، فقد ضم صوته الى الحجابيين ، وأنكر عليها حقها في ممارسة كل عمل ، غير بيتها وأطفالها ، زاعماً أنها لا تتحمل خشونة هذه الأعمال ، لوجود موانع طبيعية وفسلجية تحول دون ذلك ، وإن لم ينكر عليها في موقف آخر ، حقها من العلم والثقافة .

أما دعاة سفور المرأة ، وهم قلة ، فكانت آراؤهم تستوحي خطوطها من أحكام التطور ونهضات الشعوب ، وسنة الحياة نفسها .

وقد جاء في مقال للأستاذ مصطفى علي بعنوان (الوقوف لصد التيار عبث) :

« لقد رأيت أن جميع من دعا الى التمسك بالحجاب كان يتذرع بحجج واهية ، منها أقوال الشعراء ، حتى حسبوا أنها قواعد علمية لا تقبل النقض . والواقع أن ما يكون مقبولاً اليوم قد يكون غير مقبول غداً ، والعكس أيضاً . أما أننا نخاف أن نبدل بعض عاداتنا ، أو نغير شيئاً من أحوالنا ، فهذا منتهى التخاذل :

فالحر من خرق العادات منتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات »

وناقش مسألة الحجاب بأنها عادة طارئة ، وأن العادة هذه ليست عربية ، بل جاءتهم من مخالطتهم الأعاجم ، ولكنهم — أي العرب — بالغوا فيها ، وهذا هو قول قاسم أمين ، إذن فالعادة هذه كانت قبل الاسلام ، ولم يخلقها الاسلام .

ثم ذكر أن الحجاب شيء تقرره حاجة قد تكون اجتماعية أو اقتصادية ، ومثل ذلك يقال في السفور . فنساء الطبقة الفقيرة سافرات بناء على حاجتهن واستناداً الى وضعهن ، فبائعة الخبز وبائعة اللبن والمرأة التي تشارك زوجها الفلاح في عمله ، نراها سافرة ، بينما تتحجب نساء الطبقة المتوسطة والعليا . فكل واحدة منهن قد اعتادت ما هي عليه وصار بالنسبة لها أمراً طبيعياً ، غير أنها لو انتقلت من المستوى الذي هي فيه الى مستوى آخر لصار لزاماً عليها أن تتطبع بطابع البيئة التي آلت إليها . إي إنها ستسفر إن كانت من طبقة عالية واضطرت الى العمل فلاحةً أو بائعة .

أما أن دعاة الحجاب يرون أن الفساد منشؤه السفور ، فهذا هو البهتان والكفر . ويرى أخيراً أن سنة التطور تحتم علينا قبول مبدأ السفور وتعليم الفتاة مع الرجل جنباً الى جنب .

والطريف في القضية أن نشهد في هذه الحملة أقلاماً فتية ، وآراءاً نيرة تحت قناع أسماء نسوية .

ففتاة غسان (الدكتور سامي شوكت) ترد على الفكيكي والمنزوي بأسلوب

تشيع فيه القسوة والمرارة ويغلب عليه طابع الحق والوجدان :

« إنكم تريدون أن تبقى المرأة على حالها ، متذرعين بالدين والعادات ، ولكنكم في الوقت الذي تفعلون هذا مع المرأة باسم الدين والعادات ، تجيزون لأنفسكم الزنى والميسر وشرب الخمر دون أن تخشوا في ذلك ديناً أو عرفاً . ثم إنكم ترون المرأة القروية والبدوية سافرة تشارك الرجل فى كل شيء فلا يضيركم ذلك ، ولكن المرأة التي تسكن المدينة لن تستطيع أن تفعل ذلك ، فان فعلته فقد خرقت حجاب الشرف وتحدت الأخلاق وتطاولت على الدين » .

ثم قالت : « إني لا أفهم كيف فسر خصوم السفور الدعوة إليه بأنها تعني سيطرة المرأة على الرجل . إني أدعو لمساواة المرأة بالرجل وفسح المجال أمامها لتتعلم وتثقف ، ولا أدعو الى أن نطلق للمرأة الحرية في أن تفعل ما تشاء » .

وترد عليها بنت الحجاب بمقال عنوانه (الصرخة من وراء الحجاب) فتقرر بعجالة :

« أن السفور عادة غربية تخالف عاداتنا ومعتقداتنا الدينية والاجتماعية وتطاول على الدين والحدود الشرعية والأحاديث النبوية » .

وينبري أحد الاقلام تحت اسم « فائزة » مؤيداً الحجاب :

« إني فتاة محجبة ومتعلمة ، وقد درست الشيء الكثير عن الاجتماع ، ومع ذلك فأنا أود لو أتيح لي مضاعفة الحجاب ..!! كما أني لم أندفع وراء دعوة السفوريين .. أتريدون أن نسفر وواحدتنا لا تمشي في الشارع إلا ووراءها الكثير من الشبان يزاحمونها بالاكتاف ويضايقونها بمختلف الوسائل ؟ فان كنتم تريدون هدم هذه الاسوار التي حمت أعراضكم ، فلا تفعلوا هذا قبل أن تبنوا أسواراً أحكم منها وأقوى » .

ونعى الاستاذ عوني بكر صدقي على دعاة الحجاب أنهم يريدون تعليم المرأة ،

ولا يرون مانعاً في عملها طبيبة أو مهندسة ، ومع ذلك يشاؤون لها البقاء محجبة ..! وهل يلتقي الحجاب مع هذه الاعمال ؟!

ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الاحتكام في الآراء حول هذه القضية الاجتماعية ، كما قلت ، الى إثارة مسائل أخرى تمس المرأة ، كالطلاق والزواج وأحكام الدين فيهما . ولكن مهما يقل في هذه المشادة الفكرية ، فانها خدمت المرأة ، ونبهت الكثيرين الى ما لها من مطالب وحقوق .

وفي هذا المقام أيضاً تحضرني حادثة لها مغزىً بعيد .

لقد أثارت الحالة التعسة للمرأة العراقية متأدباً من الشباب فى سنة ١٩٢٦ ، هو الاستاذ بسيم الذويب ، فنظم مقطوعة بعنوان (ارفعيه) نشرتها جريدة « الصحيفة » التي كان يصدرها الاستاذ حسين الرحال ، وفيها :

ارفعيه
مزقيه
واطرحيه
بين أحجار القبور
وانهضي سافرة الوجه وغني
هكذا كان السفور .

ليس عاراً
أو شناراً
أن يجارى
سير تيار الدهور
فارفعي البرقع عنك واطرحيه
تحت نيران القدور .

بل دعيه
غسـليه
وادفنيـه
بين طيات التراب
ثم لا تبكي وقولي بارتياح :
هكذا مات الحجـاب .

إن سئلت :
من دفنت ؟
فأجبت :
إنه نعش النقاب
سيقولون : عليه رحمة الله فصلي
واقرئي أم الكتاب .

ظلموك
سجنوك
زوجوك
شر زوج فى الوجود
قائلاً زوجي : لا تخرج إلا
يوم تدعوها اللحود .

قد كفانا
يا نسانا

ما لقينا
من خمول وجمود
فلندع كل قديم ، لا نقلد
اننا لسنا (قرود) .

*

وأترك للأستاذ بسيم الذي نظم هذه القصيدة ، وهو في السنة الثانية من الكلية العسكرية الملكية ، يقصّ ملابساتها لطرافتها الموضوعية . قال :

ـــ لقد أحدثت هـــذه القصيدة ضجة كبيرة كان من أثرها أن هاجمني في ساحات التدريب أحد الضباط الموكلين بتدريبنا بشدة ووجه عليّ كلمات قاسية بحضور طلاب الكلية ، فكتمت غيظي ، وأشفقت على نفسي من نتيجة غضبه ، خاصة وأنا أعرف ما ينطوي على تهديده من قضاء على مستقبلي ، وتركت المدرسة بعـــد ظهر الخميس وذهبت الى داري خائفاً أتوجس ، فوجدت والدي رحمه الله قد استشاط غضباً ، وكاد يضربني ، وطردني من الدار ، فذهبت الى بيت خالتي يائساً حزيناً .

وكنا في شهر رمضان المبارك على ما ذكر ، لأن صحن أحد المساجد كان غاصاً بالمصلين بعد صلاة العصر يستمعون الى الامام ، وقد جلس للوعظ الديني كما جرت العـادة ، وجاءني أحـد زملائي في المدرسة وهو يرتجف فزعاً ، وأنهى إلي خبر (الواعظ) بأنه صرح بحضور المصلين أني أستحق القتل شرعاً ، لأني أروج إشاعة الفاحشة بين الناس ، بحثي ربات الخـدور على ترك خدرهن ورمي البرقع ، وأنه « أي الشيخ » يأسف على أن يصدر هـذه الفتوى الصارمة بحق شـاب أبوه رجل فاضل عرف بورعه وتقواه .. واختتم زميـلي قوله حاثاً إياي على الهـرب بجلدي والاختفاء عن الأنظار ، لأنه سمع همهمة المستمعين وتهديدهم .

وقضيت في الكلية بضعة أسابيع لا أبرحها أيام الجمع ، ولكني بعثت للصحف بقصيدة أخرى مطلعها :

بكت لدخولها باب الحيـــاة فهل شعـــرت بذل الآنسات

وهل علمت بما هي سوف تلقى من السجن المؤبد في الحيـاة

وقد استوحيت هذه القصيدة من صراخ طفلة حديثة الولادة .

واجتمع جماعة من المعممين بوالدي الذي كان يلقي دروساً في الفقه واللغة في أحد مساجد الكرخ ببغـداد ، وحدثت مشادة بينهم وبين شاب كان يدرس العلم ، ولكنه من « أحرار الفكر » يكن لي حباً واحتراماً ، خرج على أثرهـا والدي من المسجد متوكئاً على عصاه ، وهو يئن من الألم بسبب العار الذي جلبه عليه ولده ، وأصابته نوبة من الحمى قضى خلالها يومين وهو طريح الفراش .

وذهبت اليه أسترضيه وأعتذر له وأنكر نظمي القصيدة المذكورة ، وكان رجلاً طيب القلب ، فما أسرع ما ضرب على كتفي قائلاً :

« هداك الله يا ولدي . . لقد كدت أن تجعلني في موقف الشيخ أحمد الداود ، هذا الرجل المحترم ، الذي ركبه الشيطان أخيراً ، فأركب ابنته صبيحة على الجمل بحضور الرجال .. أعوذ بالله .. » .

فقلت له « وما في ذلك يا والدي . ألم تكن نساء العرب يحضرن المجتمعات ويشاركن في المؤتمرات ؟! »

فقال غاضباً :

ـــ لقد عدت الى غيك يا هذا ، فاخرج فلست ولدي بعد اليوم .

وعدت أعلن له التوبة جديداً .

ونشرت لي جريدة « الاستقلال » في اليوم التالي لذلك قصيدة (وعظ وزهد) مطلعهـا :

يا قوم ساعتكم دنت ومن الظهور تقربت

فاذا النجوم تكـدرت واذا الشموس تكورت

وختامها :

فالى إطاعة ربهـــا أدعو نفوساً أجرمت

ولست أبعد عن الصواب إن قلت إن بنات أولئك المعممين الذين كانوا يثيرون والدي بمشاغباتهم ، ويصدرون الفتاوى بهدر دمي ، أقول إن أولئك الفتيات يمشين اليوم في الأسواق ويقطعن الشوارع ويحضرن الحفلات الراقصة ! وهن سافرات وقد تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

✣

ولسائل ان يتساءل الآن :

— متى بدأ السفور في العراق على الشكل الذي نراه اليوم ؟ ومن هي أول عراقية عربية مزقت الحجاب ؟

والذي أعلمه أن إعلان السفور وقع لأول مرة بعد ثلاث عشرة سنة من تأسيس الحكم الوطني ، ففي سنة ١٩٣٣ دخلت السيدة ماجدة الحيدري عقيلة معالي السيد رؤوف الجادرجي الى المستشفى لاجراء عملية للمصير الأعور (الزائدة الدودية) ومرت بساعات حرجة ملأت نفسها الضراعات الى الله أن يمن عليها بالشفاء ، ونذرت أن تسفر اذا نجحت العملية . وكان الله رؤوفاً بها ، فخرجت من المستشفى معافاة بعد أيام ، وقررت أن تفي بنذرها لله . وكانت أول مسلمة من كريمات الاسر في المدن تعلن السفور !

ولم تمر بضع سنوات حتى كان السفور يتسلل بصورة طبيعية ، تمشياً مع النهضة النسوية القائمة على الاستعداد والتدرج ، وليس على الارتجال والاستعجال . وليت شعري ماذا تقول بعض أسرنا التي كانت حرباً على السفور ، وهي تشهد اليوم آخر فلول الحجاب ؟

ومما يستوقف النظر أن السفور لم يقتصر على بغداد وحدها ، بل تجاوز ذلك

الى المدن الاخرى وفتح الباب على مصراعيه لتدخل المرأة الى ميـــدان الحياة الاجتماعيـة ممثلة في التعليم أو الجمعيـات النسوية . ومر السفور في بعض الالوية بتجربة قاسية ، فقد عمد الرجوعيون الى إلقاء (السوائل المحرقة) على (السافرات) في الوقت الذي استخدم فيه السلاح ضد دعاته في بغداد .

وقد أخبرني أديب أثق بروايته أن أحد أقربائه من المتعصبين جداً كان يحرم على ابنته مغادرة البيت الى الجيران إلا وهي ملفعة بعباءتين .. ولكن هـــذا الرجل الذي كان يعامل ابنته تلك المعاملة زار بغـداد قبل بضعة شهور ليتوسط في إدخال ابنته نفسها الى إحدى الكليات المختلطة ، وهي سـافرة . ولم يسكت الاديب على ما لاحظه من البون في الحالتين فقال :

ـــ أهكذا يا عم تتطور الأمور ..؟!

فهز الشيخ رأسه ضاحكاً وقال :

ـــ ذاك زمان . . وهذا زمان !

هـــذه لمحة خاطفة عن معركة المرأة مع الحجاب تصور بعض ما شقيت من أجله وما عانته من المشاق في سبيل تحررها .. وقد أرادوا هم شيئاً ، وأرادت هي شيئاً ، فانتصرت ارادتها القوية وتكللت مساعيها بالظفر والنجاح .

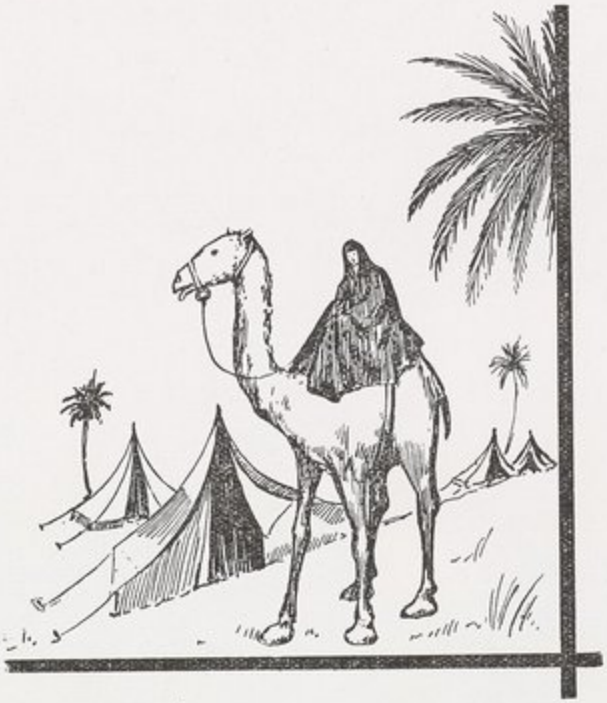

فضيحة سوق عكاظ

كثيراً ما سئلت في مناسبات مختلفة عن أمر (سوق عكاظ) المهرجان الذي أقيم في بغداد ، وعن الصبية التي خطبت من فوق ناقة بحضور الملك فيصل ، وأمام حشد كبير من العراقيين ، وصلة تلك المناسبة باصطراع التيارات القائمة يومذاك بين العناصر الواعية ، والفئات الرجوعية ؟ وفي الواقع أن (الفضيحة) لم تكن أقل الصفات التي أسبغت على مشاركة صبية في مهرجان أدبي ضخم . . فضيحة كادت أن تتمخض عنها ازمة وزارية .. وأن تدفع العصبية الجاهلية الى إعلان ما يقارب الحرمان أو الجحود والكفران .. فضيحة ثار لها رئيس الوزراء ، ولم ينم ليلته . قام كثيرون ولم يقعدوا ، أطلقوا ألسنتهم الحادة بلا حساب ، ولم يقفوا عند وازع ، أو يقتصدوا في سباب .

ونحن اذا تتبعنا عوامل إقامة المهرجان ، نراها ترجع في أصولها الى المعهد العلمي الذي ساهم بانشائه المرحوم ثابت عبدالنور وفريق من قادة الرأي والشباب المعروفين بنزوعهم الوطني ، وقد اختط المعهد لنفسه خطوات حازمة وسديدة في التوجيه القومي ، تنهض على إنشاء المدارس ، ودفع الأجيال الطالعة الى أفق من المعرفة جديد يرتقي بالأمة الى مراتب غيرها من الأمم في العلم والسلطان . ولم يجد المعهد أمام الركود الذي قوبل به إلا أن يبشر بالدعوة لأهدافه ، وحض الناس على التعلم ، ولذلك نظم مجموعة من اللافتات تحمل عبارات منمقة كانت تكتب وتوضع في أفواه الأزقة ، ويطاف بها في الشوارع والأحياء البغدادية ، تهدف بمجموعها الى استفزاز عقل كل مسلم ومسلمة الى الاستباق نحو الغرض الأسمى . . غرض العلم والمعرفة .

على ان دعوة المعهد العلمي الى «العلم» لم تقف عند مقاعد الدراسة ، ولم تقصر جهدها على نطاق المدرسة المحدود ، وإنما اتجهت الى هدف آخر يحرك نوازع الأمة ، يحيي سالفها ويلهب طموحها ، ويجدد في أبنائها روح الاندفاع ، ويربي فيهم ملكة الخلق والابداع .

هدف استقر بعد لأي على الدعوة الى مهرجان أدبي باسم « سوق عكاظ » يتلاحم فيه الشعر والنثر ويلتقي في صعيده فرسان الكلام ، وقادة الرأي . . ويجدد في مغازيه ذلك اللون الرائق في حياة العرب القدامى من التماع الأفكار ، وأفانين الاتجاهات وطرائف الآراء .

وأفلح هذا المهرجان أيما فلاح عند ما وافق الملك فيصل الأول على أن يرعاه ويقدم الجوائز بيده للمتبارين بحضور أعيان البلاد ، ووفود الأقاليم .

لقد تقدمت سوق عكاظ حملة استغرقت عدة شهور ، عقدت خلالها عشرات المقالات في الصحف ، ودعي كبار الشعراء والأدباء الى المشاركة فيه ، بحيث انتظم له في الأخير منهاج كان من المقرر أن يقوم أحد الشباب بتمثيل دور قس بن ساعدة بينما أقوم بتمثيل دور الخنساء ، وأتلو إحدى قصائدها . ووقع الاختيار علي لفواقي فى المدرسة ، وما كنت أصيبه من حظوظ النجاح فى اللغة العربية على وجه الخصوص . وما كان هذا الاختيار علي وأنا يومذاك فى الثامنة من عمري ليدخل الروع فى نفسي ، أو يضعف من شدتي . . كان تشجيع والدتي وتأييد والدي يشحذان همتي ويدفعان بي فى ثقة واعتداد الى القيام بالدور الذي أوكل إلي فى مهرجان عكاظ ، وهو يلهب المطامح القومية ، ويثير النوازع الى الأمجاد السالفة ، والمآثر الباقية .

وبينما أنا منصرفة الى ذلك ، يحف بي التشجيع والتدليل من كل مكان ، إذا بشيء جديد يريد أن يسد الطريق فى وجه تلك الفكرة .. قام الرجوعيون والمرجفون

صبيحة الشيخ داود في سوق عكاظ

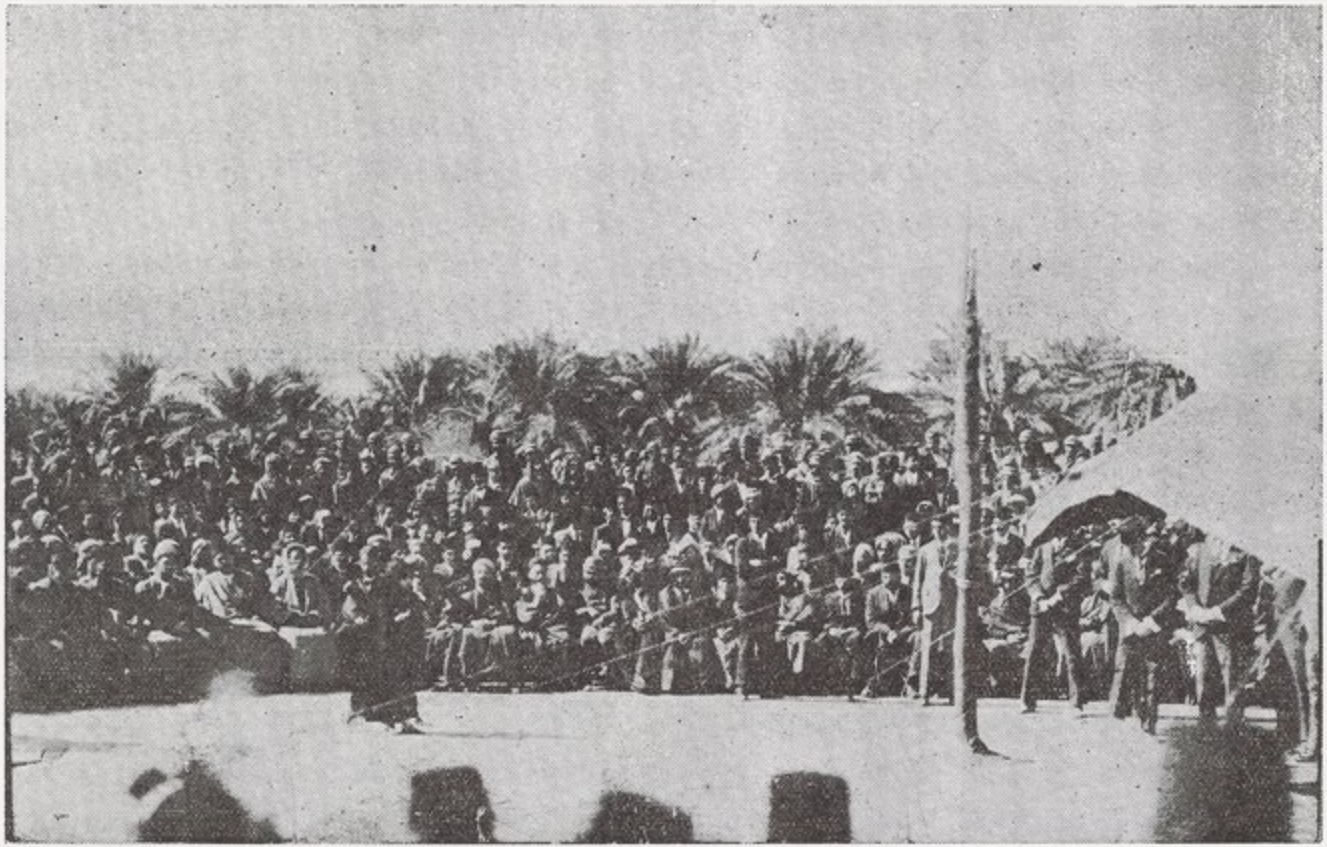

بمحاولة يائسة نشروا فيها أن امرأة ستخطب سافرة يوم المهرجان . وكانت الحملة جائرة وقاسية ، سلقت أسرتنا بالاتهامات اللاذعة ، ونسبت إلينا كل فرية ، وألصقت بنا كل أفك . .

إن قرار عائلتنا بمشاركتي فى سوق عكاظ انتقل كالنار في الهشيم ، ووجد أرضاً خصبة ينمي فيها السخط والنقد بين أغلبية ترى في خروجي باللباس العربي القديم في حفل ضخم من الرجال تجرؤاً في الخروج على التقاليد لا يقره العـــرف ولا الحدود التي استنها المجتمع ..! وقد يجوز التغاضي عنه لو لم يصـدر عن آل الشيخ داود المحدث الأكبر ومن كبار رجال الدين ، وأصحـاب الطرق الذين يتابعهم الكثير من التلامذة والانصار .

وكاد قرار والدي يومذاك يحدث أزمة وزارية . . فقـد تبرم السياسي الوديع عبدالرحمن النقيب رئيس الوزراء بحكم نشأته الدينية وزعامته الروحية والسياسية وأعلنها ثورة صاخبة عند ما علم أن حفيدة الشيخ داود أستاذه في الحديث والاصول ستخرج سافرة في حفل من الرجال ، وعظم عليه أن يسكت على قيام فتاة مهما كانت صفتها بذلك المظهر الذي لا يأتلف مع التقاليد الدينية والعرف الاجتماعي !!

ويخطر ببالي أن أسرتنا فوجئت في ليلة ٢٣ شباط ١٩٢٢ السابقة ليوم المهرجان بأمر غير منتظر . . ومع أنه كان من المألوف لنا أن نجـــد كثيراً من المعاكسات والمنغصات السياسية ، وعلى الرغم من أننا اعتدنا ـدّهم رجال الأمن لدارنا ، بحثاً عن بينة تدين بها المرحوم والدي لأسباب سياسية ، فقد كانت زيارة وزير الداخلية المرحوم الحاج محمود رمزي على رأس ثلة من رجال الشرط مقلقاً لنا أكثر من أية حملة شهدناها في تلك الأيام .

وكان الوزير مضطرباً ، فلم يتريث في ايضاح هدفه ، وبادر الى مخاطبة والدي بصوت يشوبه التأثر العميق :

ـــ إسمع يا شيخ ، ان سماحة الأفندي متأثر للغاية ، وانه لم ينم ليلته ، وقد بكى عند ما علم بأن ابنتك «صبيحة» ستظهر في المهرجان سافرة وتخطب على جمل !

وكان المقصود بسماحة الأفندي ، المرحوم السيد عبدالرحمن النقيب . فأجاب والدي في دهش بالغ :

ـــ هل أفهم من هـــذا أن سماحة الأفندي يريد أن يحول بين ابنتي وبين مشاركتها في المهرجان ؟

فهز المرحوم الحاج رمزي رأسه هزة الايجاب وقال :

ـــ إن سماحته يرجو أن تتدخل في الأمر لتمنع ابنتك من القيام بهذه المخاطرة . وأظنكم تشاركونني الرأي بأن نتائج ظهورها في المهرجان لن تكون طيبة . ويرجو أيضاً أن لا يحمل على استخدام القوة والضغط ... هل هذا واضح !..

واتفق أن دخلت لرؤية أبي في تلك اللحظة ، وأنا يومذاك صبية نحيلة مترددة ، وبان الاستغراب في عيني الوزير بوضوح عند ما قدمني والدي اليه وقال :

ـــ هل رأيت صبيحة ! هذه هي الفتاة التي ستظهر سافرة . أيكون خروج صبية في مهرجان يشرفه الملك مخاطرة . . ذات نتائج وخيمة ؟! أرجو أن تبلغوا سماحة الأفندي أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ، ولكن ابنتي ستخطب غداً .

وجاء الغد ، وأقيم مهرجان سوق عكاظ[1] في الكرخ على الساحة التي يشاد

---

(١) اختص فيلسوف الفريكة المرحوم امين الريحاني المعهد العلمي وسوق عكاظ بجانب مهم في الجزء الثاني من كتابه (ملوك العرب) وكتب المرحوم الأستاذ سليمان فيضي في (غمرة النضال) ان المهرجان اصاب نجاحاً كبيراً وحضره جلالة الملك فيصل ، واشتركت فيه كل المدارس الحكومية والاهلية ، وقامت الآنسة صبيحة الشيخ داود بدور الخنساء ، فاعتلت ظهر الناقة وأدت دورها خير أداء . وأنشأ المرحوم الأستاذ رفائيل بطي مقالة في البلاد (٢٩ تشرين ثان ١٩٥٥) قال فيها : « إنه إزاء التقدم الفكري والاجتماعي ، انهزم الجمود والتزمت . فعندما اقيم سوق عكاظ في أوائل عهد المملكة الجديدة اقترح على الشيخ أحمد الداود ، وقد كان من صدر شبابه واسع الأفق الذهني بين العلماء ، ان يسمح لكريمته « صبيحة » وكانت صبية في زهرة الطفولة ، ان تتكلم في عكاظ العصر فوافق ، فأركبوها نجيبة وخطبت ، فأعجب بها جميع شهود المهرجان لاجادتها برغم صغر سنها ولكن بعض الجامدين والمتزمتين تبرموا بهذا الموقف وأظهروا تبرمهم .. » ←

فيها اليوم المتحف العراقي الجديد ، وشهده ألوف من سكان بغداد والأقاليم ، عبرتُ صفوفهم وأنا أعتلي ناقة وأرتدي الملابس العربية الطويلة . . كانت الأعناق مشرئبة والحشد الضخم الكبير صامت يلتقط كل كلمة تنفوه بها (الخنساء) .

وأذكر أنني لما فرغت من خطبتي أخذني أحد المشرفين على المهرجان وأجلسني الى جانب الدكتور الشاعر محمد مهدي البصير ، وهو يومئذ من شعراء الثورة البارزين ، فلما رأى جلالة الملك الباني ذلك أمر يدعوني لمقابلته . وما زلت أذكر تلك الالتفاتة النبيلة ، وما خصني به من كلمات الاطراء والتشجيع التي ألقاها في مسمعي مشجعاً ومؤملاً . ثم قدم لي هدية تذكارية لا يبلوها الدهر ، ولا تقلل من روعتها السنوات الطويلة . كما إني لن أنسى هنا ما أفصح عنه الملك فيصل برعايته لهذه السوق الأدبية من روح رياضية عالية في الابانة عن عزم وطيد في رفعة الأمة وإرساء أسس النهضة . وظل واقفاً طوال الوقت والخطباء يتعاقبون وهو يسبغ عليهم حبه وبرّه ، ويشملهم بتشجيعه وكرمه ، ويمحضهم العزم والتوجيه السديد .

هذه هي سوق عكاظ .

وهذه هي قصة الطفلة التي خطبت في أول مهرجان أدبي في العراق .

وهذا هو بعض البداية . . بداية صغيرة كالنبتة اليانعة . فقد دوى في مهرجان كبير صوت المرأة ممثلاً في صبية فكبرت الكلمة .. وكبرت الفكرة .. وتقدمت المرأة تشق طريقها في كل مجال ، حتى لتبدو تلك القضية برمتها نكتة من نكات الزمن .. اليوم .

ومع ذلك ، فنحن في مستهل الطريق ، وفي أوله ، وأمامنا منه الكثير ، ولكن هذا لا يخيفنا ، فما زالت القافلة سائرة ، وستظل سائرة طويلاً الى الأمام . . وطويلاً إن شاء الله .

وعقب على الكلمة الأخيرة الأستاذ محمد مهدي مقلد « لولا هذه الحركة التي شجع عليها الشيخ لبقيت المرأة العراقية المسلمة مشلولة الحركة ولبقي الجمود والجهل ضاربين في عرض العراق وطوله . إذن فلهذه الرائدة الأولى يرجع هذا الفضل في نهضتنا الحاضرة » .

الملك فيصل
ينشئ مدرسة في بيته

.. دعا الملك فيصل الأول عام ١٩٢٤ وفداً من عضوات نادي النهضة النسوية لمقابلته في قصره بحضور قرينته الملكة حزيمة ، وتحدث إليهن حديثاً مستفيضاً جلا فيه إحاطة الاسلام بأحوال المرأة ، واعترافه بحقوقها ، وإقراره مباديء سمحة ضمنت لها مكانتها الاجتماعية ، واحترمت ملكاتها العقلية ، وذاتها الانسانية . وأشار الى التفسيرات والأحكام التي أقحمت خلال حقب طويلة فحرمت المرأة أبسط الحقوق وأغلقت عليها برتاج من الأحكام القاسية ، والاتهامات الباطلة .

وانتقل بعد ذلك انتقالاً سريعاً الى بشائر الحركة النسوية في العراق واغتباطه برسالة النادي ، في المضمارين الثقافي والاجتماعي ، واستئثارها بقسط غير قليل من اهتمامه وتشجيعه ، وجاهرهن بعزمه على إهداء دار يستقر عليها نشاط النادي ، ومنه تنبثق دعوته الى وجود المرأة الجديدة المقدرة لمسؤولياتها الوطنية والاجتماعية .

فيصل نصير المرأة

سقت هـــذه الحادثة لأقول إنها ببساطتها تنطوي على ملامح من تلك الصورة الرائعة التي حفظها تأريخ العراق الحديث لفيصل ، ملك الشط والفراتين .. والبطحاء ، صورة ترفع النقاب عن جانب أخاذ من حياة الملك المنشيء لم تدخله ، يا للأسف ، بعد أقلام الكتاب ، ولم تتعرض له تصانيف المؤرخين وكتبهم ، ذلك هو اهتمام فيصل بالمرأة ، وبالحركة التي ذرّ قرنها مع شفق الملك الجديد والصرح

العتيد . وتظهر للعيان بأن قراع السياسة ، وتجميع الجهود ، وحشد القوى في المعركة التي كان سينجلي عنها طلع النور فى العراق ، لم تحول اهتمام الملك لحظة عن الطاقة الضخمة المجمدة ، المستخذية وراء البراقع والحجب . بل لقد قرر الملك فيصل نفسه فى حديث صحفي أدلى به الى الماجور ددلي هيثكوت قبل أكثر من ربع قرن « إن العبرة فى رقي المرأة بالبيت ، وبالتربية والتعليم ... »

« . . واذا قست تقدم المرأة الشرقية بالنسبة لما أراه حولي من السير الى تحرير أنفسنا على أسس سامية كان لي أن أقول إن هذه المباديء سوف تنتصر وتفوز فى المستقبل ، وستكون المرأة حينئذ عاملاً نشيطاً فعالاً فى توجيه الشؤون . . واذا رأينا نساءنا يتخطين العقبات ، ويشاركن الرجل فى الجهاد للحياة الراقية ويعاونه على التقدم ، فيجب ألا ندهش ، لأن الحياة ، وبخاصة فى زماننا ، تستدعي هذا التعاون ، وتتطلب من الرجل والمرأة أن يعملا جنباً الى جنب لكل ما فيه سعادة الانسان وخير المجتمع . »

كان الملك فيصل النصير الأول لكفاح المرأة العراقية ، ينظر بعين الغيب الى ما يمكن أن يتمخض عنه إطلاق تلك الطاقة الحبيس ، لو أحسن تصريفها ، ومهد السبيل لظهورها ، وتوجيهها الوجهة الصالحة .

ولم يكن الملك فيصل ليجهل العقبة الكأداء التي تقف فى طريق مثل تلك المحاولات للانتقال بالمرأة وتحرير عقلها ، والأخذ بيدها ، ولكنه كذلك لم يترك لليأس سبيلاً على نفسه ، وكان يرى أن الزمن والعلم كفيلان بتذليل الصعاب وتحقيق الغايات والأهداف . وجعل الملك دعم ثقافة المرأة نصب عينيه . كان يتابع برغم انصرافه الى مشكلات الناس ، ومشاغل الدولة ، نشاط المدارس القليلة ، ويتقصى ما يحيط بها ، ويبذل جهده لتشجيعها . ودأب على القيام بزيارات قصيرة متفاوتة الزمن حرص فيها على تشجيع هذه المؤسسات ودفعها فى مضامير النجاح والتقدم.

مضافاً الى هـــذا ما كان يظهره من حدب على النهضة النسوية الناشئة بهدهدة ثورة المتزمتين ، ونقمة الرجوعيين الذين كان يستمع إليهم فى قصره بحلم وأناة ، ويحاول جهده تصريف غضبهم بالتوجيه والحسنى ليكسب عونهم ومؤازتهم .

سوق عكاظ

ولا نعـدو الحقيقة حين نقول إن الملك فيصلاً سبق عصره في فهم قضية المرأة وعكست مواقفه المتتابعة أبلغ الدلالة على صدق الفراسة وبعد النظر ، وسـلامة الحكم .

ومما تعيه الذاكرة ، تلك الأزمة التي نشأت عام ١٩٢٣ بسبب ما أثاره المرحوم السيد عبدالرحمن النقيب حول مشاركتي في سوق عكاظ الأدبي ، واستنكاره مشاركة صبية لتمثيل دور الخنساء ، وتطورت تلك المعـارضة حتى رفعت الى الملك فيصل ليقول كلمة الفصل في الموضوع ، فأعلن وقوفه بجانب مشاركتي في السوق المذكورة على النحو الذي رويته في فصل سابق .

وهـذا القرار الذي انتهى الملك فيصـل إليه انطوى على مغزى اجتماعي عظيم الأهمية ، هو في جملته أول طالعة لاحترام القوى التي تمثلها المرأة العراقية ، وكان ينصرها ويقف الى جانب تطورها برفق وهوادة ، ويعالجها بأناة وحكمة ، ويرسم لها السبل بأمن وسلام .

وأول ما يرقى إليه البصر في خصال (فيصل) الناصر للمرأة ، السليقة الصافية في تشجيع العلم ، وحث الفتاة العراقية على العبّ من مناهله ، حتى إنه خصص في إحـدى زياراته للمدرسـة المركزية للبنات (قلم حبر) الى الطالبة المتفوقة في الخط العربي .

وفي مرة أخرى أعلن تبرعه بهدية للفتاة التي تظفر بالأولية بين زميلاتها ! وأذكر أن جميع هذه الهدايا كانت من نصيبي . بل إن من مظاهر التشجيع الذي كان يبديه برغم انصرافه الى الأعباء التي تلقيها عليه واجبات الملكية ، وقيادة النهضة ، وحمل الرسالة ، حادث لا ينقضي الاعجاب به مهما طال الزمن ، وبعد العهد . ومؤداه أن جلالته لما علم بفواقي على المتخرجات من دار المعلمات الابتدائية عام ١٩٢٨ شاء أن يضرب المثل الطيب على حدبه وعطفه وتشجيعه ، فأهداني (بروشاً) من الألماس . ودعا والدتي الى مقابلته لتهنئتها بالنتائج التي حصلت عليها ، ورجاها أن تسمح لي بالسفر الى الولايات المتحدة لاكمال دراستي .

فرقة رياضية فى القصر

ولم يقصر الملك اهتمامه على العناية بتعليم المرأة ، والاكثار من فتح المدارس ، وتحفيز الهمم نحو الثقافة ، ولكنه اهتم بالحركة الرياضية ، وهي أول محاولة ـ فيما أعلم ـ تشهدها مدارس الاناث فى هذه البلاد ، فى أوائل الحكم الوطني .

كان جلالته يضع فى رأس مشروعاته المبدأ القائل إن العقل الكامل فى الجسم السليم . ولعلها المرة الأولى التي أزيحُ النقاب فيها عن موافقته على تشكيل فرقة رياضية برئاسة كريمته ، انضم إليها عدد غير قليل من الفتيات العراقيات ، وكن يقمن مباريات فى حدائق القصر يبدي فيها نفسه ضروب التشجيع لنجاحها .

ومدرس للتمريض

وقد طغت شعبية الملك وديمقراطيته على تكوين التعليم النسوي ، وبلورته .

وضرب أفضل الأمثال بأن وافق على فتح مدرسة لتعليم التمريض لكريماته وغيرهن من الفتيات العراقيات يومذاك .

ويخطر ببالي أنه عهد الى المرحومة الأستاذة أمة سعيد بتدريس كريماته وبذلك كن فى مقدمة اللواتي استفدن من فرص التعليم التي أتاحها الملك فيصل عن طريق اهتمامه بنشر الثقافة بين الأوساط النسوية .

صفوف لتعليم فتيات الاسرة المالكة

وقد جارى ، بقية أفراد الأسرة الهاشمية المالكة ، (الملك فيصل) فى حماسه لتعليم المرأة ، ففتح شقيقه المغفور له الملك علي بن الحسين صفاً لكريماته مماثلاً للصف الخاص الذي افتتح فى قصر الملك فيصل . وكانت المغفور لها الملكة عالية فى مقدمة الطالبات اللواتي أقبلن على التعلم والدراسة ، بحماسة ورغبة صادقتين .

أميرتان مع الشعب

ومن الحقائق الباهرة التي أرى الالماع إليها فى سرد هذه الذكريات أن الأميرتين بديعة والمرحومة جليلة كريمتي المغفور له الملك علي ، درستا فى المدرسة المركزية للبنات ، وكن يداومن كغيرهن من الطالبات ، ويشعن على جو الدراسة الروح الصافية التي يلتمع فى أفقها جلال الملك وجمال الاخلاص للعلم والاصغاء لنور العقل .

يضاف الى هـــذا موقفه من تشجيع دخول الطالبات الى المعاهد العالية ، كما وقع ، عند ما دخلت أول طالبة الى الكلية الطبية .

وقصارى القول . . أن الملك فيصلاً أول من رسم خطوط النهضة النسوية التي

نشهدها اليوم فى طول البلاد وعرضها ، على شكل مدارس ، أو بعثات علمية ، أو جمعيات أو على شكل عناصر تلتقي فوق صعيد العمل بذلك النجاح الدائب الذي برهن على صدق حدس الملك وبعد استنتاجاته . وستبقى النهضة النسوية فى هذه البلاد مدينةً وجودَها الى جهوده ، الى أبد الآبدين .

وإن الملك فيصلاً بمساندته المرأة ، إنما كان يدرك بضميره وإنسانيته حقوقاً وأدها الزمن البعيد فعمل على فك إسارها وإمدادها بأسباب الحياة والنور .

وقد حدد الملك فيصل رأيه فقال « إن التأخر الذي منيت به المرأة الشرقية فى الماضي هو الذي أفقدها صفتها وأنساها شخصيتها ، واذا عدنا الى التأريخ وجدنا أنانية الرجل وجهل المرأة هما اللذان هويا بهما الى هذا الانحطاط . ولا أريد أن أقارن بين ماضي المرأة الشرقية وحاضرها ، ولا أن أحكم على مستقبلها ، لأن ذلك رهن التطور الجديد الذي يشمل العالم كله ، والذي أرجو أن تصيب منه أوفر الخير وأكبر السعادة .

وهناك مسألة مهمة ، يعني بها الذين ينادون بتحرير المرأة ويسمونها « رقيها الاقتصادي » ، وهي جعلها قادرة على أن تعمل لنفسها ولجنسها ولبلادها ما يمكنها عمله ، وهذه المسألة في رأيي ، أهم ما يبتغي السعي له وتوجيه الأذهان إليه ، لأن مجرد الدعاية لحرية المرأة واقتداءها بالمرأة الغربية لا يحقق الغاية المنشودة من نهضة المرأة ، وأعتقد أن ذلك كله قد درسته بلادي وأولته أعظم العناية . .

أجل .. إن المرأة الآن كالشاب الذي خرج حديثاً الى العالم بعد أن قضى أعواماً طويلة فى السجن ، أو بين جدران المدارس وفصولها المقفلة ، فهي قد تتطرف فى آرائها وأعمالها ، كما يتطرف هذا الشاب ، وقد يصيبها التيه والغرور مثله ، ثم لا تلبث أن يستقيم أمرها ، وتستعيد صوابها ، وتصبح عضواً نافعاً ، بل عضواً مهماً فى الحياة الاجتماعية لا غنى عنه لكل مجتمع ينشد السعادة والرقي .. »

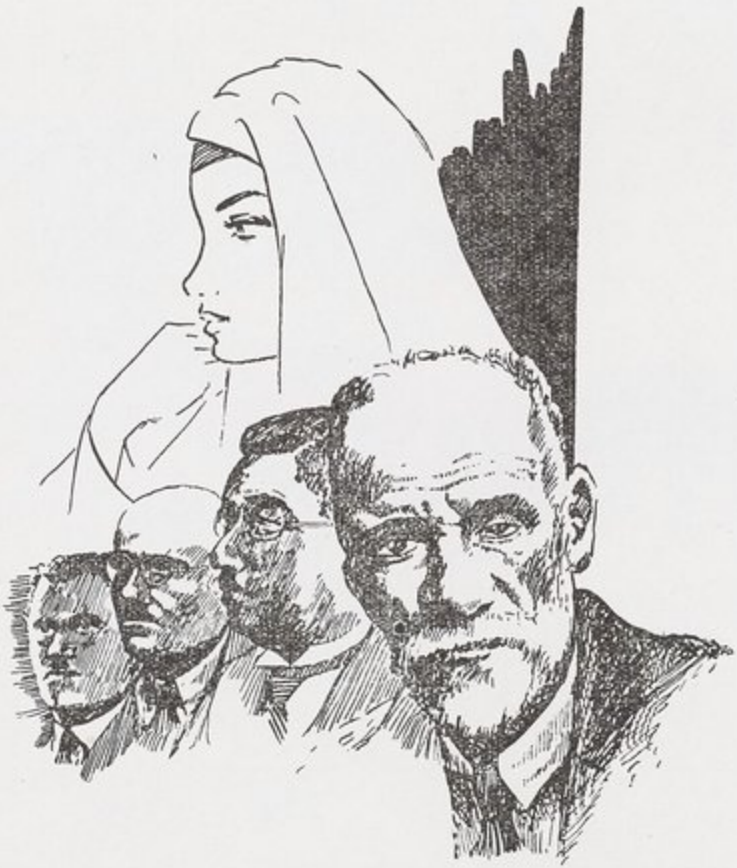

مفكرون انتصروا للمرأة

المجتهد النجفى الذى دعا ألى تعليم المرأة

من نافلة القول أن أذكر ان الحديث عن السفور ـ وهو وجه من وجوه التطور في قضية المرأة العراقية ـ يبدو عقيماً الآن ، لا إثارة فيه ولا جدوى بعد أن انتصرت إرادة المرأة ، وخرجت من بين رنين الأصفاد ، لمواجهة الحياة ، ومشاركة الرجل في جهده ونضاله من أجل حياة كريمة .

لكن السفور ، كما قلت ، كان يؤلف مشكلة قبل ربع قرن ، وكان تعليم المرأة هو الآخر يجري في خطى ضيقة تصدمه العقبات والمصاعب ، ويؤخر سيره بعض النظم والتقاليد .

وإذ كانت المرأة قد انتصرت في تلك المعركة ـــ معركة التحول الفكري والأخلاقي الصحيح ـــ فان من الانصاف ألا ننسى الكرماء من المفكرين الذين هزت أعماقهم مظلمة المرأة ، وأثارت شجونهم وضمائرهم المأساة التي كانت تتخبط فيها ، فوقفوا الى جانبها حراصاً على أن يضموا أصواتهم الى صوتها ، وأن يحشدوا أقلامهم ومواهبهم في ذلك الصراع العنيف ، للانتصاف لها بكل ما لديهم من الحجج والامكانيات . وهكذا شهد (أول الطريق) معركة ضارية في مضادّة التعصب والعبودية خاضها فريق من قادة الفكر ـــ شعراء ، وكتاب . . وخط تأريخ المرأة الجديدة في العراق بأحرف من نور صفحات مشرقة لأولئك المفكرين ، تنوه بما استقام لهم من حرية الضمير ، ورصانة الحجة ، وقوة الشكيمة ، وسلامة القصد والتصميم .

العلامة النائيني

وفي اعتقادي أن كفاح هؤلاء القادة المفكرين يتوّجه انتصار بارع ، وموقف فذ فريد لأحد كبار رجال الدين في تأييد تعليم المرأة وتأهيلها للثقافة والعرفان . . أزيح النقاب عنه في هذا المقام :

في أوائل هذا القرن ـــ القرن العشرين ـــ بدأت تصك الآذان نغمة جديدة لا عهـــد للناس بها من قبل . نقول تصك الآذان ، لأن الدعوة الى تعليم المرأة وتحريرها ، وإن كانت دعوة محدودة ، ولكنها كانت غير مألوفة ، وكانت غير مقبولة . والعجيب ان هذه النغمة ، نغمة وجوب التحرير المحدود والتعليم المفروض ، كانت صادرة من رجل روحاني ، له في عالم الروحانية والدين شأن لا بأس به يومذاك ، ثم كبر شأنه حتى كاد ينفرد بالمرجعية الدينية بين عشرات من كبار علماء الشيعة ، ذلك هو المرحوم الميرزا حسين النائيني المتوفي في العقد الرابع من قرننا هذا .

كان اسم الحرية العام في السنوات الأولى من هذا القرن قد بدأ يتردد على كثير من الأذهان ، وكانت المقدمات تشير الى أن ثورة ستشب في وجه الاستبداد في ايران ، وفي وجه الاستبداد في تركيا ، ومع ذلك فقد كان عدد الذين يتفهمون هذه الأمور كما ينبغي يومذاك محدوداً ، وكان من هذا العدد المحدود ، المرحوم النائيني المشار إليه ، فقد أصدر رسالة بالفارسية يومذاك فصل فيها أسباب تأخر المسلمين ، ودعا الى تغيير بعض القوانين وأساليب الحكم ، وخص المرأة في هـــذا القسم من الدعوة بصرخة لم يألفها المحيط ، وخاصة المحيط الديني في النجف وغير النجف ، فقد كان يرى أن الاســـلام لا يتسامح في إهمال القادرين من المسلمين على تعليم المرأة ، وعلى تحديدها تحديداً يخرج عن تعاليم الاسلام ، وان الاسلام كان يعني ما يقول حين قال : « العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وكانت هذه الرسالة على بساطتها وعلى بساطة دعوتها ، كالقنبلة المتفجرة ، بحيث

حملت الأكثرية على أن ينظروا لهذا العالم نظرة مشوبة بالتشكيك ، ولا سيما دعوته الى قلب نظام العرف في معاملة المرأة وتعليمها .

ويظهر أنه أدرك الورطة التي ورط بها نفسه ، أو أنه أدرك أن مثل هذه الآراء قد تبعده عن تبوء الزعامة الروحية الكبرى وتطوح به بعيداً عن المرجعية ، فلملم أطرافه بعد تلك الضجة ، خصوصاً حين فقد مؤازرة أستاذه الاكبر الملا كاظم الآخوند الذي قيل عنه انه كان يجهر في بحثه وبدون مبالاة في نشر هذه الأفكار ، أفكار الحرية العامة . وحرية المرأة المحدودة ، لا سيما في مقام عقد النكاح والزواج الذي أفاض فيه (الآخوند) في رسالته كثيراً ، وتحدى الذين ينتزعون موافقة الزوجة على زواجها ممن لا تحب ، إنتزاعاً قسرياً .

وكيفما كان الأمر ، فما كادت تمر على هذه الصرخة النائينية العامة عشرون سنة ، حتى كان النائيني قد خطا نحو الزعامة والمرجعية في النجف خطوة واسعة ، وكانت تصدر في النجف جريدة الفجر الصادق لصاحبها الأديب والقصصي المعروف الأستاذ جعفر الخليلي ، وذلك في أواخر العقد الثالث من هذا القرن ، وقد رأى صاحب هذه الجريدة أن يقوم بالتبشير والدعوة للنهضة النسوية ، فاعتمد رسالة النائيني وتصدى لترجمتها ونشرها ليسند حركته ، واتصل الخبر بالنائيني فاندفع بكل قواه لجمع تلك الرسالة المطبوعة ، حتى لقد اشترى النسخة الواحدة منها بليرتين عثمانيتين ليأمن شر خصومه اذا ما انتشرت هذه الرسالة واتخذت منها ذريعة لمهاجمته باعتباره من حملة أفكار التجدد التي تتنافى وشخصية الزعامة على حد عرف السوقة والرأي العام غير الناضج . ثم عمل المرحوم بكل ما استطاع على صرف صاحب جريدة الفجر الصادق عن رأيه واستحصال النسخة التي كان يمتلكها منه .

لقد كان حتى المفكرون في إصلاح شأن المرأة ، وحتى الذين يعتبرون النهضة النسوية ضمن الحدود المفروضة فرضاً دينياً ، لقد كانوا غير واجدين من الأسباب

التي تعينهم على إسماع أصواتهم الى النـاس ، فضـلاً عن إخراج أفكارهم الى حيز التنفيذ .

معروف الرصافى

ونحن اذا مضينا قليلاً في استقراء مواقف أولئك القادة المفكرين في انتصارهم للمرأة ، ووقفنا على ما كان يعتمل في جوانحهم من منابع الخلق الانساني ، ومصـادر الشعور الكريم ، نرى « معروف الرصافي » وهو يحارب المعوقات أمام تقدم وطنه ، ويناضل برجولة كل أسباب التأخر والخمول ، يؤمن بأن المستقبل الحر للشعب لن يتحقق دون مساهمة المرأة ، وانه لن تستقيم النهضة بغير تحرر المرأة من ربقة العقليات المتزمتة التي لا تروقها صفة من صفات التطور والكمال . وكان مهمٌ الرصافي الشاعر الانساني ، شاقاً وعسيراً ، ودوره قاسياً خطيراً ، ونضاله مراً عنيفاً . . لكن الرصافي لم يتراجع ، ولم يتخل عن موقفه في أشد الظروف حلوكة وظلمة .

وصلة (الرصافي) بتحرير المرأة تردّ الى أوائل هذا القرن ، وقد كان لقصائده التي ألقاها في الندوات العامة ، أو نشرها في صحف بغداد والعالم العربي ، أثر بعيد في تنبيه الأذهان الى ما أصاب المرأة من إجحاف ، وحقوقها من إنكار ، ووجودها من ظلم وامتهان . ولما جاء الحكم الوطني جاهر برأيه في مناسبات كثيرة أثارت عليه الرجوعيين وهددت بالخطر حياته نفسها . وقد حدثني أحد وزراء المعارف السابقين ممن واكب نهضة المرأة « ان المرحوم عبدالعزيز الوهب المحتسب إمام جامع الغنام سمع مرة قصيدة الرصافي فى الدعوة الى الانتصاف للمرأة ، فأخذته الحمية الدينية — على زعمه — وجمع جمعاً حاشـداً وذهب يبحث عن الرصـافي فى كل مكان للاعتداء عليه ، لوجه الله تعالى ، ومن حسن الحظ أنه لم يظفر به ولم يجده فى بيته ..

ومرت الأيام عليه وخمدت جذوة ثائرته ، ونجّى الله الرصافي من هراوته الضخمة..»

كما اننا لا نستطيع أن ننسى ما تعرض له الرصافي فى سبيل آرائه من نقد الناقدين ، وحملات المغرضين ، وسخرية الحاقدين . ونظرة واحدة نلقيها على ديوان هذا الرجل الحر العظيم تمكننا من أن نلمس ما فيها من حرارة كانت تدفع هذا الشاعر الكريم للذود عن حرية المرأة ، ودفع الظلم عنها ، وإعطائها المكانة الجديرة بها .

طالب الرصافي للمرأة بالسفور مطالبة ملحة عنيفة ، وهاجم تلك التقاليد التي حالت بينها وبين أدنى حقوقها الانسانية في اختيار شريك حياتها ، وطالب بالعدالة الاجتماعية .. وتحدث عن الأم والزوجة ، ودعا الى فتح أبواب المدارس أمام الفتاة لتكون فيها الى جانب الرجل :

لقد غمطوا حق النساء فشددوا ... عليهن في حبس وطول ثواء
وما ألزموهن الحجاب وأنكروا ... عليهن إلا خرجة بغطاء
أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم ... يغارون من نور به وهواء
قد انتبذوا عنهن في العيش جانباً ... فما هنّ في أمر من الخلطاء
وقد زعموا أن ليس يصلحن في الدنا ... لغير قرار في البيوت وباء
فما هن إلا متعة من متاعهم ... وإن صنّ عن بيع لهم وشراء

وتهز مظلمة المرأة قلبه فيشجي لها بقوله :

ما أهون الأنثى على ذُكرانها ... فلقد شجاني ذلها وخضوعها
ضعفت فحجتها البكاء لخصمها ... وسلاحها عند الدفاع دموعها
هي متعة المستمتعين وليتها ... كانت لزاماً لا يجوز مبيعها
فوليها عند الدفاع يبيعها ... وحليلها عند الطلاق يضيعها
وكلاهما متحكم في أمرها ... هذا يعريها وذاك يجيعها

وقوله في موقف آخر :

لم أر بين الناس ذا مَظلمهْ أحق بالرحمة من مسلمه
منقوصة حتى بميراثها محجوبة حتى عن المكرمه

ويتصدى فى قصيدته « التربية والأمهات » الى مقارعة خصوم المرأة بلا هوادة ويسفه أحلامهم بقوة :

أأمّ المؤمنين إليك نشكو مصيبتنا بجهل المؤمنات
وقالوا : شرعة الاسلام تقضي بتفضيل (اللذين) على (اللواتي)
وقالوا : إن معنى العلم شيء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا : الجاهلات أعف نفساً عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا على الاسلام كذباً تزول الشم منه مزلزلات

ويدعو الي تهذيب الرجال :

وتهذيب الرجال أجل شرط لجعل نسائهم متهذبات
وما ضر العفيفة كشف وجه بدا بين الأعفاء الأباة

وفي قصيدته الى صاحبة « مجلة الخدر » تتألق تلك المشاركة لألم المرأة كشواظ من نار :

وأكبر ما أشكو من القوم أنهم يعدُّون تشديد الحجاب من الشرع
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشها وإسكاتها فوق الغصون عن السجع

***

بكيت بلا دمع ومن كان حزنه شديداً بكى من غير صوت ولا دمع

ويحتكم الى العقل في رده على خصوم المرأة :

يقولون لي : إن النساء نواقص ويدلون فيما هم يقولون بالسمع
فأنكرت ما قالوه والعقل شاهدي وما أنا في إنكار ذلك بالبدع

إذا النخلة العيطاء أصبح طلعها ضعيفاً فليس اللوم عندي على الطلع
ولكن على الجذع الذي هو نابت بمنبت سوء فالنقيصة في الجذع

ومشكلة الزواج أيضاً تجد لها صدى في نفسه الشاعرة :

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا

ويمعن الرصافي في رسم صورة أخاذة للزواج السعيد القائم على الحب ، والتفاهم :

إن الزواج محبة فاذا جرى بسوى المحبة كان شيئاً متعبا
وإذا الزواج جرى بغير تعارف وتحبب فالخير أن نتهيبا

وينعي على الشرقيين فيقول :

ولقومنا في الشرق حال كلما زدت افتكاراً فيه زدت تعجبا
تركوا النساء بحالة يرثى لها وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
قل للألى ضربوا الحجاب على النسا أفتعلمون بما جرى تحت العبا

الى غير ذلك من اللوحات الفنية ، قد خضبت ألوانها الدماء والدموع ، ورنقت أطرافها الشؤون والشجون ، ونسجت لحمتها الشاعرية المتوقدة والعبقرية الفذة .

و « نسائيات » فى ديوان الرصافي من أهم عناصر كفاح الشاعر لمجتمع يستوى أفراده فى الحقوق ، ولا يقوم لجنس على آخر سلطان . . إلا سلطان الحب والتفاهم العقلي والروحي .

جميل صدقى الزهاوى

ولم يكن المرحوم الأستاذ جميل صدقي الزهاوي ، وهو شاعر الفكر والحرية ، أقل حماسة ، ولا اندفاعاً فى المطالبة بحقوق المرأة والدفاع عنها ، من صنوه الرصافي .

ونحن نستطيع أن نلمح من خلال جهاده المضني ، وشاعريته الفياضة ، صدى تلك الجولات الصادقة ، والحملات المنكرة العاصفة ، التي كان يشنها على من يقف فى طريق المرأة وحريتها . فلا غرو أن تعرض بسبب تصريحه وجهره بآرائه تلك لكثير من العنت والارهاق ، والتجريح والتشنيع ، حتى أنكر المتحاملون عليه شاعريته وغمطوا مواهبه ، وأغلظوا فى الافتراء والتضليل ... وفي النهاية انتصرت الحقيقة التي دعا لها ، وشهد الزهاوي فى أخريات أيامه ثمرة نضاله المرير تؤتي قطوفها وتبلغ غايتها .

وأذكر أني ألقيت خطبة باسم المرأة العراقية فى الحفلة الكبرى التي أقيمت فى مارت سنة ١٩٣٧ لتأبينه فى سينما الملك غازي ، عبرت فيها عما طوّق به الزهاوي عنق المرأة العراقية من جميل :

« قالوا مات الزهاوي . وقالوا : إننا نحتفل باحياء ذكراه . وأنا أقول : إننا نحتفل بالحياة التي بعثها الزهاوي فى جيله . ونردد نغمة المجد والعظمة التي طالما ضرب على وترها فيلسوفنا الكبير . .

إي نصير المرأة العربية ، والمنافح عن حقوقها فى صبح هذه النهضة المباركة : إن الشعاع الذي أرسله دماغك الجبار قد ملأ دنيا العرب ضوء ولألاء ، فتفتحت عيون قومك ، واستجابوا دعوتك الصارخة ، فلم يبقوا نصف شعبهم جاهلاً مشلولاً .. بل فتحوا له أبواب العلم والحياة ... »

ودعوة الزهاوي الى تحرير المرأة المسلمة ، والانتصاف لها ، والمناداة بتعليمها ترتقى الى عام ١٩١٠ . وكان الزهاوي قد سئم الاقامة فى عاصمة العثمانيين ، فقفل راجعاً الى وطنه ، وعين مدرساً للمجلة فى كلية الحقوق ببغداد . ونشر آنذاك مقالة فى جريدة « المؤيد » المصرية بعددها ذي الرقم ٦١٣٨ تحت عنوان « المرأة والدفاع عنها » ، تحدث فيها عن حالة المرأة الشرقية وتناول حياتها الزوجية والمنزلية ، وأثار

بعض القضايا الدينية ، هاج لها علماء الدين ، وعلى رأسهم الشيخ سعيد النقشبندي وأبناء الشعب ، وسار مظاهرات صاخبة حملت ناظم باشا والي بغداد على إقالته ، وبقى كذلك حتى جاء جمال باشا الى العراق ، فعاد وعينه مدرساً للمجلة فى مدرسة الحقوق(١) .

ومقال الزهاوي فى المؤيد ، يلتقي فى روحه مع أغراض قصائده حول حقوق المرأة ، ولا شك فى أن الزهاوي نجح فى إثارة الاهتمام بقضية العراقية ، ولا سيما عند ما شارك فريق من حملة الأقلام فى العالم العربي بالدفاع عنه .

والزهاوي كالرصافي يسمو شعره وهو يعالج مشاكل المرأة العراقية ويدعو الى تحريرها ، ويأخذ على الشرقيين ضلال المنهج وظلمة الطريق :

الناس في الشرق ضلوا ... سبيلهم وأضلوا
ظن النساءَ رجال ... صنفاً أذاه يحل
وأنهنّ كحيوان ... ليس يهديه عقل

ويعيب الحجاب أيضاً ، ويرجعه الى العادات ، لا الى الدين ، والى الأحكام الجائرة ، لا الى الموازين الصحيحة العادلة :

منعوهن أن يرين ضياء ... فتعودن عيشة الظلمات
دفنوهن قبل موت صريح ... في قبور سود من الحجرات
إن هذا الحجاب في كل أرض ... ضرر للفتيان والفتيات
لم يكن وضعه من الدين شيئاً ... إنما قد أتى من العادات
وفتاة كزهرة الروض حسناً ... زهرت وهي في ربيع الحياة

... ولا يخلو شعره من معالجات عديدة لمشكلة الزواج ، وفساد التقاليد ، وإرغام المرأة على الخضوع لعنعنات مفتعلة فهو يقول :

---

(١) مجلة النشء الجديد (١٩٢٩) وذكرى الزهاوي (١٩٣٧) .

مهما به احتفلت بعد الزواج تلقى سوى ذي غرور غير محتفل
تراه زوجاً على إرغامه بطلاً وفي سوى ذاك ليس الزوج بالبطل
قامت بخدمته جهد استطاعتها تريد منـــه لها ميلاً فلم يمل

ويجأر الزهاوي عن عقيدة ، فيندفع بحمية الشباب ، وروح القاضي العادل الى إصدار حكمه فى موقف الشعوب الشرقية من المرأة فيقول :

على الشـعوب بمرقى نسائهـــا يســـتدل
لهن في الغرب عـز جم وفي الشرق ذل

ولا يرى أي فرق فى المؤهلات والكفاءات العقلية بين الجنسين ، ويرى فى المرأة رمز التقدم والعمران :

إنمـا المرأة والمرء سواء في الجـــداره
علمـوا المرأة فالمـر أة عنوان الحضـاره

وتحفل دواوين الزهاوي والصحف السيارة يومذاك ، بألوان كثيرة زاخرة من شعره في الدفاع عن المرأة ، ورد غائلة الظلم عنها ، وإلهاب الرجعية والرجوعيين بأشعار كانت كقرع السياط على الظهور ، ومن ذلك قصائده ، أرملة الجندي ، وطاغية بغداد ، وسلمى . ولا شك فى أن الزهاوي قد اغتبط كثيراً بما انجاب عن دعوته من نتائج ، أقلها حرية المرأة وتعليمها !

ساطع الحصرى

يختلف انتصار الأستاذ ساطع الحصري للمرأة بأنه انبثق فوق مقاعد الدراسة ، ومعاهد العلم ، ومن بين لغة الأرقام ووهج الوقائع ، ولم يأخذ سبيله فى نحت القوافي ، واستلهام ربات الشعر وترديد الشكاة وتصعيد الزفرات ، فلا تثريب علينا اذا قلنا

إن تعليم المرأة وإرساء قواعده يدين بالكثير لشيخ المربين ، ويزداد الاعجاب بتلك الجهود اذا أحطنا بالظروف التي كانت محيقة بالتعليم نفسه .

وتصدر مميزات الحصري وخططه من معين إدراكه لمراقي نجاح الأمم ، وتنبعث من وعيه القومي ، وإيمانه بالتراث الروحي للأمة العربية . وبهذا يلتقي مع جمال الدين الأفغاني قائد الحركة الفكرية في الشرق الحديث وأضرابه من العمل على تعليم المرأة وتثقيفها . ولا مشاحة في أن إيمان الأستاذ الحصري بهذه الأهداف كان يفوق الايمان بالحياة ، برغم جميع العوائق والمثبطات التي كانت تلغم طريقه ، أو تقام أمامه في أغلب الأحيان . ومع ذلك ، فقد نجح الحصري في فتح مدارس الاناث ، ولا سيما دار المعلمات ، التي كانت وما تزال تمد المعاهد العراقية بحاجتها من المعلمات .

رفائيل بطي

ويتسع تأريخ « العراقية الجديدة » أيضاً للاشادة بذلك الانتصار القوي للمرحوم الأستاذ رفائيل بطي ، منشيء صحيفة (البلاد) وصاحب المؤلفات القيمة في الأدب العصري ، والمعلمة السيارة لتأريخ العراق .

لم يرافق رفائيل بطي كفاح المرأة العراقية منذ ثورة ١٩٢٠ أو يساير مراحلها المتتابعة ويؤرخ تطوراتها حسب ، بل كان ـ فيما أعلم ـ أول صحفي عراقي ينذر قلمه للاشادة بحقها ، وشرح ما وقع عليها من العنت والارهاق ، ثم تذكير الناس بهذه القوة الموؤدة الحبيس ، وتمهيد المسالك لظهورها وبروزها .

وفي المقالات التي دأب على نشرها في « العرب » و « العراق » قبل ٣٧ سنة ، وفي مجلة « الحرية » و « النشء الجديد » ، ثم في المجلات والصحف التي نشرها ، الى

أن أسلم روحه فى سنة ١٩٥٦ ، شواهد على نبل المناصرة ، وسلامة القصد ، وخلوص النية .

ولرفائيل بطي الفضل في تعريف قضية المرأة العراقية أولاً ، وتعريف العراقية بما يدور في الأقطار الأخرى ثانياً .. ثم الحث على نصرة قضيتها ثالثاً . ولعل رفائيل أول صحفي أرصد صفحة كاملة للمرأة في جريدته ، تابعت نشاطها داخل المدارس ، وفي صميم المجتمعات ، وأخذت بأيدي فتياتنا الى معالجة الموضوعات الاجتماعية والثقافية والعلمية ، فضلاً عما كان ينشره من أنباء المؤتمرات النسوية فى العالم ، ويدعو فيها لخروج العراقية من النطاق المفروض عليها ، لتكون شيئاً مهماً في كيان الأمة وتقدمها .

العراقية تطالب بحقوقها السياسية

اشتدت الدعوة في السنوات الأخيرة الى المطالبة بمنح العراقية حقوقها السياسية ، وطغت على ما عداها من القضايا الاجتماعية ، حتى انتقلت الى البرلمان أكثر من مرة ، آخرها في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٨ عند ما طلب الأستاذ توفيق الفكيكي تعديل الدستور والنص على الاعتراف بالحقوق السياسية للمرأة . والأستاذ الفكيكي هو الذي رفع لواء المناهضة لسفور المرأة عام ١٩٢٤ ، كما بينت في فصل سابق(١) . وليس هذا التطور في معاضدة المرأة يثير الاعجاب فحسب ، بل ويدعو الى التأمل والاكبار . . لأنه يحمل مفاهيم جديدة للمجتمع في تبني أهداف كان مجرد التفكير فيها قبل نحو من أربعين سنة يدعو للهزء والتفكهة ، إن لم يكن قصر نظر واتهاماً بالجنون .

على اني أستطيع أن أقرر بعجالة ، أن مطالبة العراقية بحقوقها السياسية كانت وما تزال تمثل إحدى الغايات التي تطلعت اليها نهضة المرأة عندنا . ولا نعدو الواقع حين نقول إن العراقية أحاطت بهذا الهدف منذ تأسيس الحكم الوطني ، وكانت أول صيحة ـ فيما نعلم ـ بهذا الشأن هي التي أطلقتها الصحفية « بولينا حسون » عند اجتماع أول مجلس تأسيسي عراقي ، فقالت في مقالة نشرتها في العدد الصادر في ١٥ آذار ٩٢٤ من مجلة « ليلى » التي كانت تصدرها يومذاك بعد أن أشارت الى ما تتخبط به المرأة من الجهل والجمود والخمول :

« إن نجاح النهضة النسـوية الناشئة منوط بغيرتكم وشهامتكم أيها الرجال

---

(١) طالب النائب سلمان الشيخ داود عام ١٩٥٦ بتعديل الدستور على هذا الأساس أيضاً .

الكرام ، ولا سيما أنتم الذين تحملتم أعباء مسؤولية تأسيس الحياة الديمقراطية العراقية على قواعد عصرية راسخة ، والحياة ، وأنتم تعلمون أنها ليست حق الرجل فقط .

« لا أخالكم ، أيها السادة رجال العراق ، تغضبون على المرأة اذا تجاسرت اليوم وقالت لكم والدموع تترقرق في عينيها : إنكم لم تصرفوا حتى الآن ، يا سادتي ، كل العناية اللازمة لتهذيبي وترقيتي ، فان كنت حتى اليوم في غاية التأخر ، وسجل علي التأريخ هـــذا النقص ، فأنتم مشتركون معي في التقصير ، لأن مقاليد أموري في أياديكم ، وليس لي أن أبدي حركة إلا بأمركم وآرائكم ، أما وقد فتح المجلس التأسيسي العراقي ، وعرفت أن أعضاءه مما يشار الى درايتهم وفطنتهم بالبنان ، فبت اؤمل نجاح القضية النسوية ، وسأرى من المنصف المشفق الذي يفتح قبل غيره بابها وينزل الى ميدان المدافعة عن صفوف فتاة العراق فيرنّ صوته الجهير بين جدران المجلس ، ويتعدى الى أقاصي أنحاء الرافدين ، حيث تستعد ألوف من الفتيات لمقابلته بالحمد والتهليل . . »

وعقدت بولينا مقالة أخرى في العدد التالي بالمعنى عينه .

وفي أواخر عام ٩٣٢ برزت الدعوة الى المطالبة بالحقوق السياسية في مؤتمر طهران النسوي بشكل قرار اتفقت عليه مندوبات الدول الشرقية بما فيهن مندوبة العراق . ومن الطبيعي أن يؤدي الاحتكاك عن طريق هـذه المؤتمرات وبواسطة الصحافة التي كانت تنقل أنباء التقدم الذي نالته المرأة في الأقطار الشرقية الى أن تتبلور هذه الدعوة وتسير في مجراها الطبيعي .

القانون الاساسي العراقي

وأحب أن أقرر في هذا البحث أن الدستور العراقي لم يحرم المرأة العراقية أن

تكون ناخبة ، ولم ينص على سلب هذا الحق منها ، بل على النقيض من ذلك ، أثبت لها الحقين في عموم المادة الثامنة عشرة . فقد ورد في الفقرة الأولى منها :

« العراقيون متساوون في التمتع بالحقوق المدنيـــة والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة » . وكما ضمن القانون الأساسي هذين الحقين للرجل فقد ضمنهما للمرأة على حد سواء .

ولم يفرق القـانون الأساسي بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية ، ولا في الحقوق المدنية . وفي هـذا المضمار ذكر الأستاذ منير القاضي « ان المادة ٤٢ من القانون الأساسي قيدت هذا الاطلاق ، فقصرت النيابة على الرجال فقط ، ولم تتعرض لحق كون المرأة ناخبة .

وأما عبارة (من الذكور) الواردة في المادة الثلاثين منـه ، فليس معناها أن الناخب يجب أن يكون من الذكور ، بل معناه أن النسبة العددية للنواب مقدرة بنسبة عدد الذكور . وليس في هذا ما يفهم منه أن غير الذكور لا يجوز أن يكون ناخباً . ان تحديد عدد النواب بنسبة عدد الذكور ليس معناه حرمان المرأة أن تكون ناخبة ، فان التصريح الوارد في المادة الثامنة عشرة ، المنوه بها آنفاً ، تحول دون هذا الفهم .

ومن القواعد المقررة في القوانين والقواعد العامـة أن لفظ المذكر الوارد في النصوص القانونية يشمل المؤنث أيضاً ، فاذا كان هذا التعبير الوارد في الدستور جاء بلفظ المذكر مثل كلمة ـــ العراقيين ـــ وكلمة ـــ عراقياً ـــ فانه يشمل المؤنث أيضاً .

وأما ما يقال من أن قانون انتخاب النواب قد حصر الانتخاب بالذكور فقط ، فهذا أمر آخر .

ان قانون الانتخاب ليس هو القانون الأساسي .

واذا كان قد جاء سالباً لحق أقره القانون الأساسي للمرأة ، فانه يجب أن يعدل على الأساس المقرر في القانون الأساسي ، وليس تعديل القانون بالأمر الصعب ، فان القوانين معرضة للتعديل والالغاء على حسب المصلحة والمطابقة لأحكام الدكتور » .

لا خلاف إذن في أن أحكام القانون الأساسي لم تمانع في أن تتولى المرأة مقاليد الوزارة ، أو الظفر بعضوية مجلس الأعيان ، دون أن يعـــدم ذلك السند القانوني السليم .. كما أنها بحكم القوانين العراقية تستطيع أن تكون عضوة فى مجالس الألوية أو مجالس البلديات .

موقف الاتحاد النسائى

وكيفما كان الحال ، فقد لعبت فى اشتداد الدعوة الى المطالبة بهذه الحقوق عدة عوامل منها :

(١) نجح العراقيـة في بضع سنوات من الانتقال بقضيتها من مرحلة تحديد المعالم ، وإرساء الأسس والدعائم ، ورسم الخطط والمناهج الى مرحلة العمل ، وتنسيق الجهود وتنظيمها في خدمة المجتمع . وقد ساعد على تحقيق هذه النتيجة ، كما قلت ، تقدم التعليم النسوي في مختلف مراحله .

(٢) ما نالته اللبنانية من حق الترشيح للنيابة ، والسورية من حق الاقتراع . . وأخيراً ظفر سيدتين بعضوية مجلس الأمة المصري في سـنة ٩٥٧ . وبحكم هـذه العوامل وغيرها ، أقدم الاتحاد النسائي في ١٨ حزيران سنة ٩٥٢ على رفع مذكرة الى رئيس الوزارة ، ورئيس مجلس الأعيان ، ورئيس مجلس النواب ، ووزير الشؤون الاجتماعية ، جاء فيها بعد الديباجة . . « أن الاتحاد النسائي العراقي ينتهز فرصة وجود رغبة عامة لاصلاح بعض نصوص الدستور ليضم صوته الى صوت المنادين

لهذا الاصلاح ، وكما تعلمون أن السلطات التشريعية في البلاد لا تسعى فقط الى حل المشاكل التي تتعلق بالسياسة ، بل تتعداها الى تنظيم القوانين الاجتماعية والاقتصادية والصحية والانسانية . وليس من العدل والانصاف أن يهمل رأي المرأة التي هي نصف الشعب في كل هذه المسائل الحيوية . وبناء عليه يتشرف الاتحاد بأن يعرض آراءه ومطاليبه ، مستنداً الى هذه الرغبة ، والى حق المرأة الصريح في الحياة والمساهمة في بناء صرح مجد الوطن وسؤدده . واذا ما أجيب طلبنا العادل ، يكون بذلك العراق قد خطا الخطوة الموفقة التي ستنتج نتائج عظيمة الفائدة للبلاد من الوجهة العلمية والثقافية والاقتصادية ، لأنها ستؤدي الى تجنيد جميع الأيدي للعمل في حقل الصالح العام .

ومضت المذكرة قائلة :

« إننا نطالب بالحاح بأن تعترف الحكومة العراقية بمساواة المرأة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً للرجل ، وخاصة انها بالنظر للتكاليف وللضرائب وللقوانين بما فيها الدستور مساوية للرجل بالتكاليف والواجبات فلها الحق بالمطالبة بالمساواة في الحقوق ، وأن تسرع بسن التشريعات المحققة لهذا الطلب والمؤيدة له ، فأي تأخير لتنفيذ رغبات النصف من بني الانسان من أبناء الوطن يعني تأخير الحضارة والمدنية ، والعمل المنتج المثمر في هذه البلاد . وقد يلجأ المرء الى طرق عدة للكفاح في سبيل تحقيق ما تطلبه ، الأمر الذي لا أعتقد أن حكمة الحكومة ترضى به ، ولا مصلحة البلاد والشعب ترضاه . فمن الخير أن تأتي الأمور من أبوابها ، وتحل مشاكلنا من طرق قانونية سالمة من أن نلجأ ما لجأ اليه سوانا في إجبار السلطات على تحقيق ما نطلبه ، خاصة ونحن في عصر أصبح الموضوع به واضحاً كالشمس ومعترفاً به من الكل ، وأن إخراج الاقتراح من حيز الفكر الى حيز العمل لم يكن متوقفاً إلا على الوقت ، فمنهم من تقدم ، ومنهم لا يزال في منتصف الطريق . ونحن نرغب كأمة

حية أن تتقدم الصفوف ، ولا نكون في مؤخرة الركب . »

وعزز الاتحاد النسائي مذكرته بحجج قوية شرعية ، ودولية واجتماعية تدعم مطالبته وتدلل على قوة اتجاه المرأة .

ومرة أخرى ، انتهز الاتحاد النسائي الدعوة الى تعديل قانون الانتخاب ، فبعث في ٦ تشرين ثان ٩٥٢ مذكرة الى رئيس الوزراء ورؤساء الأحزاب القائمة يومذاك ناشد فيها « إعارة الموضوع الاهتمام الذي يستحقه وتحقيق الغايات والأهداف التي تصبو اليها المرأة العراقية في هذا المضمار » .

وحث الاتحاد في الوقت عينه الجمعيات المنضمة اليه على « تغذية حركة المطالبة بمنح المرأة حقوقها بالدعاية الأدبية والمعنوية بين جنسنا ، وإحياء هذه الفكرة عن طريق النشر والاذاعة . . » ونجحت هـــذه الخطوة ، إذ كان بعض العرائض التي نشرتها الصحف تحمل أكثر من ٥٠٠ توقيع دفعة واحدة .

ولم يقتصر الاتحاد على هذه المذكرات وحدها ، بل كان ينتهز كل فرصة ليبسط وجهة نظره منذ عام ٩٥١ ويوجه بالرسائل الى المسؤولين والهيئات الشعبية ويدعوهم الى التعاون « مع المرأة العراقية في هذا الجهـاد ويساعدها على نيل حقوقها الطبيعية التي يعترف بها ميثاق الأمم المتحدة ويؤيدها حقوق الانسان » .

كما أن الاتحاد النسائي العربي في بيروت أعلن تأييده للمرأة العراقية . وجاء في برقية لرئيسته السيدة ابتهاج قدورة في ٢٤ كانون أول ٩٥٢ « الاتحـاد النسائي العربي يؤيد الاتحاد العراقي في طلبه العـادل الاعتراف للمرأة العراقية بممارسة حقوقها السياسية » . وقد رفعت صورة البرقية الى رئيس الوزارة ، ووزير الداخلية .

أسـبوع المرأة

وخطا الاتحـاد النسائي والجمعيـات المنضمة اليـه خطوة أخرى في الدعوة

لحقوق المرأة السياسية ، فنظم أسبوعاً للمرأة عام ٩٥٤ شارك فيه فريق من أقطاب السياسة ورجال القضاء ، والمشتغلات في الحقل النسائي . وعاونت اذاعة بغـــداد والصحف العراقية على تعزيز الدعوة لحقوق المرأة السياسية .

المرأة فى مناهج الاحزاب

. . ومن هـذه الالمامة الخاطفة بالمراحل التي قطعتها المناداة بالحقوق السياسية للمرأة العراقية ، نجد أن تلك الحملة وغيرها ، دعمت بنتائجها الايجابية المحدودة هذا المطلب الرئيس الذي أصبح تحقيقه مرهوناً بالزمن ، وليس موكولاً بهيئة من الهيئات ، أو شخص من الأشخاص . كما أن رفض بعض الوزارات (كما حدث عام ٩٥٣) لطلب الاتحاد النسائي بشأن الاعتراف بحقوق المرأة لا يقلل من أهمية الدعوة ولا من خطرها .

. . ومع ذلك أحب أن أشـــير الى تطور مهم ، شديد اللصوق بهذه المطالبة ، وأعني به مركز المرأة في مناهج الأحزاب والهيئات السياسية التي شهدتها البـلاد . وأني ما أزال أذكر البيان الذي أصدره المرحوم والدي في عام ٩٢٤ بوصفه العميد الفخري لحزب الأمة ، يتبرأ من مقالات نشرتها الصحف يومذاك بتوقيع فتاة غسان حول الحجاب والسفور ، وألصقت بولده ، أو باحدى كريماته ، في غمرة التضادّ والتنافس الحزبي . ويمكن القول بأنه في الوقت الذي تجاهلت الأحزاب التي أسست في السنوات العشر الأولى من الحكم الوطني مطالب المرأة وشؤونها العامة ، نرى انه لم يخل منهاج لحزب من الأحزاب التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية ـــ إلا فيما ندر ـــ من الحث على إنصاف المرأة ، باعتدادها نصف الأمة المشلّ تارة ، وباعتبارها أساس الأمة وخليتها الأولى تارة أخرى .

فمتى يا ترى بدأ اهتمام الهيئات السياسية عندنا بمطالب المرأة ؟ ومتى عملت على دعمها وتأييدها ؟

لعل جمعية الاصلاح الشعبي التي تألفت في ١٥ تشرين ثان ٩٣٦ أول منظمة سياسية أعلنت في منهاجها أن من أهدافها في العلاقات الشخصية :

(أ) وضع قوانين توافق المدنية الحديثة لتنظيم الأحوال الشخصية .

(ب) السعي لتحرير المرأة مع الاحتفاظ بالنظام العائلي .

وبعد أن استأنفت الحياة الحزبية نشاطها في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، انبرت عدة أحزاب للعناية بالمرأة العراقية ورفع شأنها ، ودعم حقوقها السياسية والمعنوية ، لتصبح عضواً مفيداً في جسم الأمة .

وفي الحق أن خمسة من الأحزاب المحلولة اعترفت صارحة بما للمرأة من حقوق ، وعكست في مناهجها ذلك الاهتمام الرائع الذي كانت تبديه العناصر المثقفة بقضية المرأة ، ورسالتها في البناء الاجتماعي .

فقد اعتبر منهاج حزب الاتحاد الدستوري (٢٤ تشرين الثاني ٩٤٩) الذي رأسه السيد نوري السعيد « الأسرة أساس الأمة وخليتها الأولى » . وأعلن بأنه يعنى بهذا الموضوع في صلب برنامجه « وينظر الى المرأة أحد ركني الأسرة ، ويحرص على تهيئة ما يكفل بتثقيفها وإعدادها لأن تكون ربة بيت فاضلة وصالحة ، وعضواً نافعاً في المجتمع بقدر ما تساعدها عليه مواهبها وطبيعتها » .

أما حزب الاستقلال ، بزعامة الاستاذ محمد مهدي كبة (٢ نيسان ٩٤٦) ، فقد انطوى منهاجه على الاستجابة لحقوق المرأة ، وخصص مجالاً واسعاً في صحيفته بشرح قضيتها على مقياس يستوقف الأنظار .

وكما أقر « مبدأ تكافؤ الفرص لجميع المواطنين إقراراً واقعياً » ، فقد كان بين ما عنى به « إنشاء مؤسسات رعاية الطفل والحضانة ، على أن تتبناها الدولة ، فتقوم

بالعناية بصحة الحوامل وتوليدها ، وفحص الطفل في فترات منظمة ، وتقديم الغذاء والأدوية مجاناً . .

« إنشاء ملاجيء للعجزة وذوي العاهات ، ودور تهذيبية للأيتام ، ذكوراً وإناثاً .

« يعنى الحزب بالأسرة ، لأنها أساس الأمة وخليتها الأولى ، ويعدُّ المرأة أحد ركني الأسرة ، ولذلك يحرص على تهيئة ما يكفل بتثقيفها ورفع مركزها الاجتماعي وإعدادها لأن تكون ربة بيت فاضلة وأماً صالحة وعضواً نافعاً في المجتمع ، وقادرة على القيام بالاعمال الاخرى بقدر ما تساعد على ذلك مواهبها وطبيعتها » .

وقد أذاع الحزب في أول اجتماع عقده بعد الترخيص له في العمل في ٧ حزيران ٩٤٦ ، بأنه :

« لضمان تمثيل الشعب تمثيلاً صحيحاً ، يرى الحزب وجوب الأخذ بنظرية التصويت العام الذي لا يتقيد إلا بمبدأ الرشد السياسي ، ويرى الحزب أن للمرأة المتعلمة من الرشد السياسي ما يؤهلها لأن تكون ناخبة » .

وفي ٤ تشرين الثاني ٩٥٠ أعرب الحزب عن رأيه في وجوب الأخذ بمبدأ التصويت العام قائلاً « إنه ليجد الوقت قد حان لأن تتمتع المرأة المتعلمة بحرياتها السياسية ، وأن تزاول حقها الانتخابي الذي أبيح لغير المتعلمين من الذكور ، ذلك الحق الذي منحته سورية للمرأة في قانونها الانتخابي » .

وقال أكثر من ذلك في بيانه الحزبي يوم ٢٤ تشرين الثاني ٩٥١ .

وأحل الحزب الوطني الديمقراطي ، برئاسة الاستاذ كامل الجادرجي (٢ نيسان ٩٤٦) ، في منهاجه شؤون المرأة محلاً لائقاً من ناحيتيها الاجتماعية والأدبية ، ودعا الى :

« إنشاء مراكز صحية خاصة للعناية بالأمومة والطفولة ومكافحة أسباب الوفيات . .

« ووضع قوانين تكفل تنظيم الاحوال الشخصية وسعادة الأسرة وتحرير المرأة ورفع مستواها لتتمكن من القيام بالدور اللائق بها في حياة الأمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . . »

واحتلت العناية بالمرأة مكاناً من أهداف حزب الشعب المحلول الذي رخصت الحكومة بتشكيله في ٢ نيسان ٩٤٦ ، فقد نص نظامه على « رفع مستوى المرأة وتعزيز مركزها الاجتماعي وحماية الأم والطفل » .

على اننا لا ننسى موقف حزب آخر يبرز التطور الذي اقترن بمفاهيم نضال المرأة حيث التفت حزب الأمة الاشتراكي ، برئاسة المرحوم صالح جبر ، للمرأة ضمن أهدافه الرامية الى نهضة المجتمع العراقي وذلك عن طريق :

« التوسع في إنشاء مؤسسات الأمومة والطفولة ، والعمل على مكافحة وفيات الأطفال وتقليلها . .

« الأسرة أساس الأمة ، والمرأة أحد ركني الأسرة ، لذلك يجب رفع مستوى المرأة لتؤدي واجبها في الاسرة والمجتمع ، وتهيئتها لممارسة حقوقها . .

« يسعى الحزب الى نشر التعليم بين مختلف طبقات الامة ، ذكوراً وإناثاً ، وجعله أداة لتكوين الشخصية ، وتوجيهه نحو تنمية المواهب والقابليات ، والعناية بالمباديء السليمة والاخلاق الفاضلة قبل كل شيء . .

« مما يعمل له تشجيع التعليم المهني الصناعي والزراعي والتجاري والفنون البيتية » .

أما موقف الاحزاب الاخرى ، ففيه ما يدعو الى بعض التأمل والاستغراب .

لقد أغفل حزب الجبهة الشعبية (١ تموز ٩٥١) الذي ضم فريقاً من الساسة المؤمنين بمفاهيم التطور في برنامجه كل ما يتصل بالمرأة من شؤون . وعلى الرغم مما كان يتبناه حزب الاحرار (٢ حزيران ٩٤٦) من مباديء إنشائية تضمنها برنامجه في

سائر الميادين ، فان نظرته للمرأة تميزت بالمرور العاجل ، والالتفاتة العابرة ، لا حماسة فيها ، ولا روح .

والنص الوحيد فيه ، انطوى تحت مطالبة الحزب « بتشجيع المؤسسات الاهلية والادارات المحلية ومساعدتها على تعميم مؤسسات حماية الاطفال والعناية بالامومة وتأسيس دور الولادة والحضانة في كافة أنحاء العراق » .

وكان موقف حزب الاصلاح (١٠ تشرين الثاني ٩٤٩) ، الذي رأسه الدكتور سامي شوكت من وزراء المعارف السابقين ، مشابهاً في الواقع لحزب الاحرار . إذ إن منهاجه الضخم الحافل بالمشروعات الجسيمة لم يول المرأة أية عناية ، ولم يعطها من اهتمامه أي اعتبار ، مع أنه كان يعمل على « أن يماشي التطور العصري ، وتقدم الوعي السياسي بين طبقات الامة » .

وعلى الرغم من أن مؤسس الحزب كان ينشر المقالات الطوال (٩٢٠ــ٩٢٣) منادياً بحقوق المرأة .

ولم يكن موقف حزب الاتحاد الوطني (٢ نيسان ٩٤٦) أحسن من الحزبين الآخرين ، إذ لم يرد في أهدافه غير عبارة واحدة تتركز في « رعاية صحة الأم والطفل » .

وعندنا أن التطرق الى رأي الهيئات السياسية المنظمة والبحث في دورها لمناصرة كفاح المرأة لا يقلل من أهمية الهيئات والمؤسسات الأخرى غير السياسية كنادي البعث العربي (سنة ٩٥٤) .

العراقية في المؤتمرات النسوية الدولية

لم تقنع العراقيـــة الواعية في نهضتها الحديثة بما أوتيت قضيتها من التكامل والوضوح ، إذ لم يمض أكثر من عشر سنوات على بدء مرحلة التعليم المنظم حتى نقلت جهودها الى مجال المؤتمرات الدولية تشارك في دراستها ، ومقرراتها ، وتشرح وجهات نظرها ، وتبرهن على أن العراقيـة لا تقل شأواً ولا شأناً عن أخواتها في الأقطار الشقيقة والشرقية .

ومن الأهمية بمكان القول بأن هذه المؤتمرات خدمت قضية المرأة العراقية ، مضافاً الى ما أظهرته من تجاوب قوي واضح بينها وبين المرأة في البلدان المجاورة ، مرده ذلك التشابه في الأوضاع ، ووحدة الاتجاهات ، وتقارب النزعات ، والافتقار الظاهر الى جهود المرأة في الميادين الاجتماعية ، وهي تتطلب المزيد من الاخلاص والتجرد للخدمة ، ومعالجة المشكلات الاجتماعية باليقظة والحذر والتأني .

وبباعث هـــذه العوامل كانت النهضات النسوية في العراق ومثيلاتها في البلاد العربية تلتقي في هذه المؤتمرات على صعيد واحد ، وتتجه هنا وهناك اتجاهاً عفوياً طبيعياً نحو دراسة المشكلات الاجتماعية وتلمس الحلول لها . وقد أفادت العراقية على وجه الخصوص من هذه المجامع في إبراز مقومات نهضتها الحديثة وأسعفتها في تبيان وجهات نظرها في المسائل المشتركة التي كانت تواجه المرأة بصفة عامة .

ومما يستوقف النظر أن هذه المؤتمرات النسوية تمشت مع سير الحركة النسوية وانتقلت أغراضها ، بمرور الزمن ، من البحث حول القضايا الخلقية وتربية الأطفال والعناية بالأمومة الى الاهتمام بالحقوق السياسية والدستورية والمشاركة في الحيـاة

العامة والدفاع عن مصالح المرأة . ويكاد هذا التحول السريع يبدو أكثر وضوحاً في المؤتمرات التي عقدت بعد الحرب العالمية الثانية ، وخاصة المؤتمر النسائي العربي الذي حملت الزعيمة المصرية الخالدة السيدة هدى الشعراوي لواء الدعوة لعقده ، ومن بين قراراته المهمة « تأكيد حقوق المرأة السياسية ومطالبة الحكومات العربية بتعيين المرأة في الوظائف التي يشغلها الرجل المتساوي معها في الشهادات والمؤهلات » الى جانب المقررات الأخرى التي ألفت أهداف المرأة العربية وصهرتها في بوتقة واحدة من المصالح والآمال .

١ ـ المؤتمر النسائى الشرقى الاول

ولعل المؤتمر النسوي الشرقي الأول ، الذي تبنت السيدة نور حمادة[١] الدعوة لعقده في دمشق بين ٣ ــ ١٠ تموز ٩٣٠ ، أول مجمع نسوي عام تشارك فيه العراقية الجديدة ، وتسهم في مناقشة موضوعاته بحرية وجرأة ، وتعطي المثل الطيب على صلاحها ووعيها .

وقد مثلت العراق في هذا المؤتمر السيدة أمينة الرحال ، وهي يومئذٍ طالبة بدار المعلمات ، والسيدة جميلة جبوري المعلمة بمدرسة البنات الرسمية ، والسيدة صبيحة ياسين الهاشمي الطالبة في بيروت يومذاك .

وقد أخبرتني السيدة أمينة الرحال أن المؤتمر أثار اهتمام المغفور له الملك فيصل الأول ، على الرغم من الظروف السياسية المحيطة بالبلاد ، وما كان يجري يومذاك في حلبة السياسة ، وهو الذي أوحى باختيار عضوات الوفد ، مدفوعاً بما كان ينشده من

(١) ذكرت المس دراور أن السيدة نور حمادة ، مؤسسة مؤتمر المرأة المسلمة في سورية ، دعت المرحومة أسماء الزهاوي رئيسة نادي النهضة النسوية وغيرها من زعيمات الحركة النسوية في العراق ، في مايس ١٩٢٩ للمشاركة في مؤتمر المرأة المسلمة الذي عقد في تلك السنة . إلا أن العراقية لم تشارك فيه .

حب التجدد والأخذ بيد المرأة ، لكن السيدة الهاشمي لم تستطع أن تحضر المؤتمر ، واقتصر تمثيل العراق فيه على العضوتين الباقيتين .

وبعث الأستاذ الزهاوي قصيدة للمؤتمر مطلعها :

الغرب جبار غرور والشرق خوار جسور
الغرب يحمد نفسه والشرق بالموتى فخور
الفرق بين الشرق والغرب الشقيق له كبير
هذا يثبطه الحجا ب وذاك يحفزه السفور
وكأنما المتحجبا ت بكل مملكة قبور
ما في السفور لمن ترتّبها الثقافة ما يضير
أما الحجاب فمنه تنبعث المفاسد والشرور
إن السفور من الشعو ب بصدق نهضتها بشير
أما الحجاب فانه بيقاء شقوتها نذير

ويهز المؤتمر شاعريته فيقول :

إنا بمؤتمر له من كل ناحية سفير
تحيا مباديء أهله إن المباديء لا تبور
وعلى صراط خطه لبلوغ مقصده يسير
والله في كل الأمو ر لمن يلوذ به نصير

وقد تناولت بحوث المؤتمر مسائل عديدة ، تتعلق بالمرأة العاملة ، والأمومة ، وإحياء آداب اللغة العربية ، ومنع المسكرات ، والمقامرة ، والعمل على ترويج المصنوعات الوطنية ، ومناقشة مشكلة الزواج .

وذكرت السيدة جميلة جبوري أن الآراء تضاربت في مسألة دخول المرأة ميدان العمل والكسب مع الرجل ، فمنهن من حبذن الفكرة وأيدنها ، ومنهن من

رجحن أن يقتصر عمل المرأة على تدبير شؤون منزلها ، وتربية أطفالها ، ومساعدة زوجها على أمور كثيرة ، إذا أحسنت القيام بها كانت سبب سعادة لأسرتها وللجميع .

وألقيت في المؤتمر خطب في الأمومة والعناية بالأطفال ، وكيفية ترقية مداركهم وإعدادهم ، ليكونوا رجال الغد ، وأمهات المستقبل . واقترح المؤتمر ، رقابة أفلام السينما للمحافظة على أخلاق الأحداث ، ووافق على قرار برقابة أخلاق الأطفال ، وذلك بالعناية الزائدة بتربيتهم ، وعدم تركهم في أيدي الخدم .

وتكلمت بعض المندوبات العربيات في إحياء آداب اللغة العربية ، والطرق التي يمكن بها التوصل الى إحياء لغتنا العربية . وقد وجهت السيدة عقيلة الاستاذ فارس الخوري أفكار المؤتمرات الى مكافحة المسكرات والمقامرة ، واقترحت أن يكتب الى الحكومات لمعاضدة هذا المشروع وتأييده ، فأقر المؤتمر هذا الاقتراح .

وحـــذ المؤتمر تحديد سن الزواج للفتـاة بالثامنة عشرة ، وللفتى بالحادية والعشرين ، وبحث في ترويج المصنوعات الوطنية ، فأجمعت الآراء على تحبيذه ، وحث الأهالي على شراء المصنوعات الوطنية .

وفي هـذا المؤتمر ألقت أمينة الرحال خطبة دعت فيها لتحرير المرأة اقتصادياً ، قائلة « إن نظرية مطالبة المرأة بمساواتها بالرجل ، أصبحت سخيفة ، لأن الظروف الاقتصادية هي التي فرقت بينهما على مر السنين والعصور » . كما قالت « إن واجب المرأة إذن اليوم غير المنازعة . المطالبة بمناصرة الرجل العربي في جهاده ليصل الى الغاية التي يرمي اليها . وما دام الرجل مسيطراً عليها اقتصادياً ، وما دام كذلك ، فلا يرجى للمرأة العربية تقدم ، ولا تحسن في حالتها الاجتماعية . »

« فالمرأة العراقية ، التي جئت وأخواتي نمثلها ، تبث إليكن ما تبتغيه هي وكل عربية ، وهي تشترك مع العربيات كافة ، في شعورها ، ورغباتها ، وأمانيها ، وتتأثر لأقل مصـاب يصيب أخواتها العربيـات في سـائر الأقطار ، ويفرحها ويثلج صـدرها ما يفرحهن . »

« إن الحالة الاجتماعية للمرأة العراقية لا تختلف عن حالة أخواتها إلا قليلاً جداً ، وهي تسعى لنفس الغاية الاجتماعية التي تسعى اليها غيرها من العربيات ، وهي مساعدة الرجل العربي في جهاده في سبيل التحرر ، ولست أعني بهذا أن تحمل المرأة العربية عامة ، والعراقية خاصة ، بندقية مع المجاهد العربي وتنزل الى الميدان ، وإن كنا نتمنى ذلك ، بل نريدها أن تجعل كل غايتها وأمانيها في أن يتحرر أخوها العربي مما هو فيه ، وتساعده على تحقيق ذلك في ثقافتها ، وفي تدبيرها المنزلي ، وفي تربيتها أطفالها ، لاعدادهم أبطالاً للجهاد » .

٢ ـ المؤتمر النسائى فى بغداد ١٩٣٢

ثم جاء المؤتمر النسائي العربي ، في بغداد عام ٩٣٢ ، شاهد صدق وعدل على وعي المرأة في العراق والعالم العربي ، وبرهاناً ساطعاً على مدى حيويتها وقوة إيمانها ، وبشيراً بما كان يتلظى في آفاق حياتها من المطامح والآمال ، كعنصر يؤمن ببلاده ، ويرمي الى خدمتها بكل الوسائل والأسباب .

والمرأة في هذه المرحلة ، وفي النجاح الذي صادفه مؤتمرها ، مدينة للجهود التي أبداها الملك فيصل الأول يومذاك ، وموافقته على إقامة المؤتمر برعايته في بغداد .

وقد عبر السيد رشيد عالي الكيلاني ، السكرتير الخاص لجلالة الملك ، عن هذا التشجيع في الرسالة التي بعث بها الى الأميرة نور حمادة رئيسة المجمع النسائي العربي في دمشق ، وقد جاء فيها قوله :

« لي الشرف بأن أخبركم بأن كتابكم المؤرخ في ١٦ آب ٩٣٢ قد عرضته على مولاي صاحب الجلالة الملك المعظم ، وأمرني أن أعرب لكم عن سروره من توالي جهودكم في سبيل النهضة الاجتماعية العربية ، وعن عطفه على المجمع النسائي العربي

وتقديره لمساعيه المبرورة . لا يرى جلالته ما يمنع من تلبية رغبة المركز الرئيسي للمجمع المنوه عنه في عقد مؤتمر عام في بغداد في أواخر تشرين الأول من السنة الحالية ، حيث ترى بغداد نفسها سعيدة لأن تكون مركزاً لمثل هذه الاجتماعات ترمي الى خدمة هذا المجتمع ، أدبياً واجتماعياً . وأرجو قبول احتراماتي الفائقة » .

وأخذت الدعوة الى عقد المؤتمر مزيداً من الاهتمام ، عند ما طلبت وزارة المعارف الى دار المعلمات وبعض المؤسسات الثقافية معاونة المؤتمر وتذليل العقبات أمام انعقاده ، وفي الوقت ذاته قامت العناصر المثقفة في بغداد بالتعاون مع السيدة حمادة باستعدادات ضخمة للعمل على نجاح المؤتمر وتحقيق رسالته .

وفي يوم الأحد ٢٣ تشرين أول ٩٣٢ افتتح مدير المعارف العام المؤتمر بخطبة قصيرة تمنى فيها لعضوات المؤتمر التوفيق . ثم ألقت السيدة نور حمادة رئيسة المؤتمر كلمة إشادت فيها بدور الملك فيصل الاول في نهضة العراق الحديثة ، وما اتسمت به جهوده من الاهتمام بقضية المرأة ، كما لفتت الأنظار الى ما لمسته من تقدير الشعب العراقي وتفهمه لمسؤوليات المرأة العراقية .

وركزت السيدة ريدر ، مندوبة الاتحاد النسائي الدولي ، كلامها على أعمال الاتحاد المذكور وفعالياته ، واختصت العناصر الانكلوسكسونية بالذكر لاحترامها المرأة ، وأثنت على التقدم الذي ظفر به العراق منذ إنشاء الحكم الوطني .

ثم قدمت الآنسة روز يوسف فرنسيس تقريراً عن دور المرأة العراقية والاقبال على التعليم ، وقالت في خطبتها « إن الشعور أول خطوة للعمل ، وقد استيقظت المرأة العراقية بعد سبات ، وشعرت بمقامها بعد غفلة فنهضت . وهل أدل على نهوضها من انعقاد هـــذا المؤتمر النسائي العربي لأول مرة في عاصمة بلادنا ، حيث تجتمع أخواتنا من الاقطار العربية الشقيقة » .

وتناول تقريرها بالشرح حالة المرأة العراقية في المدينة والريف ، والمراحل التي

قطعها تعليم المرأة ، وأخيراً ما هنالك من بشائر تعبر عنها هذه الرغبة الصادقة في الاكثار من فتح مدارس الاناث .

وتحدثت في حفلة الافتتاح ممثلات البلاد العربية : السيدة حنينة خوري مندوبة مصر ، والسيدة فاطمة مراد خريجة معهد الحقوق في دمشق ، والسيدة إيلين مفرج مندوبة لبنان . وقد دارت كلماتهن على شرح ما أصاب قضية المرأة في بلادهن من نجاح ، وخاصة في مجالي التربية والتعليم ، ونابت رئيسة المؤتمر عن قرينة وزير صحة المملكة السعودية في إلقاء كلمتها ، وقدمت السيدة صبحية المقدادي تقريراً عن التعليم في فلسطين . أما مندوبة العراق السيدة رفيعة الخطيب ، فأكدت في خطابها أن الدين الاسلامي لا يقف في طريق تعليم المرأة وتحررها ، وأن الديانة الاسلامية تذهب في هـــذا المعنى الى مدى أبعد من أختها المسيحية . وقالت إن علة تأخر المرأة عندنا لا يعود الى الدين ، بل الى العادات الاجتماعية ، وفي مقدمتها السفور والحجاب . واختتمت الحفل رئيسة المؤتمر .

وقد استغرق المؤتمر ثلاثة أيام ، بحث فيها عدداً مهماً من القضايا المتصلة بالمرأة ، ومما اشتمل عليه : خطبة في تهذيب الفتاة لعقيلة الحاج محمود الاسترابادي ، ومحاضرة في حقوق المرأة المسلمة لصبيحة الشيخ أحمد الداود مؤلفة الكتاب ، وخطبة عما يعوز المرأة للسيدة رفيعة الكيلاني ، ودراسة عن حالة المرأة في العراق للسيدة سترينا إبراهيم حييم ، ومحاضرة للسيدة فخرية إسماعيل عن حاجتنا الى جمعية نسوية لخدمة المجتمع .

وقد انتخب المؤتمر السيدة نعيمة ، عقيلة السيد نوري السعيد رئيس الوزراء يومذاك ، رئيسة فخرية ، واختيرت المؤلفة سكرتيرة . وأقيمت لعضوات المؤتمر مآدب تكريمية عديدة ، منها حفلة الشاي التي أقامتها الملكة حزيمة في اليوم الثالث لانعقاد المؤتمر . وأقام أحد النوادي ، وهو نادي « لورة خضوري » حفلة خطبت فيها رئيسة

المؤتمر نور حمادة ، وكل من حنينة خوري ، ورينة عبودي ، وأنور شاؤول ، وعلي الخطيب ، ومراد ميخائيل ، وألقى جميل صدقي الزهاوي إحدى قصائده الرائعة في تأييد المرأة .

لا أعلم أن مؤتمراً ، في ذلك الحين ، حظي باهتمام النقاد والاجتماعيين والصحافة ، كمؤتمر بغداد النسائي . ومهما تكن النتائج التي تمخضت عنه ، فانه استطاع أن يبدأ مرحلة جديدة في حياة المرأة العراقية وحقوقها العامة ، ذلك اذا لاحظنا أن الدعوة اليه كانت تتجاوب مع الاقبال الظاهر على نشر التعليم النسوي ، وطلوع الحركة الرامية للانتقال من الحجاب الى السفور .

٣ ـ المؤتمر النسائي الشرقي

وكان المؤتمر النسائي الشرقي الذي دعت السيدة نور حمادة الى عقده في طهران في أواخر كانون أول ٩٣٢ ، هو الاجتماع النسائي الثالث الذي ارتفع فيه صوت المرأة العراقية . وُوجه بالدعوة للمؤتمر الى جميع البلاد الشرقية ، فسارعت الى إرسال وفود عنها ، باستثناء تركية وأفغانستان اللتين اعتذرتا بالأحوال السياسية القائمة فيهما يومذاك .

ومما يدعو للتأمل ، قرار المؤتمر في المطالبة بحقوق الانتخاب للمرأة في البلاد الشرقية ، شريطة أن تكون المتعلمات في كل دولة أكثر من النصف ، وإيفاد البعثات النسوية للتعلم في الجامعات الغربية . وهذا القرار بتأكيد حقوق الانتخاب للمرأة ، يضع قضية المرأة في نقطة تحول مهم ، ويبرز التيار الذي كانت الشرقية ماضية فيه ، دون أي تلكؤ وانتظار .

وقد عقد المؤتمر في دار الجمعية النسائية الوطنية الايرانية بحضور (١٢٠٠)

مندوبة ، بينهن فاطمة أنصاري ، سكرتيرة الجمعية النسائية الايرانية ، وأعظم خان سلطان ، وفربود خان حكمت ، وعالمة خانم تقائي ، وحضرت السيدة أفخمي مندوبة عن الأميرة شاهدخت الرئيسة الفخرية للجمعية ، ومثلت العراق السيدة ثروة أحمد حالت ، وأرسلت سورية ولبنان وفوداً خاصة فيهما ، بينما مثلت مصر السيدة حنينة خوري الرحالة المصرية .

واشتمل جدول أعمال المؤتمر على مناقشات دارت حول تعليم المرأة ، والقضايا الاخلاقية ومسؤوليات المرأة الاجتماعية . وعقد المؤتمر خمس جلسات ، أربع منها للمذاكرات . أما الخامسة ، فلدراسة وإقرار التوصيات والمقررات .

وألقت مندوبة العـــراق في جلسة الافتتاح خطبة تناولت فيها مركز المرأة العراقية الاجتماعي ، ولا سيما في فترة الانتقال من الاحتلال الى الحكم الوطني ، وأشارت الى ما رافق حركة تعليم المرأة من المثبطات والعقبات .

ومما قالته في معرض كلامها « إن حركة تثقيف المرأة في العراق أخذت في الايام الاخيرة تتوسع توسعاً كبيراً لسببين : (أولهما) إنطلاق المرأة التركية من قيودها بسبب الجهود التي بذلتها تركية حينما قامت باصلاحاتها المعلومة . (وثانيهما) ما أحدثته الادارة البهلوية الجديدة من انتباه في ايران وما حصل للمرأة الايرانية من مجال النهوض وفك القيود . »

ومضت قائلة « إذا جاز لنـا التفاؤل بمستقبل العراقيـة في الحواضر والمدن ، فيؤسفنا كثيراً أن لا نستطيع مثل هـذا التفاؤل ، بالنسبة الى مستقبل المرأة العراقية العاملة والفلاحة » .

٤ ـ المؤتمر النسائي العربي الاول

يمكن اعتبـار المؤتمر النسائي العربي ، الذي دعت الزعيمة المصرية المرحومة

هدى الشعراوي الى عقده في القاهرة عام ٩٤٤ ، أول محاولة لتنسيق جهود المرأة العربية ، والعمل على تقرير حقوقها المدنية والسياسية . ولا شك في أن هذا المؤتمر جاء امتداداً للمؤتمر النسائي الشرقي الذي دعت اليه في عام ٩٣٨ بعد أن تفاقمت الحالة في فلسطين ، وأخذت تنذر بأخطر العواقب .

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية تبلورت لدى السيدة هدى هانم الشعراوي فكرة عقد المؤتمر النسائي العربي « وتكوين جبهة من النساء يكون لها رأي مسموع في وضع النظم والتشريعات التي يراد بها حماية الامومة والطفولة ، فضلاً عن أن نظم بعد الحرب ستخلق شيئاً جديداً في شأن الاقتصاديات ، والمرأة أقدر من الرجل في تصريف أمثال هـــذه الامور ، ولا تستطيع المرأة أن تحقق كل ذلك إلا اذا أعطيت كل حقوقها السياسية[١] » .

وتحقيقاً لذلك ، قامت السيدة هدى بجولة في ربوع لبنان وسورية وفلسطين والاردن ، بحثت خلالها مع زعيمات الحركة النسائية فيها دعوتها لعقد مؤتمر نسائي قوبل بصفة عامة بترحيب الهيئات النسائية وعضد الحكومات التي اتصلت بها . وفي الوقت ذاته أرسلت بمذكرة الى المرحوم السيد تحسين العسكري وزير العراق المفوض في مصر يومذاك ، رفعت فيها « إجلالها الى حضرة صاحبة الجلالة الملكة الوالدة » . وتلقيتُ من عصمتها دعوة شخصية ، إلا أن بعض الاسباب الخاصة حالت يومذاك دون تلبيتها .

وقد مثل العراق في المؤتمر ، وفد برئاسة السيدة نظيمة عقيلة السيد تحسين العسكري ، وعضوية السيدات مائدة الحيدري ، وزهرية خالد الجوربه‌جي ، ومليحة إبراهيم فضلي ، وماري كونت أصفر (عن الهلال الاحمر) ، وعفيفة رؤوف (عن وزارة المعارف) ، وسانحة أمين زكي (عن وزارة الشؤون الاجتماعية) ، وسرية

---

(١) السيدة هدى الشعراوي .

الخوجة (عن جمعية حماية الاطفال) ، وروز خدوري (عن جمعية بيوت الأمة) ، ونزهة غنام (عن جمعية أخوات الحرية) .

وألقت السيدة نظيمة العسكري خطبة قالت فيها « إن اجتماع ممثلات النهضة النسوية في العراق بأخواتهن ممثلات الاقطار العربية الاخرى لغاية واحدة تحت سقف واحد ، قد يكون من أعظم بواعث اليقظة في هذه الأمة ، ومن أكبر العوامل التي تدفعها الى السير في مضمار الحضارة والعرفان . وان نساء العراق الممثلات في هذا المؤتمر ، من أكبرهن شأناً الى أصغرهن ، عقدن النية على تنفيذ كل ما يتخذه هذا المؤتمر من قرارات لمصلحة الأمة . ففي العراق وثبة نسوية كبيرة تجلت آثارها في جميع نواحي الحياة القومية ، وتركت أعظم تأثير في تطور النهضة العراقية في العشرين سنة الماضية . فقد وقفت المرأة فيها الى جانب الرجل في السراء والضراء ، وسارت معه كتفاً الى كتف في جميع الأعمال الوطنية التي قامت في العراق . فكانت له المرشد والمشجع والمساعد ، بل فعلت ما هو — في نظري — أعظم من ذلك . أعدت هذا النشء الجديد الممتاز بصدق الوطنية ، والحماسة القومية ، وحب العلم ، والجرأة والاقدام ، لمواجهة الحياة العصرية بكل ما تتطلبه من صفات الرجولة » .

أما الآنسة سرية الخوجة ، ممثلة جمعية حماية الأطفال ، فألقت خطبة في التعليم النسوي في العراق . وتحدثت الدكتورة سانحة أمين زكي عن المرأة في وزارة الشؤون الاجتماعية ، بينما خصصت السيدة عفيفة رؤوف خطابها بالمرأة العراقية والتحرر الاقتصادي ، والدكتورة روز خدوري (بالمرأة والشؤون الاجتماعية) .

واختتم المؤتمر أعماله في ٢١ كانون أول ٩٤٤ بدعوة المرأة في الاقطار العربية الى إنشاء اتحادات تمثلها وتصور وجهة نظرها ، مضافاً الى مقررات كثيرة ، منها مطالبة الحكومات العربية بالعمل على المساواة بالتدريج بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية ، وعلى الأخص حق المرأة في أن تنتخب وتنتخب ، والى أن تتهيأ للحكومات

فرصة تحقيق هذه المساواة في المجالس النيابية والاقليمية وبالتعيين في مجلس الشيوخ ، ومطالبة الحكومات العربية بتعيين المرأة في الوظائف التي يشغلها الرجل المتساوي معها في الشهادات والمؤهلات .

ووافق المؤتمر على مقررات في الحقوق المدنية والشرعية تقوم على أساس تعديل قوانين الأحوال الشخصية ، وفي الثقافة والتعليم على أساس نشر التعليم ، وتقديم طلب الى المجمع اللغوي المصري في القاهرة والمجامع العلمية العربية أن تحذف نون النسوة من اللغة العربية ، وغير ذلك من المقررات تتعلق بحماية الصحة والأمومة والطفولة .

وعلى العموم ، كان هذا المؤتمر بمثابة نقطة تحول في حياة المرأة العربية ، وكان لجهود السيدة هدى الشعراوي أثر محمود في لفت الأنظار الى كفاح المرأة والاعتراف بحقوقها .

٥ ـ المؤتمر النسائى العربى فى بغداد ١٩٥٢

يشكل مؤتمر مكاتب الاتحادات النسائية العربية الذي عقد في بغداد بين ٥ و ٩ آذار ٩٥٢ إحدى النتائج البارزة التي تمخض عنها الكفاح الطويل للمرأة ، وما أبعد الفارق بين الظروف التي التأم فيها بالقياس الى ما كانت عليه في سنة ٩٣٢ عند ما عقد المؤتمر النسائي يومذاك .

وقد عقد هذا المؤتمر في قاعة الملك فيصل ، ونشرت فوقه أعلام الدول العربية ، ومنها علم أبيض يرمز لفلسطين . أما الوفود المشتركة فيه ، فكانت تضم :

١ ـ مكتب الاتحاد العربي العام : الآنسة ابتهاج قدورة الرئيسة ، والسيدة نازك سركيس السكرتيرة ، والسيدة منيرة شحادة أمينة الصندوق .

٢ــ الاردن : لم يمثل .

٣ــ سورية : السيدة ثريا الحافظ ، والآنسة إحسان الشطي .

٤ــ العراق : السيدة عصمت السعيد ، والآنسة صبيحة الشيخ داود .

٥ــ فلسطين : السيدة زليخا الشهابي ، والسيدة ساذج نصار .

٦ــ لبنان : السيدة سلوى مؤمنة ، والسيدة أنيسة روضة نجار .

٧ــ مصر : السيدة إحسان القوصي ، والآنسة حواء إدريس .

وقد افتتحت السيدة آسيا توفيق وهبي ، رئيسة الاتحاد النسائي العراقي ، الاجتماع بكلمة مناسبة في الترحيب بالوفود . ثم ألقت الآنسة ابتهاج قدورة ، رئيسة الاتحاد النسائي العربي العام ، كلمة تحدثت فيها عن المرأة العربية وجهودها ، وأشادت بذكرى السيدة هدى الشعراوي مؤسسة الاتحاد النسائي العربي . وألقت السيدة نازك سركيس ، سكرتيرة الاتحاد ، محضراً عن مكتب الاتحاد النسائي العام المنعقد في تموز ٩٥٠ وملخصاً لأعمال المكتب منذ آب ٩٥٠ حتى شباط ٩٥٢ .

وألقيت بعد ذلك تقارير الوفود ، فتكلمت السيدة ثريا الحافظ (سورية) واقترحت الوقوف دقيقتين حداداً على المغفور لها الملكة عالية ، وعقبتها السيدة عصمت السعيد (العراق) ، وساذج نصار (فلسطين) ، وأنيسة روضة نجار (لبنان) ، وإحسان القوصي ، وحواء إدريس (مصر) ، بكلمات مناسبة للمؤتمر .

وقدمت السيدة حواء إدريس اقتراحاً ينص على :

١ــ أن تعمل نساء العروبة ، وهن نصف الشعوب العربية ، على تأليف كتلة شرقية قومية متساندة ، تكون كتلة حياد بين الكتلتين المتنافستين لحفظ التوازن الدولي . ولا شك في أن تكاتف هذه القوى الشرقية من شأنه أن يمكن الشعوب الشرقية من الاستقلال في سياستها الداخلية وتوجيه سياستها الخارجية بما تمليه عليها مصالحها ، كما تكون عاملاً قوياً لحفظ السلم العالمي ، وبذلك تؤدي أكبر خدمة للانسانية جمعاء .

٢ــ دعوة نساء تونس والجزائر الى الانضمام الى الاتحاد النسائي العربي العام ، كما اقترح تشكيل لجنة نسائية من كل البلاد العربية لزيارة تونس ومواساة المنكوبين فيها بعد الحوادث المؤلمة الأخيرة ، حتى يشعر الشعب التونسي بالرابطة القوية التي تربطه بشؤون العالم العربي .

وقد اختتم المؤتمر أعماله عن مقررات كثيرة ، منها :

١ــ أن يكون الموضوع العام للمؤتمر العام المقبل « حماية الأسرة والنهوض بها صحياً واقتصادياً واجتماعياً » على أن يدرس الاتحاد النسائي في كل قطر مختلف المشكلات وأنجع الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، معطياً الأولية في دراسته لأكثر الموضوعات أهمية في بيئاته المحلية مما يشمله موضوع الأسرة ، كالنقاط الآتية :

(أ) الحد من سوء استعمال الشريعة في العلاقات الزوجية . (ب) التربية والتعليم . (ت) مكافحة الأمية . (ث) المدارس المهنية للفتيات . (ج) الاصلاحيات للأحداث . (ح) مكافحة التشرد . (خ) إنعاش الريف . (د) رفع المستوى الأخلاقي . (ذ) مشكلة السكن . (ر) توجيه المرأة للقيام بواجباتها السياسية والاجتماعية ... الخ .

٢ــ استمرار السعي لتحقيق المساواة السياسية والمدنية .

٣ــ تشجيع المنتجات الوطنية العربية والسعي لرفع الحواجز الكمركية بين الدول العربية .

٤ــ إصدار مجلتين باللغتين العربية والانكليزية للدعاية .

٥ــ العمل على تشديد الحصار الاقتصادي على إسرائيل .

٦ــ تبليغ الاتحاد النسائي العربي العام بما يقوم به كل اتحاد على انفراد من جهود ، حتى يؤيده في جهاده في حينه .

٧ــ برقية تأييد للمرأة التونسية في كفاحها الوطني النبيل .

٨ــ برقية احتجاج على الأعمال البربرية الفرنسية في تونس ترسل الى مجلس الأمن والأمم المتحدة وممثلي الدول الأجنبية في بغداد .

٩ــ إرسال برقية لسكرتير الأمم المتحدة ورئيس الولايات المتحدة للسعي الى حل قضية اللاجئين حلاً عادلاً وسريعاً ومرضياً .

١٠ــ انتخاب شارة لأعضاء الاتحاد العربي العام .

١١ــ عقد المؤتمر العام التالي في دمشق .

١٢ــ انتخاب السيدة آسيا توفيق وهبي ، وعصمت السعيد لتمثيل الاتحاد النسائي العربي العام في الباكستان يوم ٢٩ آذار ٩٥٢ .

واتخذ مقررات أخرى ، منها ندب بعض عضواته الى تونس لمواساة سكانها والبحث في مشاركة المرأة في المهرجان الألفي لابن سينا .

مؤتمرات أخرى

والآن بعد أن وقفنا على أهداف بعض المؤتمرات التي سايرت النهضة النسوية في العراق ، وتأملنا آثارها ونتائجها ، نشير بعجالة الى المؤتمرات الأخرى التي هيأت الفرص للعراقية حضورها :

(١) مؤتمر السلم النسائي العالمي في باريس ٢٧ أيلول ٩٤٧ ، مثل الاتحاد النسائي العراقي فيه كل من حرم السيد تحسين قدري ، والسيدة رفيعة جودت .

(٢) المكتب الدائم للاتحاد النسائي العربي في القاهرة في ١٠ تشرين أول ٩٤٧ السيدة منيبة ثنيان .

(٣) مؤتمر الاتحاد العربي في بيروت بين ١٥ــ١٨ مايس ٩٤٩ . قرر الاتحاد ندب السيدة سعاد العمري ، والآنسة صبيحة الشيخ أحمد الداود لتمثيله في المؤتمر ،

ولاعتذارهن رشحت الدكتورة سانحة أمين زكي ، والسيدة مديحة الأثري ، وقد مثلتاه أيضاً في اجتماع لجنة حقوق المرأة .

(٤) المؤتمرات النسائية في بلجيكة وفنلندة والدانمارك ، ابتداء من ٢ أيلول ٩٥٠ ، مثل الاتحاد النسائي العراقي الآنسة شفيقة الباجه‌جي .

(٥) مؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام في بيروت في ٢٧ تموز ٩٥٠ ، مثل الاتحاد وفد من عضواته برئاسة رئيسته .

(٦) مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي في الباكستان ، عقد في ١ آب ٩٥١ ، وقد مثل الاتحاد النسائي وفد يضم السيدات : آسيا توفيق وهبي ، وعصمت السعيد ، وبدرية محمد حسن سلمان ، والدكتورة لمعان أمين زكي ، وسعدية الرحال .

(٧) مؤتمر لندن النسائي ٩٥٣ ، مثلت الاتحاد السيدة عصمت السعيد .

(٨) مؤتمر شتوتكارت ٩٥٤ ، الآنسة سمية الزهاوي .

(٩) مؤتمر اتحاد منظمات العائلة الدولي النسائي في هيك ٢٥ تموز ٩٥٥ ، الآنسة سمية الزهاوي ، والسيدة عصمت صباح السعيد .

(١٠) مؤتمر الاتحاد النسائي العالمي في كولومبو ١٧ آب ٩٥٥ ، السيدة سعاد العمري ، والسيدة عزة الاسترابادي .

(١١) مكتب الاتحاد النسائي العربي العام في القاهرة ٢١ آذار ٩٥٦ ، عصمت السعيد ، وعزة الاسترابادي .

(١٢) المؤتمر النسائي العربي ، عقد في دمشق بين ٩ و ١٥ أيلول ٩٥٧ وقد مثل جمعية الاتحاد النسائي العراقي وفد يضم السيدات : آسيا توفيق وهبي ، وعزة الاسترابادي ، ومائدة الحيدري ، وبهيجة شهاب ، وعائشة خونده ، وحسيبة الجيبه‌جي .

الجمعيات النسوية

عرفت العراقيـة الجديدة تنظيم الجمعيات أول مرة عام ٩٢٤ عن طريق نادي (النهضة النسائية) . وكانت فكرة إنشائه ـ كما ذكرت ـ قد اختمرت في اذهان طائفة من السيدات العراقيـات لتنسيق جهود المرأة ، وتنظيم فعالياتها الاجتماعية والثقافية . ولكن الحياة لم تكتب لهذه الجامعة النسوية الصغيرة ، فسرعان ما تألبت القوى المحافظة ، وتألبت بعض الظروف غير الصـالحة لنموه ، فاضطر على إيصاد أبوابه !

ومن الطبيعي أن تتحرك الأفكار بتلك الصورة التي أتيت عليها في فصل سابق ، وأن نشهد ذلك الصراع المكشوف ، تثير نقعه تلك الفئات المتزمتة ضد إسم لناد مثلاً ، وتغيب عن فطنة أولئك حقيقة رائعة ، هي أن جمال الفكرة التي دفعت النادي الى حيز الوجود ، لا يمكن أن تخبو أو تزول ، فلم يمض عهد بعيد ، حتى تفجر الوعي المذخور ، وتدفق بتوسع الثقافة ، وزيادة عدد المتعلمات ، وتحول اتجاه الحياة نفسها . نعم ، لم تعد المرأة تتأثر بالأحداث حسب ، بل أخذت تؤثر فيها . وبدأت تساهم في الأعباء الباهظة منها على بصيرة وهدى ، كما حـدث في حرب فلسطين ، وخلال الأزمات والكوارث الطبيعية ، ضاربة بذلك الحظ من الخدمة الصـادقة ، لا تشوبها شائبة ، ولا يكدر صفوها كدر من الأكدار .

ومن دراســـة الجمعيات والمؤسسات النسوية التي أسست منذ عام ٩٢٤ الى اليوم ، نجد أن هذه الهيئات ، بصفة عامة ، تلتقي في رحاب مباديء اجتماعية وثقافية وإنسانية واحدة ، وتصدر مناهجها من معين التكافل والرعاية والاجتماعية ، ركازها

إنشاء المعاهد وإقامة المستوصفات وإرشاد الأسر الفقيرة وحماية الأمومة والطفولة .. حتى تلك الجمعيات التي اصطبغت بطابع سياسي ـ كنادي أخوات الحرية الذي أسس سنة ٩٤٤ ، وجمعية مكافحة النازية والفاشيستية سنة ٩٤٢ ـ لم تهمل قط تلك الجوانب ، كانت الجمعية الأخيرة ـ وقد تحولت فيما بعد الى جمعية الرابطة النسوية ـ تسعى الى رفع مستوى المرأة الثقافي عن طريق المحاضرات العلمية والمناقشات الادبية ومكافحة الأمية في ستة مراكز لتعليم نحو ٢٠٠ من الأميات في وقت واحد .

أما نادي أخوات الحرية ، فقد أسس في نيسان ٩٤٤ بجهود المس مارغريت دراور ، كريمة مستشار العدلية في الحكومة العراقية سابقاً ، وضم ستين من العضوات . وكان النادي يعرض أفلاماً ثقافية موجهة ، مضافة الى نشرة اخبارية يصدرها بمعاونة بعض عضواته ، وأسس فروعاً في جميع أنحاء العراق لتحسين حالة العائلة الريفية ومعالجة الأطفال المصابين وغير ذلك من الشؤون الاجتماعية .

ووجدت الجمعيات النسائية ذات الصفة الدينية طريقها أيضاً ، وهدفها كما هو واضح ، إنساني إجتماعي محض ، كجمعيات الشوّاب المسيحيات ، وجمعيات الراهبات ، وجمعية الأخت المسلمة ، وجمعية السيدات اليونانيات لاسعاف الفقراء ، وجمعية الرفق بالفقير ، وجمعية الأمهات التابعة للكنيسة الآثورية الانجيلية ، والجمعية الخيرية للسيدات ، وجمعيات إسعاف المرضعات .

وظهرت جمعيات أخرى في ميدان النشاط الاجتماعي ، كنادي البنات البغدادي ، وجمعية خريجات دار المعلمات في بغداد ، ونادي المعلمات ، وجمعية مكافحة الأمية النسائية ، وجمعية مكافحة المسكرات التي أسستها السيدة سارة فاضل الجمالي عام ٩٣٧ ، وتحولت فيما بعد الى جمعية مكافحة العلل الاجتماعية . وكان لهذه الجمعيات ، على العموم ، فضل لا ينكر على قضية المرأة العراقية بما كانت تسديه من خدمات

اجتماعية شملت طوائف غير قليلة من أبناء البلاد وبناتها ، وهيأت لهم فرص التعليم والشفاء .

وقد ارتفع عدد الجمعيات النسائية خلال الحكم الوطني الى نحو من أربعين جمعية في بغداد والأقاليم ، ألغيت بمقتضى مرسوم تأليف الجمعيات الذي صدر عام ٩٥٤ ، ولكن بعضها استأنف أعماله بترخيص جديد ، ومنها :

١ ـ الاتحاد النسائي

أنشيء الاتحاد النسائي العراقي سنة ٩٤٥ بنتيجة المقررات التي اتخذها مؤتمر الاتحاد النسائي العربي في القاهرة ، ووضع نصب عينيه الأخذ بيد المرأة ، ورفع مستوى العائلة ، وخدمة المجتمع بوسائل عديدة ، منها :

١ـــ توثيق الروابط التعاونية بين الجمعيات النسائية المختلفة في العراق .

٢ـــ توثيق الروابط الثقافية والاجتماعية والقومية مع الجمعيات النسائية في الأقطار العربية .

٣ـــ توثيق العلاقات بين الجمعيات النسائية في العراق والمؤسسات العالمية التي تستهدف رفع مستوى المرأة والمجتمع في العالم .

٤ـــ توثيق جهود نساء العراق لرفع مستوى المرأة العراقية صحياً واجتماعياً ومدنياً وشرعياً واقتصادياً .

٥ـــ يجب أن تعتبر الجمعية المنضمة للاتحاد نفسها فوق الاعتبارات الطائفية والعنصرية والدينية .

٦ـــ تسعى الجمعية الى الوصول لأهدافها بكل الوسائل الدستورية والقانونية المعروفة .

وقد وجه الاتحاد اهتمامه في الناحية الثقافية الى رفع المستوى العلمي والأدبي والفني باقامة مواسم ثقافية ، دعا للمشاركة فيها العلماء والأدباء والاخصائيين رجالاً ونساء لالقاء محاضرات في ناديه مرتين في الشهر ، تليها مناقشات حرة لاثارة الأفكار وتوجيهها توجيهاً صحيحاً . وإقامة سلسلة حفلات موسمية وتمثيليات منتخبة للترفيه أولاً ، ورفع الذوق الفني في المجتمع ثانياً ، وعرض أفلام علمية واجتماعية وثقافية في نادي الاتحاد .

وحقق بعد جهود مواصلة إلغاء « البغاء العام » الذي كان يعتبر وصمة في جبين المجتمع الانساني وهدم محلته .

وفي تحسين أحوال المرأة ، سعى الى الظفر بحق المرأة في التملك ، بعد إلغاء الوقف الذري . ومواصلة الجهود لسن قانون خاص باجراء الفحص الطبي على طالب الزواج والحصول على شهادة طبية قبل الزواج . ونادى باعطاء الطفل للأصلح من الأبوين في حالات الانفصال . وفي الوقت عينه ، سعى الى رفع مستوى الممرضات الى مرتبة الموظفات في الدولة .

ويعد حصر الاتحاد النسائي جهوده للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة ، وإعداد أسبوع لهذا الغرض في عام ٩٥٤ ، ومطالبته بمنح الحقوق الانتخابية للمرأة المتعلمة التي تزيد ثقافتها على الابتدائية ، من أخطر أعماله شأناً ، وأجلها أهمية ، في تأكيد هذا الجانب من كفاح المرأة والسعي لتثبيته[1] .

وعمل الاتحاد النسائي كذلك على إثارة قضايا شرعية ، اتصل معظمها بالمهور وحوادث الطلاق والشؤون الاجتماعية الأخرى . وما يقال عن موقفه هذا ، يقال عن مساهمته في إقامة اكتتابات خاصة في بعض المناسبات القومية ، أو في الكوارث الطبيعية ، فقد بذل جهداً طيباً في سنة ٩٤٨ بارسال مواد الاسعاف الى الجيش العراقي وسكان القرى الأمامية ، وحشد قواه في كارثة الفيضان عام ٩٥٤ . ونهض بأعباء

(١) نظم علماء بغداد أسبوعاً (للفضيلة) في أعقاب الأسبوع المذكور !!

أكثر من اكتتاب ، ولا سيما بعد الاعتداء على مصر عام ٩٥٦ ، ومثل ذلك في إسعاف منكوبي الشعب الجزائري .

وقد توقف الاتحاد النسائي عن نشاطه ، كمؤسسة تجمع الهيئات النسوية ، منذ صدور مرسوم تأليف الجمعيات عام ٩٥٤ الذي حظر تدامج جمعيتين أو أكثر ، ولكن بعض المشتغلات في الحقل النسوي ما لبثن أن حصلن على رخصة بتأليف جمعية باسم (الاتحاد النسائي) برئاسة السيدة آسيا توفيق وهبي ، وعضوية السيدات : بتول عبدالاله حافظ ، وحسيبة أمين خالص ، وعزة الاسترابادي (أمينة السر) ، وعائشة خونده ، وظفيرة جعفر ، وعفيفة البستاني ، ومرضية الباجه‌جي ، وفتوح الدبوني .

٢ ـ الهلال الاحمر

أسس الفرع النسوي لجمعية الهلال الأحمر عام ٩٣٣ برعاية الملكة حزيمة ، وبقي كذلك حتى عام ٩٤٥ ، عند ما تقدمت نخبة من عضواته بطلب تشكيل فرع جديد يكون مستقلاً إدارياً ومالياً ، مع محافظته على علاقته الوثيقة بجمعية الهلال الأحمر وتعاونه معها لتحقيق أهداف الهلال الانسانية[1] . وبهذا يكون (الفرع) ، الجمعية النسائية الوحيدة التي ظلت تمارس أعمالها منذ ربع قرن حتى اليوم من دون انقطاع ، أنجز خلالها أعمالاً اجتماعية وانسانية لم يقتصر نفعها على العراق والعراقيين ، بل شملت أقطاراً كثيرة ، وساهمت في تخفيف ما أحاق بها من الويلات والنكبات .

وقد عزز مركز (الهلال النسائي) ودفع بأعماله الى الأمام ، تلك الرعاية النبيلة

---

(١) ينص النظام الأساسي للهلال الأحمر على عدم التفريق في الدين والجنس .

للأسرة المالكة ، فقد كانت الملكة عالية ووالدتها الملكة نفيسة ، وشقيقتاها الأميرتان بديعة وجليلة ، في مقدمة عضواته ، وكن يحضرن الى مركزه عدة أيام في الأسبوع لخياطة الملابس لأطفال الفقراء .

وقد تبنى الهلال النسوي — برغم أن أهدافه الأساسية تنحصر في تخفيف الويلات والكوارث فقط — عدة مشروعات ، منها ثقافية نافعة ، كفتح صفوف خاصة للتمريض والاسعاف ، أو لتعليم الخياطة والتدبير المنزلي . ومنها اجتماعية ، كفتح المستوصفات والمشافي لمعالجة الفقراء ، مثل مستوصف الشاكرية الصحي والاجتماعي وتوزيع الكسى والمواد الغذائية عليهم . ومنها قومية عظيمة ، كالذي حدث في عام ٩٤٨ بعد دخول القوات العراقية الى فلسطين ، حيث نهض باكتتابات واسعة لهذا الغرض. وكانت مساهمة الهلال الأحمر النسوي جليلة للغاية ، فقد أوفد بعثة برعاية الملكة نفيسة وسمو الأميرة بديعة ، على رأس ٣٥ متطوعة الى مستشفيات الهلال الأحمر العراقية في اربد ونابلس . وساهمت هيأته الادارية بالسفر الى فلسطين لمواساة الجرحى وتوزيع الهدايا على قوات الجيش العراقي الباسل واللاجئين الفلسطينيين ... وعلى ذكر اللاجئين الفلسطينيين ، فقد قام الفرع بخياطة ١٠٫٠٠٠ قطعة من الملابس في عام ٩٤٩ وزعها عليهم مع كميات كبيرة من الحلوى والمواد الغذائية ، ثم لم يدخر بعد ذلك جهداً في سبيل وجدان العمل لهم والترفيه عنهم .

وقد توّج الهلال الأحمر النسوي أعماله بانشاء ميتمة تضم الآن ٤٥ فتاة ، وضع سمو الأمير عبدالاله عند ما كان وصياً على العرش حجر الأساس لها عام ٩٥٠ ، وافتتحها جلالة الملك فيصل رسمياً في عام ٩٥٣ . وتعد هذه الميتمة من المشاريع النسوية الناجحة ، وتصح أن تكون نموذجاً لغيرها ، من ناحية التصميم ، والعمل والتوجيه ، ولم يقصر الهلال الأحمر النسوي جهوده على هذه الميتمة ، وإنما ساهم مساهمة مثلى في عمليات الاسعاف في كارثة الفيضان عام ٩٥٤ ، وفي غيرها من الأزمات

بحكم أهدافه الانسانية . وفي سنة ٩٥٧ احتفل بيوبيله الفضي ، وما زال يسير سيراً حثيثاً منظماً لتنفيذ رسالته الانسانية والقومية . ويتبنى في الوقت الحاضر مشروعاً ضخماً بانشاء دار للحضانة ، يعتمد في موارده على معاونات الأسر الغنية ، ويعمل على حضانة أطفال الفقراء .

وتضم الهيأة الادارية الحالية له الأوانس والسيدات : سعاد العمري ، وعلية سامي فتاح ، ونزهت عقراوي ، وأسماء منير عباس ، وساجدة شاكر عبدالوهاب ، وسامية الراوي ، وصبيحة الشيخ داود .

٣ ـ جمعية حماية الاطفال

تشكل الفرع النسائي لأول مرة في ١٢ مارت ٩٤٥ ، وانتخب أول هيأة ادارية له من : آسيا توفيق وهبي رئيسة ، وعصمت السعيد نائبة للرئيسة ، وصبيحة الشيخ داود سكرتيرة ، ووجيهة الجلبي أمينة للصندوق ، وسرية الخوجة ، وشفيقة الباجه‌جي ، وسعاد العمري عضوات . وقد تعهدت الجمعية بالعمل على رعاية الأمومة والطفولة ، وتحسين النسل ، والاهتمام بصحة الحوامل ، ومساعدة العوائل الفقيرة ، وتوزيع الحليب والأدوية والغذاء بينها ، مضافاً الى المعالجة المجانية ، وتوزيع الملابس وتوجيه الأمهات .

ومن الأعمال البارزة للجمعية ، أنها افتتحت في أول كانون أول ٩٤٦ مستوصفاً في الشيخ عمر ، ونظمت دورة للأمومة ، شاركت فيها ٣٠ طالبة ، استخدم بعضهن زائرات صحيات .

وافتتحت في ٢٥ كانون أول ٩٤٧ مستشفى ضخماً للأمومة والطفولة في الشيخ عمر ، وفي سنة ٩٤٩ تعاون بعض عضواته في اكتتاب انفق على تجهيز الأطفال في مصيف صلاح الدين بالملابس والمواد الغذائية .

وكان لجمعية حماية الأطفال النسائية جهـــد مشكور في التعاون مع الاتحـاد النسائي بالترفيه عن القوات العراقية المحاربة في فلسطين ، وإكساء أطفال اللاجئين ، كما ساهمت بانشاء ناد رياضي ثقافي توجيهي في سنة ٩٥٦ .

ويتصدر مشروعات الفرع ، المبرة التي افتتحها في سنة ٩٥٢ وأطلق عليها اسم (الملكة عالية) ، إعترافاً بالجهود التي أسدتها الملكة الراحلة لهذه الجمعية ودفعهـا الى الأمام .

وتضم الهيأة الادارية الحـالية : آسيا توفيق وهبي ، وبتول عبدالاله حافظ ، وعاطفة الخضيري ، ومديحة بابان ، وناهدة الشابندر ، وعلية المفتي ، ونوير سعيد نزهت ، وعائشة خونده ، وحسيبة أمين خالص .

٤ ـ جمعية بيوت الامة

أسست جمعية بيوت الأمة في عام ٩٣٥ لمكافحة الأمراض بالاكثار من إنشاء المستوصفات وتيسير المعالجة ، ومكافحة الجهل بفتح مدارس تعليم الأميين للذكور والاناث .

وقد اضطلع الفرع النسائي بأعمال مثمرة ، كجمع الاعانات لمنكوبي فلسطين ، وإكساء اللاجئين ، وفتح المدارس المسائية ، ومعاونة منكوبي الفيضان ، وأنشأ الفرع ميتمة الملكة عالية ، وتضم ١٠٠ فتاة في الوقت الحاضر . وقد اتفقت الجمعية أخيراً مع الادارة المحلية على إدامة المشروع ، مع بقاء إشرافها عليه ، غير أنها تعتزم الآن إنشاء دار للحضانة ، ومشغل للتعليم المهني للفتيات .

والهيأة الادارية للفرع تضم السيدة علية يحيى قاسم ، والآنسة ظفيرة جعفر ، والسيدة فخرية شيخون ، والسيدة بدرية علي رضا .

٥ ـ جمعية مكافحة العلل الاجتماعية

أسستها السيدة سارة الجمالي سنة ٩٣٧ مع نخبة من السيدات العراقيات ، وهي أول جمعية نسوية تحصل على إجازة رسمية بتكوينها . وكان هدفها في الأصل مقصوراً على محاربة المسكرات وانقاذ مدمني الخمر ومحاربة تجارة الخمور ، ولكن الجمعية تبينت ، بمرور الأيام ، أن مشكلة الخمور ليست المشكلة الوحيدة في العراق ، فقررت أن توسع أعمالها وغاياتها ، فقدمت في سنة ٩٤٥ طلباً الى وزارة الداخلية لتبديل اسمها من (مكافحة المسكرات) الى (مكافحة العلل الاجتماعية) وضمت الى هدفها الأول أهدافاً جديدة لمكافحة الآفات الثلاث : الفقر ، والجهل ، والمرض .

ومن أعمال الجمعية ، أنها ألفت لجاناً من عضواتها للاشراف على سجون النساء والمدارس الاصلاحية ، والقيام بزيارات لبيوت المحكومين من نزلائها والاحفاء ببحثها من مختلف النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وأنشأت معهدين : (١) مدرسة رمزي للأطفال المتخلفين عقلياً ، وتتولى ادارته السيدة فتوح الدبوني التي سبق أن تلقت دراسة خاصة في تعليم الصم والبكم من جامعة مانشستر في بريطانية على حساب منظمة الأمم المتحدة . (٢) معهد تعليم الخياطة ، وقد ارتفع عـــدد المكائن المستخدمة فيه من ٢ عند انشائه الى ٨٠ .

وتضم الهيأة الادارية الحالية السيدات والأوانس : مرضية الباجهجي ، وحسيبة الجيبهجي ، ورشدية الجلبي ، وفتوح الدبوني ، وشهبال فاضل . أما العضوات الدائمات فهن السيدات : سارة الجمالي ، وآسيا توفيق وهبي ، وعائشة خونده .

٦ ـ جمعية البيت العربي

نهضت جماعة من المشتغلات في التعليم عام ٩٤٨ بهذه الجمعية لايواء النساء

والأطفال الذين يفقدون المأوى ووسيلة العيش ، بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية ، وظهرت ـ أول مرة ـ إثر تأزم الحالة في فلسطين ، وأطلقت على نفسها اسم (البيت العربي) ، باعتبارها البيت العربي الكبير الذي فتح أبوابه للاجئين ، مدفوعاً برغبة صادقة في الخدمة الحقة وإيمان أكيد بعدالة القضية الفلسطينية .

وقد ساهمت الجمعية بانشاء ميتمة للفقيرات المشردات وأرصدت مبالغ لتعليم طالبين من اللاجئين في الكليات العالية في القاهرة . وفي عام ٩٥٦ حققت الجمعية مشروعاً بانشاء أول دار للحضانة في العراق ، عدّ من أكثر المشاريع الاجتماعية الناجحة .

وتضم الهيأة الادارية للجمعية السيدات والأوانس : أديبة ابراهيم رفعت ، والدكتورة لمعان أمين زكي ، ومحاسن الكيلاني ، ومآرب علي جواد ، والدكتورة سعاد خليل اسماعيل ، ولميعة عباس عمارة ، وآمنة أحمد رمزي ، وفاطمة أحمد قدري ، ونزيهة الأعرجي .

٧ ـ جمعية أخوات الرفق بالفقير

تضم هيأتها الادارية السيدات : عقيلة معالي المرحوم يوسف غنيمة ، وماري سركيس ، وماري يونان ، وبدور عجاج ، وجوزفين منكسريان ، وانطوانيت شماس ، وصوفي عساف ، وبولبت توتونجي ، وعفيفة نعمان ، وإنجيل اندريا ، وماري نيس ، وإنجيل بابو اسحاق . أما أهدافها فتنحصر باعالة بعض العوائل الفقيرة ، وتوزيع منح سنوية عليهم ، وتتولى في الوقت ذاته الانفاق على الطلبة الفقراء في المعاهد العالية ممن يبرزون في الدراسة الابتدائية ، وتربية بعض اليتيمات . ولعدم وجود ميتمة تابعة للجمعية ، فانها تضطر الى إيوائهن في مدرسة الراهبات على نفقتها . وتنتهز الجمعية

مناسبات الأعياد لتوزيع الملابس والمساعدات العينية الأخرى . وقد ساهمت الجمعية بقسط كبير في اسعاف اللاجئين الفلسطينيين .

٨ ـ جمعية الأخت المسلمة

بدأت نشاطها عام ٩٥١ ، كفرع لجمعية الاخوان المسلمين . وبعد صدور مرسوم تأليف الجمعيات حصلت على رخصة في عام ٩٥٥ للعمل مستقلة باسم جمعية الأخت المسلمة . وتنحصر أهداف الجمعية في : (١) العمل على بث العقيدة الاسلامية الصحيحة في الأوساط النسوية . (٢) نشر التعاليم الاسلامية والدعوة للتمسك بها . (٣) تربية المرأة تربية اسلامية وتكوين البيت على أساس اسلامي متين . (٤) مكافحة روح التفرنج والتحلل الأخلاقي .

ومن وسائلها : عقد الاجتماعات النسوية ، وإلقاء الدروس والمحاضرات الدينية والعلمية والتهذيبية ، وطبع الكتب والرسائل والنشرات الدينية ونشرها بين الناس ، وفتح الدورات الصيفية للتعليم والتهذيب . وهي تسعى الآن لانشاء مركز عام لها .

وتضم الهيأة الادارية للجمعية الأخوات : نهال الزهاوي (الرئيسة) ، وفاطمة الباجهجي ، وخيرية المفتي ، ومديحة شاكر ، وصفية نجم الدين الأطرقجي ، وآمنة محيي الدين شيخ العرب ، وعدوية الشواف ، ونجية خضر ، وآمنة محمد .

العراقية في التيارات الأدبية والفكرية

إن أثر المرأة في الأدب العراقي قد يبدو ضئيلاً لأول وهلة . وقد أدى هـذا الشعور الى المساءلة الدائمة عن علة عدم ازدهار الأدب النسوي وتركزه واتضاح معالمه .

وأرى أن إعطاء جواب سليم لهذه المساءلة يتطلب إحاطة أعمق غوراً من النظرة السطحية التي ننظر بها الى قضايانا العامة . ذلك أن الأدب ، قبل كل شيء ، عملية فكرية ، ومحاولات اجتماعية شاقة تفتقر الى المرانة الطويلة والجهد المواصل ، والجرأة القادرة على التحدي ، والصمود في الدفاع عن فكرة ناجحة .

على اننا ـ في ضوء هذه المقاييس والاعتبـارات ـ لا نستطيع أن نتهم العراقيـة بالضعف ، والانطوائية في هـذه النواحي جميعها . ذلك أن إلمامة سريعة بالنهضة النسـائية تقودنا الى أن العراقية أحاطت بعوامل تأخرها ، وعملت على تفاديها عن طريق الثقافة والمعرفة . وليس في وسعنا كذلك أن نلقي عليهـــا وحدها تبعة تخلفها عن تيار الحيـاة الفكرية ، وعـدم ظهورها فيها بذلك المقدار الذي أصاب نشاطها وتقدمها في الميادين الأخرى . ولست أنسى أني ضقت ذرعاً بأسئلة عديدة توجه بها إليّ أحد الأدباء الباكستانيين قبل عامين عن مكانة المرأة في الحياة الأدبية ؟ وكانت حيرتي عظيمة ، إذ لم أستطع أن أستشهد بشاعرات وأديبات يتجاوز عددهن أصابع اليدين .

واذا أنعمنا النظر في أسباب الفقر الماثل في هذا الميدان حتى الآن ، نراه يرجع الى عاملين اثنين :

١ــ تأخر العراقية عن ارتياد مناهل العلم ، كما أشرت اليه غير مرة في هذا الكتاب ، لمؤثرات اجتماعية وسياسية . فبينما النهضة العلمية الحديثة في مصر ترجع في أصولها الى أكثر من قرن ، وفي لبنان وسورية الى سنة ١٨٧٨ ، نرى أن تعليم المرأة العراقية لم ينتظم قبل مرور عدة سنوات من تأسيس الحكم الوطني . وقد تخلفت العراقية عن أخيها في مضامير الحياة الفكرية لأمر ذي بال ، ذلك أن ما يشبه الحجر كان مضروباً على المرأة ، فلم يكن من السهل عليها في مبدأ إقبالها على التعليم أن تظفر بثقافة عامة ، وتتمتع بما يتمتع به الرجل وهو يعبّ ما استطاع من ينابيع الكتب ، ويصيب حاجته من الدواوين القديمة ، فنمت بذلك عنده ملكة الابانة عن نفسه ، وعن مشاعره ، فكان أسبق وأكثر حرية في الافصاح عما يجول في نفسه من المرأة .

٢ــ وعدا ذلك ، كان فراغ الرجل أكثر اتساعاً من فراغ المرأة . فراغ يملؤه بعضهم بقراءة الشعر ، وفنون الأدب المتيسرة ، بينما كانت الأعمال البيتية تثقل كاهل المرأة ، حتى لو استطاعت القراءة أو كان لها بعض الهوايات الأدبية .

ولما بدأت الأوضاع الاجتماعية والعقلية تتغير شيئاً فشيئاً ، بدأنا نرى النهضة الأدبية النسوية في العراق في طلائع جميلة تفوح بعبير عاطفة المرأة ، وتحمل في كثير من هذه البراعم اتجاهاً جديداً قائماً على الانطلاق والانفلات من ذلك الاسار العقلي الذي لم تتحرر منه نفسياً ، وأخذ شعر المرأة يتحول في الأعوام الأخيرة بعض الشيء الى التعبير عن الانفعالات الوجدانية والعاطفية ، وأخذنا نقرأ لها شعراً جميلاً يمور بالعاطفة ويقدس الحق والجمال ، ويعبر بعض الشيء عن خلجات النفوس ، ووجيب القلوب . وأخذت أغراض الشعر لدى المرأة تتعدد أيضاً . كانت في أوائل الحكم الأهلي تجري ضمن اطار ضيق مجرد للدعوة الى استنهاض الهمم واستثارة العزائم ، كقول فيروزة توما سنة ٩٢٤ :

يا فتاة العرب ما هذا الرقاد طال ليل الجهل (يا ميّ) وساد
إن نهضت بان صبح للبلاد أو قعدت فالهنا عنها رحل

ومنها :

حية أنت فما هذا الجمود حرة أنت ! فما هذي القيود ؟
كسريها وابديلها بعقود صاغها العلم لربات الحجل

واذا نحن بشعر المرأة يتطور خلال ثلاثين عاماً الى الافصاح والابانة عما يتصل بالمرأة من عواطف وأحاسيس ، وأفراح وأشجان ، وبغض وحب .

وبدأت المرأة هذه الأيام على صفحات الصحف تتحدى بجرأة ، وتنتقد بصدق ، وتعالج مشكلاتها ، وتتعرض بالدرس والاحفاء لما يهمها ويهم وطنها بتحليلات دقيقة وتفكير سليم .

ولم تفرط الأديبة في العراق في ألوان الأدب المختلفة ، بل جعلت منها مرقاة للتدليل على علو كعبها ، وصبرها على المعالجة . وقد لقيت قصص السيدة ماهرة النقشبندي ، الموضوعة والمترجمة مثلاً ، اهتماماً من النقاد والأدباء ، وكانت كبريات مجلات العالم العربي تفتح صفحاتها لنشر بنات أفكارها ، تصوغها في بيان رائع بليغ . وهذه السيدة تخرجت في كلية الملكة عالية ، وتلقت تعليمها وهي أم لطفلتين . وفي ميدان الأدب أيضاً تفتحت زهرات أخرى ، كسافرة جميل ، وآمال الأوقاتي التي ترجمت « مرحباً يا حزن » لساغان ، ونعيمة نديم ، وأمينة الرحال ، وافتخار الوسواسي ، وأديبة ابراهيم رفعة ، وعزة الاسترابادي ، وعفيفة رؤوف ، والدكتورة نزيهة الدليمي ، والدكتورة لمعان أمين زكي ، ووديعة جعفر الشبيبي ، ونجية حمدي ، ولميعة الأورفه‌لي ، ووجيهة رضا الشبيبي ، وصبيحة ومديحة الهاشمي ، وفائقة النقيب ، وفاطمة الزيبق ، وسعاد الهاشمي ، ورزينة الزهاوي ، وحياة الزيدي ، وباكيزة أمين خاكي ، ووديعة طه النجم ، ورفيعة الخطيب ، وابتهاج عطا أمين ، وغيرهن كثيرات .

إننا نؤمن بأنه لن يستبعد الزمن الذي تطرق فيه المرأة أبواب الادب الاخرى وتتخذ منها وسيلة تبسط عن طريقها ما يحيط بها من مشكلات وشجون . ومما يدعو لهذا التفاؤل أن الأسماء والأقلام النسوية في كتابة المقالة تزايدت في الاعوام الاخيرة ، وعلى الذين يرون فراغاً في الادب النسوي وفي الحياة الادبية أن لا يتجاهلوا تلك العقبات التي عرقلت مشاركة العراقية مشاركة فعالة في ميدان الادب .

بقيت بعد ذلك مسألة جديرة بالعناية .

أن الادب النسوي وازدهاره خاضعان بالدرجة الأولى — وربما أكثر من الثقافة — للشجاعة ، فالمرأة العراقية — الاديبة والشاعرة — لا تعوزها قدرة التعبير بقدر ما تعوزها الشجاعة على مواجهة الآخرين بآرائها وأمانيها . فالغزل وهو أوسع ميادين الادب أمام الرجل ، لا يزال مغلقاً الى حد كبير أمام المرأة . فما من فتاة تجيش في نفسها عاطفة الحب ، ويدفعها لقول الشعر فتقوله ، حتى تعود لتخنق ما قالت ، وتحبسه لنفسها ، أو تقرأه هامسة خائفة . وحتى تلك القلة من شاعراتنا ما زلن ينسجن عواطفهن في برود من التحفظ والتوجس ، مع أنهن يعلمن علم اليقين أن الابانة عن مشاعرهن حق من حقوقهن لا وجه للمجادلة فيه .

ومع ذلك يجب أن نقرر باكبار وإعجاب أن السنوات الاخيرة اقترنت بأسماء لامعة حفلت باهتمام النقاد ، وعنيت بها أقلام المتأدبين والدارسين نشير الى بعضهن بايجاز[1] :

---

(١) لمن يطلب المزيد أن يراجع أدب المرأة العراقية للدكتور « أحمد بدوي طباة » وغيره من المقالات المتفرقة هنا وهناك .

رباب الكاظمى

ولدت في الثاني والعشرين من أغسطس ١٩٢٨ في القاهرة ، وورثت عن والدها الشاعر العراقي الكبير عبدالمحسن الكاظمي سليقته الشعرية في صدق العاطفة وبلاغة التعبير والتحسس بالمجود القومية .

- حظيت قصائدها باهتمام الصحافة العربية ، ولفتت اليها أقلام النقاد .
- من قصائدها المشهورة « أنا رباب الشاعرة » . ومنها :

شـــاعرة بأنـــني خير فتـاة شاعره
إن ســـحر القـول فاني بمقـالي ســـاحره
بغداد لي إذ أنتمي مجدي ومصر القاهره
إن نسـبوا أخلاقنـا فهي الرياض الزاهره
أو ذكـروا أنسـابنا فهي الشموس السافره
إذا مشـــينا وقفت لعـــزنا القيـاصره
وإن بدينا سـجدت لنورنا الأكاســـره

وقصيدتها الى المرحوم الملك عبدالله :

يا غيث هل من قطرة من جودك الهطـال
يا بحـر هل لؤلؤة من تلـــكم اللآلي
تذهب في الأعناق لل أطواق والأغـــلال
يا ابن النبي نظـرة تعـيد لي اختيـالي

أم نزار الملائكة

السـيدة سلمى عبدالرزاق ، ولدت سنة ١٩٠٨ ، وتزوجت في سن مبكرة

من ابن عمها الأستاذ صادق الملائكة ، وهي والدة الشاعرة نازك الملائكة .

● عالجت الشعر لأول مرة في قصيدة عاطفية أبنت فيها الزهاوي . ومنها :

مَن لليلى ، وكنت ناصر ليلى ما عهدناك ناسياً ليلاكا
كنت حتى الجماد توحي إليه حين تشدو الشعور والادراكا

وتشير في هذا الى انتصاره لحرية المرأة . ومنها :

أيها الراحل الذي اختار دار الـ ـخلد مأوى ، نم وليطب مأواكا
إن قبراً حللت فيـــه مقيماً قد حوى الشعر والنهى منذ حواكا

● تأثرت بالشعر العربي القديم في أغراضه واتجاهاته ، كما تأثرت بالأحداث القومية الخطيرة في العصر الحديث ، كقضية فلسطين ، ومن ذلك قولها :

حادث فيـه للعـروبة ذل بعد عز قد طاول الأحقابا
أفترضى الليوث أن يطأ الغا ب عـدوّ فيستبيح الغابا

● وساهمت أم نزار في استنهاض المرأة العراقية :

رضيتن على الأسـر فهنتن مدى العمـر
وأمعنتن في الصـبر على غائلة الدهـــر
فهيا للهـــدى هيا الى النهضة كي نحيا
الى النهضة والعليـا لكي نبلغهـــا سعيا

نازك الملائكة

ولدت في سنة ١٩٢٣ ، وتخرجت في دار المعلمين العالية ، وتلقت دراسة أعلى في امريكة .

● شاعرة أوسع من الأفق العراقي المحلي ، وقد استطاعت موهبتها المتألقة أن

تشق أمامها آفاقاً بعيدة رائعة من الشعر والنثر ، لا يضاهيها إلا القلة من فحول الشعراء .

● لها دراسات أدبية ، ودعيت أكثر من مرة الى إلقاء محاضرات في خارج العراق ، وكانت من الوجوه البارزة في مؤتمرات أدباء العرب .

● لها دواوين مطبوعة . منها ، عاشقة الليل ، وقرارة الموجة ، وشظايا ، ورماد . وتعد الآن دراسة تربوية . يشيع في شعرها روح التشاؤم ، ولها :

أعبر العمر كله نحو أمسي ويعود الشعور بي للتلال
مجلس فوق تلي الحلو وحدي أو شرودي بين الشذا والظلال

***

أعبر عما تحس حياتي وأرسم إحساس روحي الغريب
فأبكي اذا صدمتني السنين بخنجرها الأبدي الرهيب
وأضحك مما قضاه الزمان على الهيكل الآدمي العجيب
وأغضب حين يداس الشعور ويسخر من فوران اللهيب

وقولها :

ماذا وراء الحياة ماذا أي غموض وأي سر ؟
وفيمَ جئنا ؟ وكيف نمضي ؟ يا زورقي أم لأي بحر ؟
يدفعك الموج كل يوم أين ترى غاية المقر ؟
أجري كما ترسم المقادير لي الى حيث لست أدري

صدوف العبيدية

● ولدت السيدة فطينة حسين النائب في سنة ١٩١٧ ، ووالدها هو الابن البكر للعلامة عبدالوهاب النائب . وكانت من تلميذاتي في المدرسة المركزية .

● تخرجت في دار المعلمات الابتدائية سنة ١٩٣٧ ، وتزوجت بابن عمها المرحوم الشيخ بهاء الدين سعيد ، وبعد وفاته عادت للدراسة في كلية الملكة عالية ، وتشغل اليوم منصب مفتشة في وزارة المعارف .

● تعتبر صدوف العبيدية من أبرز شاعرات العراق في قوة التعبير والابانة عن خلجات النفس ومحاولة الانطلاق الى آفاق في الشعر لم تطرقها غيرها .

● أصدرت سنة ١٩٥٥ أول ديوان لها باسم « لهيب الروح » ، وألقت جانباً من قصائدها في ندوات شعرية نظمتها الاذاعة العراقية وبعض الاذاعات العربية .

● منحت صدوف العبيدية ملكتا الشعر والنثر ، وتجلت فيهما عاطفة الحب والامومة . وفي ديوانها « لهيب الروح » تخاطب وحيدها (سعيداً) :

« يا أجمل أحلامي ، وأعز ما في الوجود ، لأجلك سأقاوي الدهر الغاشم ، وفي سبيلك سأرد عدوان كل ظالم . لقد خلقت من ضعفي قوة ، وها أنا ذي وحدي معك أصارع أمواج الحياة وهي تطفو بنا تارة ، وتكاد أن تطوينا في الاعماق تارة أخرى ، أمواج كالجبال ثائرة مزمجرة ، مزاجها لؤم البشر ، ودافعها جشع منهوم ، لايشبع إلا بالمادة ، بالمال واللحوم والدموع ، أمواج تزأر ، وتقهقه أعماقها : حقد وضغينة ، ووشاحها : رياء وخديعة ، وقناعها : بسمات وإغراء » .

ولها :

« إنني متفائلة حتى باليأس ، واثقة بالله وعنايته ، حتى عندما أرى الدنيا ظلاماً ، والآمال حطاماً . أحب الحياة ككتاب لذيذ ، جدير بالقراءة ، كما أحب الموت ككتاب لم أقرأه بعد ، وإن أحسست أحياناً أنه بيدي : واني على وشك قراءته .

● وتخاطب صدوف وليدها :

من العرب الكماة ورثت مجداً فكن ذخراً فقد صرت السليلا
وسر قدماً مع الايام وأصعد الى العليا ولا ترض القفولا

فديتك لا تهن وارفض خضوعاً فلست مناي إن كنت الذليلا
وفكر ما استطعت بكل أمر فخير الناس أرجحهم عقولا
وقلب كل رأي بارتياب الى أن يظهر الحق الدليلا

وقولها :

منحتك يا سعيد رقاد جفني ولن أرضى لعينيك الذبولا
فكن رجلاً وكافح في بلاد أرى عدد الرجال بها قليلا

● ومن شعرها العاطفي :

إلام الصمت يا قيثار والأيام تشقينا
وسحب اليأس والآلام تغدو فوق وادينا
سنصلى في جحيم الصمت تجفونا أمانينا
ونحيا والهوى طيف بعيد عن أيادينا

وفي « الورود الدامية » :

لم ذي الورود قطفتها يا صاح فأثرت مدفون الأسى بجراحي ؟
هذي الجراح الفاغرات تهيب بي أن أستغيث لكي يفك سراحي
والزهر ترمقني بمقلة شاعر قد ذاق ما ألقاه من أتراح
لم يا حبيب سقيتها فرويتها والري عند الناس غير مباح

☼☼☼

ما لي سوى قلبي النقي ينير لي سبل الرشاد الى ذرى طماحي
ما لي سوى روح يمض بها الأسى فأضيعها في غمرة الأرواح
ما ذا لدي سوى غيوم كلكلت سوداء تذكرني بأفق صاح

وفي « الوعود الضائعة » :

يا من وعدتم بحفظ العهد لا تعدوا فرب مصطبر قد خانه الجلد

والناس دأبهم غـــدر بلا سبب فويح من يرتجي وداً ويعتمـــد
خبرتهم فمللت الناس قاطبـــة وأحزم النـاس من يجفو ويبتعد

و « فراشة حول النار » من أروع منظومات فطينة :

حامت على النار لم تخش اللظى أبدا
وأسلمت جنحها للنـار فاتقـــدا
تدور ناشـدة إحراقها عمـــدا
وقلبها في غليـل الوجـد ما ابتردا
لمَ القساوة والتعـذيب يا شـرر
وشوقها دائم الاضـرام يســـتعر
غـداً تـذوبين والنـــيران تلويع
وحبـــل وصلك مقطـوع وممنـوع
وقد برى جسمك الاقصـاء والجوع
فؤادك الغـر يا حمقـاء مصـدوع
وأنت مثل الذي بالنـار ينتحـــر
قالت : رضيت ولا أجفو وأصطـبر

عاتكة وهبى الخزرجى

ولدت سنة ١٩٢٤ ، وتخرجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٥ ، فعينت مدرسة للعربية في إحدى ثانويات الاناث في بغداد . ثم سافرت الى باريس وحصلت في سنة ١٩٥٥ على دكتوراه الدولة من كلية الآداب في الصوربون . وتشغل اليوم منصب مدرسة في قسم اللغة العربية في دار المعلمين العالية .

● نشرت الصحف العراقية والعربية شعرها منذ سنة ١٩٣٩ ، وقد حققت وشرحت ديوان العباس بن الأحنف على حسب الأصول النشرية العلمية الحديثة .

● يغلب الاسلوب القصصي على عدد مهم من قصائدها . وقد انتهت منذ أربع سنوات من وضع مسرحية « مجنون ليلى » نهجت فيها نهج أحمد شوقي . ومن شعرها :

بلوت من الأيام كل عظيمة ... وحسبي أني قد ولدت بمأتم
وكانت أغاني المهد لي رنة الأسى ... ووقع نحيب قد برى قلب أيم
ولقنت في مهدي سجل مآتمي ... وكم هالني فصل الشقاء المجسم

وفي مأساة فلسطين :

إليك عن الشكوى فلسطين إننا ... نفوس ستحيا أو تكون حطاما
نفوس أبت أن تستكين لفاتح ... يرى الظلم ديناً والسفاه إماما
يقوّض أركاناً ليسند ركنه ... ويخفض هامات ليرفع هاما
تحكم في خيراتنا وأحالنا ... عبيداً عليها أن تذلّ دواما

ولها في نشيد الأمومة :

أنت معنى الحب ، بل معنى الحياه ... أنت نور فاض من نور الاله
أنت يا أماه من قلبي مناه ... أيعيش المرء دون الأمل

● انضمت الى نادي القلم في سنة ٩٥٧ ، وتعتزم طبع ديوانها قريباً .

لميعة عباس عمارة

تخرجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٥٠ ، وهي اليوم مدرسة العربية بدار المعلمات الابتدائية .

● نظمت أولى قصائدها في الخامسة عشرة من عمرها .

● يشيع اليأس والألم في شعرها ونثرها . وكانت لها رسائل ومطارحات

شعرية رائعة مع إيليا أبي ماضي الشاعر المهجري الكبير . ومن قصائدها :

ابتسمي يا نفس وانسي الألم وشاركي الغريد عذب النغم
فكل ثغر للربيع ابتسم إلاك يا نفس فما تطلبين

***

عونٌ به الحسن قشيب الثياب خلعته جرياً وراء السراب
أولعت بالقشر وعفت اللباب والناس بالصفو غدوا ناعمين

***

وا عجباً يا نفس كم تأبين لتافه الاشياء كم تألمين
لكل قول كاذب تحزنين ما ذاك يا نفس السبيل الأمين

ولها في « الأم » :

أماه يا هدى الطفولة والصبا
ويا نغمة الحنان التي تسري في نفسي
ويا ملاك الرحمة الذي يؤسيني في مصيبتي
دمت لقلبي حارساً . . ودام قلبي لك محباً

وفي « الدمية والطفل » :

الناس مثل الدمى تنقاد صاغرة والدهر كالطفل في لهو يحطمها

● وللشاعرة لمية نثر قوي العبارة ، متين الفكرة ، لا يقل في السمو والبلاغة عن شعرها .

مقبولة الحلى

في العقد الثالث من عمرها تخرجت في كلية الملكة عالية سنة ١٩٥٥ . عينت مدرسة للعربية في ثانوية الحريري للبنات .

● نشرت معظم الصحف والمجلات ، ولا سيما « العرفان » في صيدا ، لها شعراً لفت الأنظار الى هذه الموهبة الأدبية المتفتحة . ولمقبولة قصائد عديدة تطلق فيها شاعريتها لتطرق أبواباً لم تجرأ غيرها إلا القلة على مجاراتها فيها ، ولا سيما في الشعر العاطفي .

● وهي تعد الآن ديوانها للطبع . ولها في قصيدة « روحانية » :

أهواك روحاً وشعرا وفي خيالي ذكرى
وفي ظلامي نوراً يشع نبلاً وسحرا

***

يا مأمل الروح أني جنيت حبك زهرا
فان أتيت بذنب فانّ لي منك عذرا
وإن جنيت فاني أهواك ما عشت عمرا

وفي « نداء » :

أبعدنا الدهر على قربنا وبعدنا أهون منه الردى
ورحت استجدي الهوى علّه يدفع عني الغيهب الاسودا
وعدت في كفي جريح ومن حول عصوف لم يزل منشدا :
ما أنتما إلا هوى ميت فرددا : مات الهوى رددا

وتتحدث عن حبها في طهره وازدهائه :

إن حبي ليس كالحب : سفاهاً وادعاءا
ومنىً مظلمة اللجة ... تهتزّ اشتهاءا
إن حبي ، كرفيف الزهر ، طهراً وازدهاءا
كابتسام الارض بالعشب إذا تشرّب ماءا
كصلاة الآمن الداعي ابتهالاً ودعاءا

ولا ترى في الحب عاراً :

أنا فوق الظن ... لا إثم ولا ظِلّ لاثم
أنا أهـــواك وألقاك على آفاق وهمي
أنا أهواك فهل في الحب من عار وجرم ؟
أنا أهواك وما زلتَ مدى الأيام غُنمي
أنت مني ، كالشذى عطراً ، ماضيّ ويومي

وفي « أطل حديثاً » تتألق هذه الشاعرية الملتهبة بالوجدان والعاطفة :

أطلّ حديثاً .. إن منهلي سبحان مَنْ في خافقي فجّره
قد جفّ بالأمس فيا ظلمه أنى لهذي الروح أن تغفره

أميرة نور الدين داود

ولدت في بغداد في تموز ١٩٢٥ ، وتلقت الدراسة الابتدائية والثانوية في بغداد .

● التحقت عام ١٩٤٣ بكلية الآداب ـــ جامعة القاهرة ، وتخرجت فيها من فرع اللغة العربية عام ١٩٤٣ . وعادت الى العراق فعينت مدرسة على الملاك الثانوي . وفي خريف ١٩٥٤ سافرت الى القاهرة باجازة دراسية للتحضير لدرجة الماجستير في موضوع « الشعر الشعبي في منطقة الفرات الأوسط » ، فنالت فيها درجة الماجستير بتقدير جيد جداً في شباط ١٩٥٧ . وعادت الى بغداد ، حيث عهد اليها بتدريس اللغة العربية في دار المعلمات الابتدائية .

● بدأت بنظم الشعر عام ١٩٤١ بصورة ساذجة ، فشجعها والدها رحمه الله وعهدها الى صديقه الشاعر جميل أحمد الكاظمي لتأخذ عنه العروض والقوافي ، وسرعان ما أتقنتها ، وأخذت عنه نظم الشعر الكلاسيكي الذي يتمسك بالمدرسة

القديمة للشعر . وقالت الشعر في المناسبات الوطنية والقومية ، وفي الوصف . وقد نظمت الشعر في الرثاء حينما فقدت والدها وهي في مصر تحضر لدرجة الماجستير .

● وللأستاذة أميرة نور الدين مؤلفات عديدة ، منها « دروس من شعر إقبال » شعر لشاعر باكستان محمد إقبال ، نقلته الى العربية عن الفارسية ، وقامت السفارة الباكستانية في بغداد بطبعه في كراس عام ١٩٥٠ . « الشعر الشعبي العراقي في الفرات الأوسط » ، وهو اطروحة الماجستير التي تقدمت بها الى قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة القاهرة ، فنالت بها درجة الماجستير (غير مطبوع) . ومجموعة شعرية ، لم تطبع بعد . ومن قصائدها الرائعة نشيدها في الربيع :

ربيعٌ ولكن الفـــؤاد ملوع ... وفي العين في إثر الدموع دموع
ربيع ونار الحزن تحرق مهجتي ... كما احترقت للسامرين شموع
ربيع وقد عز التصبر مطلبا ... وغادر مني القلب وهو جزوع
ربيع وقد فارقتُ خير أحبتي ... وكيف يرجّى للبعيد رجوع ؟
ربيع ! ألا ليت الربيع بما مضى ... يعـــود ففي قلبي اليه نزوع
وطيب رؤى الماضي تثير لي الأسى ... فليس لما يمضي الغداة رجوع

ولها في « خطرات دجلة » نظمتها في صيف ٩٥٤ :

ألماس فـوق لجينهـا يتكسر ... والبدر في كبد السماء منوّر
يا بوركت خطرات دجلة كلما ... حلّ المصيف وحلّ ليل مقمر

الى أن تقول :

دنيا من الأحلام نسبح عبرها ... نرتاح في تيارهـا أو نذعر
ورؤى الحياة تلوح وهي هتوفة ... حيناً تبشرنا وحيناً تنـــذر
سيل من الأسرار نجهل كنهها ... طـوراً نصيب وتارة نتحير
وإذا مضينا وانقضت أيامنا ... نفنى ولـكن الزمان يعمّر

المرأة والصحافة

لا ينقضي الاعجاب بفواق المرأة في الحياة الفكرية والثقافية دون الاشارة الى ما لعبته الصحافة بصورة عامة في شرح قضية العراقية ، وإذاعة أهدافها وأمانيها . وبديهي أن يرد ما أصابته المرأة من حظوظ الى عوامل عديدة منها : ظهور فئة أحسن بوطأة الاهمال ، وهالهن حرمان المرأة العراقية من فرص التثقيف والمشاركة في الحياة العامة ، ثم الخطى الواسعة التي قطعتها المرأة في بعض الاقطار العربية والشرقية . وتكاد النهضات النسوية فيها تلتقي مجتمعة في الدعوة لانصاف المرأة وما يرافقها من أهداف عامة تنهض على التحرر من النفوذ الأجنبي وتحقيق السيادة الوطنية .

ولا حاجة بنا للافاضة فيما كان للصحافة في هذه البلاد منذ اندلاع الثورة العراقية من أثر بيّن في قضية المرأة العراقية ، حيث لم تفقد الأنباء القصيرة عن الحركات النسوية والتي كانت تنشر بين غمرة الأخبار المحلية والعالمية والتعليقات ، عنصر الاخلاص ، والصدق في نشدان تثقيف المرأة ، ورفع شأنها اجتماعياً وأدبياً . وفي خلال بضع سنوات شهدنا الصحف تعنى أكثر فأكثر بمواعث الحركة النسوية في هذه البلاد وغيرها من البلدان الناطقة بالضاد . ولم يكن اهتمام بعض الصحف بالنادي النسائي الأدبي في دمشق ، ومشاركة المصرية في المؤتمرات الدولية إلا مقدمة لها مغزاها البعيد . وأتى حين آخر ارتفع فيه حظ المرأة وقضيتها في الصحافة في بضع سنوات ، فقفزت الأنباء المتهافتة التي كانت تضيع بين الاعلانات الى مقالات رئيسية ، حتى اذا اندلع ضرام المعركة حول الحجاب والسفور ، شاركت فيها صحف عدة مرة واحدة ، وتصارعت فيها عشرات الأقلام ، وفتحت المنافذ للأفكار والآراء يزحم بعضها بعضاً ، لتبين الحقيقة ويطلع النور .

وهـــذا المنحى البارع في صحافة بغداد عن طريق النقد اللاذع ، أو التأييد والتحبيذ ، فتح العيون للحقائق المتصلة بنصف الأمة الثاني .. وبين هذه المواقف كلها شاجبة منتقصة ، أو مؤيدة معترفة ، كانت السبل تمهد لظهور المرأة في الصحافة ، داعية إصلاح ، وباعثة فكرة ، ومصدر قوة وإلهام ..

وليس من شك في أن ما أثير حول الحجاب والسفور خلال سنوات طويلة ، أو ما أثرته في الرد على المس دراور عام ١٩٣٠ ، ومشاركة بعض الأدباء فيه ، ثم اتجاه بعض الصحف اليومية الى تخصيص أبواب للمرأة ، أو ما شهدناه من التطاحن السافر حين نظمت بعض العناصر أسبوعاً للفضيلة ، للرد على أسبوع المطالبة بالحقوق السياسية للمرأة عام ١٩٥٤ ، قد خدم النهضة النسوية عندنا الى حد بعيد ، وقدّمها في طريق الكمال خطوات واسعة .

ومن المفيد أن أذكر بأنه نشأت خلال الحكم الوطني عدة مجلات نسوية لم يكن من السهولة عليها الثبات في وجه منافسة الصحف اليومية ذات الامكانيات الضخمة ، مضافاً الى ذلك أن الطبقة التي تقبل على أمثال هذه المجلات ما تزال محدودة ، ولم يقدر لتلك المجلات الاستمرار على الصدور لعوامل ، منها شخصية ، وأخرى اجتماعية ليس لسردها مجال في هذا المقام ، كما حدث لصاحبة مجلة « ليلى » عند ما جوبهت بحملات شخصية انتقلت الى المحاكم ، ودفعتها ظروفها بعدئذ الى التخلي عن احتراف الصحافة . ومع ذلك نستطيع أن نقرن تأريخ الصحافة عندنا بظهور مجلات وصحف نسوية لقيت قدراً من الاقبال ، ونجحت من حيث كونها أداة للتوجيه . وكذلك باقدام بعض فتياتنا في السنوات الأخيرة ، كسلوى زكو وجميلة يوسف وشرقية الراوي وغيرهن على ممارسة العمل الصحفي ، ولكننا نتطلع بأمل واسع الى اليوم الذي نلمح فيه هذه الأقلام في تنامٍ واطراد ، ونرى المرأة تنتقل من الأبواب النسوية المختصة الى المشاركة بأعباء أكثر جسامة في الصحافة من ناحية التوجيه ، أو من ناحية الاخراج

والشكل ، وتتوسم أيضاً أن يعاون تطور نظرة المجتمع الى المرأة العراقية على بروزها في هذا المضمار ، مقروناً بما كسبته حتى الآن من نضج وثقافة وإيمان .

مجلة ليلى

تعد مجلة « ليلى » التي أصدرتها السيدة بولينا حسون أول مجلة نسوية عصرية ، وقد استطاعت خلال السنوات القليلة التي ظهرت فيها أن تكون لساناً لدعوة ، وترجماناً لفكرة ، وقلماً صادقاً معبراً عن مطالب المرأة ، مع مراعاة الظروف الاجتماعية الغالبة يومذاك . والسيدة بولينا ولدت في فلسطين ، وانتقلت الى العراق للعمل مع ابن عمها المرحوم سليم حسون صاحب جريدة العالم العربي ، أول صحيفة نبهت الأذهان الى الخطر اليهودي ، وعملت نحو عامين في التفتيش بوزارة المعارف قبل أن تحترف الصحافة .

صدر العدد الأول من ليلى في ١٥ تشرين الأول ١٩٢٣ (٤ ربيع أول ١٣٤٢) في ٤٨ صفحة ، ووشحت غلافها بالعبارة الآتية :

في سبيل نهضة المرأة العراقية

« مجلة نسائية تبحث في كل مفيد وجديد فيما يتعلق
بالعلم والفن والأدب والاجتماع وتدبير المنزل »

وقد أهدت بولينا حسون مجلتها (الى أعتاب جلالة سيدنا ملك العراق المعظم فيصل الأول) مشفوعة بشكرها على النعمة العظيمة التي تعطف بها عليها تعزيزاً للنهضة النسائية الأدبية في العراق المبارك .

وحكت السيدة بولينا في معرض إطلاق إسم « ليلى » على مجلتها الحكاية الآتية : « على أثر قدومي دار السلام ، دعيت الى إلقاء خطبة في الحفلة التي أقامها

منتدى التهذيب (١٠ حزيران ١٩٢٣) لتكريم الشاعر الكبير الأستاذ الزهاوي . فرأيت وسمعت هناك أول مرة الأستاذ الجليل ينشد شعره بتلهف وتحرق ، ويصيح :

وإني (بليلى) مغرم وهي (موطني) وعلي أقضي ، في غرامي بها نحبي

فهبطت الكلمتان (ليلى) و (موطني) على قلبي هبوط الوحي ، فاندفعت الى تحلية المجلة باسم ليلى . وقد كان في فكري أن أسميها (فتاة العراق) .

واذا كانت مجلة ليلى قد صدرت لدعم نهضة المرأة ، فانها عدّت من المجلات الناجحة على ضعف الامكانيات المادية والطباعية يومذاك . وكانت منبر الأقلام الحرة لطلائع المفكرين في العراق والعالم العربي ، فضلاً عما كانت تبذله من جهد لتصوير حقيقة مطالب المرأة العراقية ، وتأكيد نشر الثقافة والتعليم ، وعدم حرمان الفتاة العراقية نصيبها منهما . ووقفت ليلى موقف التحفظ من قضية السفور التي لم تتبلور إلا بعد ذلك بسنوات .

وكان يلتقي على صعيد المجلة فريق من المنشئين اللامعين ، كالزهاوي والرصافي والدجيلي وحليم دموس وسلمى صائغ وأنور شاؤول ويوسف غنيمة . أما موضوعات المجلة فكانت تنتظم جميعها الشؤون التي تمس المرأة ، ووقف الناس عن طريقها لأول مرة على بحث تناول محاكم الأحداث في أمريكة .. والنساء في برلمانات الغرب ، وموقف المرأة من الانتخابات ، وحرية المرأة المصرية .

وحرصت ليلى على التبشير بفكرة التعليم . ومما نشرته يومذاك ، كلمة للطالبة صبيحة الشيخ داود (تشجيعاً لها) .

وقد عادت السيدة بولينا حسون الى فلسطين ، بعد أن أوقفت مجلتها عن الصدور ، وما تزال فيها الى اليوم .

المرأة الحديثة وفتاة العراق

ساهم المرحوم الأستاذ فاضل قاسم راجي ، وهو من شباب العراق المعروفين

بنزعتهم الوطنية والاجتماعية ، المؤمنين بنصرة المرأة ، باصدار مجلة المرأة الحديثة ، ثم فتاة العراق ، وتولى فيهما رئاسة التحرير ، فعاشت الأولى ثمانية أعداد ، حلت محلها فتاة العراق ، وظلت تصدر نحو أربعة أعوام ، وعادت الى الصدور بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنها اختفت بعد وقت قصير .

وكانت حمدية الأعرجي ، هي صاحبة امتياز المرأة الحديثة . أما فتاة العراق فحصلت امتيازها حسيبة قاسم راجي .

والمجلتان ساهمتا جداً في تطوير الصحافة النسوية ، ونقلتا الى المرأة العراقية نشاط أختها العربية ، وأنباء المرأة في الأجنحة الأخرى من العالم . واستعانت أول مرة بالكاريكاتور في التعبير عن بعض العيوب والنواقص في المجتمع العراقي .

صدر العدد الأول من المرأة الحديثة في ١٧ حزيران ١٩٣٦ ، وقد زين غلافه بصورة الأمير فيصل ولي العهد .

فتاة العرب

أصدرتها السيدة مريم نرمة في ٦ أيار ١٩٣٧ ، وهي « جريدة أدبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية » . وكانت السيدة نرمة في طليعة الكاتبات اللواتي ساهمن في معالجة الشؤون الأخلاقية والاجتماعية في الصحافة على عهد الثورة العراقية ، إلا أنها لم تصدر مجلة باسمها قبل سنة ٩٣٧ .

ولدت في بغداد في ٣ نيسان ١٨٩٠ ، ووالدها المرحوم رفائيل يوسف رومايا ، ولقبت باسم « نرمة » وهي كلمة كلدانية فارسية ، معناها لطيفة . وأقيم لها في ١٩ مايس ٩٤٥ احتفال بمناسبة ذكرى اليوبيل الفضي لمشاركتها في النشاط الأدبي عن طريق الصحافة .

وكان عزم مريم نرمة معقوداً على إصدار مجلة باسم « فتاة العراق » عدلت عنها الى « فتاة العرب » بعد أن صدرت مجلة تحمل نفس الاسم ، وقد عاشت صحيفة

فتاة العرب ستة أشهر ، واضطرت صاحبتها الى وقفها بسبب الخسران المادي الذي لحقها . وقالت إنه بلغ ٤٥ ليرة ذهباً .

صوت المرأة

أصدرت هذه النشرة الهيأة المؤسسة لجمعية تحرير المرأة عام ٩٤٣ للدفاع عن حقوق المرأة ، وتوقفت عن الصدور بعد عددين فقط .

فتاة الرافدين

أصدرتها دائرة العلاقات العامة في القنصلية البريطانية في البصرة في كانون الأول ٩٤٣ ، وتولت تحريرها المستشرقة البريطانية المسز م . مكفرسن ، وكانت تصدر كل عدد منها بأنها المجلة النسوية الوحيدة من نوعها في الشرق الأوسط . وقد توقفت عن الصدور في كانون الأول ٩٤٦ .

وقالت المسز مكفرسن في آخر عدد صدر من فتاة الرافدين بعد انتهاء الحرب العالمية . لقد كان هدفنا الأسمى من إصدارها أن تمد النساء والفتيات في العراق والدول العربية الأخرى في الشرق الأوسط بالأنباء والموضوعات التي تلذ العنصر النسائي ، ولا سيما وقد كان من المتعذر عليهن الحصول على مجلات من هذا النوع طيلة سني الحرب والشهور الثمانية عشر التي تلت استسلام ألمانيا ، وعلى الرغم من أن المجلة أصدرت لغرض معين خلال ظروف الحرب ، فانها كانت تعنى بقضايا البيت وشؤون المرأة الى حد كبير .

الرحاب

منحت وزارة الداخلية رخصة اصدارها للسيدة أقدس عبدالحميد في ٢ مارت ٩٤٦ ، واستمرت على الصدور نحواً من عامين ، وهي مجلة أدبية اجتماعية شاركت في إحياء ذكرى المرحوم الأستاذ طه الراوي واختصته بأحد أعدادها .

الأم والطفل

مجلة إرشادية تبحث في شؤون الأم والطفل . مثلت منذ تأريخ صدورها في ١٥ تشرين أول ٩٤٦ حتى اليوم ، جانباً من جهود جمعية حماية الاطفال العراقية . وممن ساهم في تحريرها منذ البداية ، السادة : بهاء الدين نوري ، والدكتور عبدالامير علاوي ، وابراهيم الشابندر ، وعبدالله القصير ، والدكتور احسان سمرة ، والدكتورة لمعان أمين زكي ، وسعاد العمري ، ومائدة الحيدري ، والدكتور يوسف الجادرجي ، وعبدالمجيد لطفي ، وغيرهم كثير من الكتاب والكاتبات فى مختلف الموضوعات الطبية والاجتماعية .

بنت الرشيد

تولت السيدة درة عبدالوهاب إصدار هذه المجلة مرتين فى الشهر . منحت وزارة الداخلية الاجازة باصدارها فى ٧ ايلول ٩٤٨ ، ولكنها لم تصدر قبل ١٥ تشرين الثاني ، وتوقفت بعد العدد الرابع .

الاتحاد النسائى

صاحبة امتيازها السيدة آسيا توفيق وهبي رئيسة جمعية الاتحاد النسائي . صدرت فى ١٦ تشرين الثاني ٩٤٩ ، وحملت مباديء واتجاهات الاتحاد العراقي ، وتوقفت عن الصدور بعد أربعة أعوام . وتبذل الآن تشبثات خاصة لاعادة إصدارها .

الهلال الاحمر

منحت الاجازة باصدارها الى جمعية الهلال الاحمر العراقية فى ١٤ آب ٩٥١ ولم يصدر منها غير أربعة أجزاء ، وترمي النشرة الى توضيح أهداف وخدمات الهلال الاحمر بفرعيه للرجال والنساء .

المرأة في ميدان العمل

إن دخول العراقية مضامير العمل المنتجة يعدُّ في رأيي ، من أعظم الآثار التي نتجها توسع التعليم النسوي ، وتطور المفاهيم الاجتماعية والفكرية ، وانتقال المجتمع العراقي نفسه الى هضم الفوائد التي تمخضت عن نهضة المرأة .

وغني عن القول أن مشاركة العراقية في الحياة العملية ، كانت وما زالت إحدى الغايات التي اتجهت اليها المرأة ، واستحوذت على تفكيرها منذ بدأت طلائع الزحف المقدس نحو معاهد العلم . ولم يعد الهدف ـــ كما كان ـــ اعداد معلمات ، أو ممرضات ، أو موظفات .. بل تطوير تلك المعايير القديمة الى شيء جديد ، وتحويل نظرة الرجل للمرأة الى معنى آخر . معنى إنساني عظيم قادر على أن يأتي بالمعجزات ، ويفعل المستحيل من أجل الخير والبناء .

ويجب أن نعترف أن دخول المرأة فى مضامير العمل جاء رائعاً ، متساوق الخطى سديداً في الاصابة والتوجيه ، وكان إيذاناً بوضع المرأة على أبواب عهد جديد لا تصدمها فيه ، صلافة المكابرين ، ولا نقمة الحاسدين ، كما كان الشأن يوم بدأت نضالها في سبيل العلم والتحرر .

ونحن اذا استعرضنا مراحل مشاركة المرأة في الأعمال العامة ، نرى أن التعليم أول عمل تمارسه المثقفة في العراق ، وما زال الاقبال على احتراف التعليم الى اليوم من أكثر المهن الشائعة في العراق ، لأنها تعتبر في نظر كثير من العوائل العراقية أحسن ما يلائم الفتاة في هذا الدور من دخولها في الحياة العملية ، لبلد كالعراق ، حتى اضطرت وزارة المعارف في الأعوام الأخيرة ، بحكم الانتشار الواسع لحركة التعليم ، على فتح معاهد لاعداد المعلمات في بغداد ومعظم الألوية العراقية .

القبالة والتمريض

وبدأ خلال السنوات التالية ازدياد ملحوظ على دراسة القبالة والتمريض ، وعمدت وزارة الصحة بكل الوسائل الى تشجيع الفتيات العراقيات على الدخول في مدرسة التمريض التي أنشئت أول مرة عام ١٩٣٣ ومن بين ١٢ طالبة قبلن في أول دفعة ، تخرجت عشر ممرضات ، هن الأوانس والسيدات : حربية داود ، وغزالة إلياس ، وفضيلة جبوري ، ونجيبة جرجيس ، وزكية جبرائيل ، وخديجة الدباغ ، وبتول يحيى العبيدي ، وشكرية أحمد ، وراجي كيسو ، وسلمى عزيز .

واتبع المعهد منذ ذلك الوقت سياسة لزيادة عدد المقبولات ، حتى بلغ في بعض الاعوام أكثر من ٥٠ ، وقد لوحظ أن الفتاة العراقية لم تقبل على هـــذه المدرسة ـــ أول الأمر ـــ لاعتبارات اجتماعية ، منها عنعنات أولياء الفتيات وممانعتهم فى اشتغالهن بهذه المهنة ، إلا أن هذه المقاومة أخذت بالفتور والتضاؤل ، وأخذ عدد المقبولات يزداد عاماً بعـــد عام . وقد حددت مدة الدراسة في مدرسة التمريض والقبالة أول مرة بثلاث سنوات بضمنها منهج القبالة ، ولكن في سنة ٩٤٣ فتحت دورة القبالة لمدة سنة أخرى ، تقبل الطالبة فيها بعد تخرجها في مدرسة التمريض . وفي سنة ٩٥٦ افتتحت وزارة الصحة مدرسة أخرى للتمريض في الموصل . ويتجه الرأي الى فتح مدرسة مماثلة في البصرة ، ومعهد عال للتمريض ، كخطوة أخرى لتشجيع هذه الدراسة في البلاد .

ويتبين من الاحصاءات الرسمية أن عدد المتخرجات في التمريض والقبالة منذ سنة ٩٣٣ الى سنة ٩٥٧ الماضية بلغ ٦٣٢ ممرضة مأذونة ، موزعات على المؤسسات الصحية .

كانت المرحومة أمة سعيد أول عميدة لكلية ، والدكتورة روز خدوري أول عراقية تحصل على الدكتوراه في التربية . والواقع أنه لم يمض عهد طويل على اقتحام

الفتاة أبواب الكليات العالية حتى ذللت أمامها كثيراً من العقبات لاحتراف أعمال أخرى ، أعطى نجاحها المؤكد فيها برهاناً جديداً على كفاءتها ومواهبها ، وأثبتت أنها تستطيع أن تجمع بين مسؤولياتها الطبيعية أماً ، وتبعاتها الاجتماعية مواطنة صالحة .

ومما يدعو الى الاغتباط أن يحفل تأريخ الدبلوماسية العراقية بأثر طيب للمرأة بدأ سنة ٩٤٩ بمشاركة السيدة بديعة أفنان ، والآنسة سرية الخوجة في السلك الخارجي . وكانت السيدة سارة الجمالي عضوة في بعض البعوث العراقية الى الأمم المتحدة . ويوجد اليوم في وزارة الخارجية ، ومجلس ميثاق بغداد ، وفي بعض المؤسسات الدبلوماسية عدد من فتياتنا يكتبن لبلادهن ولأنفسهن النجح والفلاح .

واذا انتقلنا الى وجوه العمل الأخرى ، نجد أن عمل المرأة العراقية طبيبة يرتقى الى سنة ٩٣٨ ، ثم تضاعف عدد المتخرجات في الكلية الطبية خلال السنوات الثماني عشرة التالية ، وتولت الطبيبة العراقية مسؤوليات ادارية بكفاية ، كالدكتورة لمعان أمين زكي ، أول مديرة لمؤسسة رعاية الأطفال في بغداد . وفي الأعوام الأخيرة اختير عـــدد من الطبيبات مثل ، الدكتورة لمعان ، وشقيقتها الدكتورة سانحة ، والدكتورة انه ستيان ، والدكتورة لميعة البـدري أستاذات مساعدات للتدريس في الكلية الطبية .

واجتازت المرأة العراقية امتحاناً آخر في الصيدلة وشاركت في إنشاء صيدليات ، كصيدلية الفتاة . وزاولت المحاماة حتى بلغ عددهن منذ عام ٩٤١ الى اليوم أربع عشرة محامية ، تمارس أربع منهن أعمالهن في الوقت الحاضر ببغداد . وفي وزارة العدلية وغيرها من الوزارات عدد من الموظفات الحاصلات على شهادة كلية الحقوق . وفي محكمة الأحداث التي أنشئت سنة ٩٤٥ استعين بالمرأة عضوة في هيأة التحكيم .

ودخلت المرأة أيضاً الاذاعة ، فكانت فكتوريا نعمان أول مذيعة عام ٩٤٣ ، تبعتهـا في السنوات الاخيرة الشـاعرة الاديبة صبيحة منير المدرس وأخريات زاد

عددهن على الأربع . وبرزت في الحركة الفنية (الرسم) أسماء لامعة ، كالسيدة ناهدة الحيدري ، والسيدة عالية القرەغولي ، والسيدة مديحة عمر ، والأوانس : نزيهة سليم ، ووداد الاورفەلي ، وناشرة الكتاب ، وعذرة العزاوي ، ونعمت محمود حكمة . وما زال معهـــد الفنون الجميلة يفتح أبوابه للمواهب النامية ، والملكات المشرقة باستمرار .

ولجأت وزارة الشؤون الاجتماعية الى نظام جديد يضمن الاستفادة من مواهب المرأة عن طريق عملها باحثة اجتماعية . وفي خلال السنوات الأربع الاخيرة ارتفع عددهن الى أكثر من ٣٠ تابعات لمديرية الخدمة الاجتماعية وهن موزعات بين محكمة الأحداث والمحاكم الشرعية ومراكز الرعاية الاجتماعية في القرى والارياف . وقد خدم هذا التنظيم للباحثات ، المستوى الاجتماعي في البلاد خدمة كبيرة ، وساعدن مساعدة فعالة على توجيه القرويين وارشادهم ، وتكييف حياتهم ، وتحسين أسلوب معيشتهم بصورة عامة . وقد بهرتني النتائج التي وقفت بنفسي عليها ، وأكبرت الجهود التي تبذلها هـــذه الفئة من مثقفاتنا . حتى ان بعض الدوائر الحكومية ، كمديرية السجون العامة ، وضعت نصب عينيها هذه الدراسات ، وفتحت للباحثات أبواب سجن النساء للقيام بوضع دراسات نفسانية لنزيلاته .

ولا يكاد يخلو مصرف من المصـارف العراقية أو الاجنبية في بغـداد وبعض المدن العراقية من جهود ظاهرة للمرأة ، كسكرتيرة أو موظفة في أقسام الحسابات . وقد بدأت الفتاة منذ عهد قريب بالعمل ، محررة لأبواب تخصيصية في بعض الصحف المحلية ، كسلوى زكو ، وجميلة يوسف ، وشرقية الراوي (عاشقة المنجل) . وهذا الأثر سيبدو أكثر وضوحاً في الاعوام القليلة القادمة .

وفي مضامير العمل الأخرى نرى أن المرأة قد أفلحت في إثبات كفاءتها العالية في أقسام فنية مثل ، العمل في المختبرات ، حتى في الحملات التي تشنها الدولة على

البلهارزيا والملاريا ، كما أشرنا اليه في مكان آخر . وقد يحل الزمن سريعاً لتتولى المرأة المثقفة العمل في الحقول الزراعية التي لا تزال محرومة اياها ، لأن كلية الزراعة هي الكلية الوحيدة التي لم تدخلها الفتاة حتى الآن .

ولمعت المرأة في وظائف أخرى ، سكرتيرة لوزير ، ومحافظة أو مأمورة في السجون ، أو مديرة ومساهمة في انشاء المتاجر الناجحة . وتعد السيدة أمل ، كريمة السيد رشيد عالي الكيلاني ، أول عراقية من أسرة محافظة تنزل الى ميدان الاعمال الحرة .

أما في المسرح التمثيلي ، فقد بقي ظلها محدوداً حتى الآن ، ومعظم اللواتي ظهرن في السينما ، أو الروايات التمثيلية كن من الفنانات . وتعتبر ناهدة الرماح أول عراقية تدخل ميدان التمثيل السينمائي من غير الاوساط الفنية ، ثم السيدة زينب . . (وهو اسم مستعار لاحدى المعلمات) ، وقد تشجع غيرها في المستقبل على اقتحام هذا الميدان والمساهمة بنصيب كبير فيه .

. . وفي ميدان الطيران عملت العراقية مضيفة أول مرة ، حيث عينت مصلحة الخطوط سبع فتيات في سنة ٩٥٥ ، قفز عددهن في سنة ٩٥٨ الحالية الى ١٤ .

وبدأت مصلحة التلفون واللاسلكي باستخدام الفتاة العراقية منذ ٢٣ كانون أول ٩٤٧ ، وضمت الدفعة الأولى ثماني عشرة ، هن الأوانس : روز بيتر ، وسهام عبدالله أنور ، وعدوية شوكت أنيس ، ومديحة محمد ، وأديبة ابراهيم الجراح ، وأنيسة جلال ، وسعاد محمود الجدوع ، وحسنية عبدالكريم ، وأميلده سمعان حداد ، ومنيفة قاسم العاني ، ولطفية صالح ، وأميرة عبدالمجيد ، ونزيهة أحمد ، وزاهدة المدرس ، ومريم سليم ، وفاطمة مكي الحسني ، وفاطمة عيسى روحي ، ومليعة ذنون . أما الآن فقد وصل عدد مأمورات التلفون الى ١٣٤ .

هذه هي البداية فقط .. بداية رائعة .. وأمل ضخم .. ومستقبل كبير .

الادارات المحلية

وعندي أنه لا يضارع هذه النتائج الباهرة التي نجمت عن دخول المرأة مضامير العمل المنتجة سوى التنويه بحقيقة أخرى تتصل بها اتصالاً وثيقاً ، وتتفق مع سير نموها ، حقيقة الدور الذي لعبته الادارات المحليـة في الأعوام الأخيرة في بغـداد والألوية لتعليم المرأة مهناً مكسبة ، عجلت بخطواتها الواسعة نحول الكمال ..

وأضرب مثلاً على ذلك ، المعاهد المهنية للبنات ، التي أنشأها الأستاذ عبدالجبار فهمي متصرف لواء بغـداد منذ سنة ٥٣ــ٩٥٤ ، فقد استنت لنفسها منهاجاً عملياً لتدريس التمريض والخياطة ، والتدبير المنزلي والسكرتارية لفتياتنا اللواتي حصلن على اجازة الدراسة الابتدائية . وقد يسرت هـذه المعاهد مجالات العمل للمرأة في الوظائف الحكومية والشركات ، لقاء مكافآت مادية مناسبة ، أو فتح معاهد للخياطة مربحة .

ومن إحصاء لمتصرفية بغداد (الادارة المحلية) أن عدد المتخرجات في المعاهد المهنية الستة التي أسستها بلغ ٢٨٣ . وعمدت في الوقت ذاته الى إنشاء معاهد أخرى (كمعهد الأمل) لتعليم الصم والبكم والمتخلفين عقلياً والمكفوفين ، يضم الآن زهاء ١٠٠ من الطلبة ، وعهدت ادارة هذا المعهد الى السيدة بتول السراج ، تعاونها خبيرة سويسرية وأخرى بريطانية ، واستعين كذلك بمدرستين مصريتين هما : نعمات عبدالجواد ، ونزيهة غانم ، تعاونهما بعض فتياتنا للاشراف على معالجة حالات الصم الناشئة عن تخلف أو ضعف في الدماغ . أما المكفوفون ، فعهد تعليمهم الى بعض المعلمين العراقيين المختصين .

وأسست الادارة المحلية أيضاً معهد الملكة عالية (يضم ١٠٧ يتيمات) ، ومعهد الأمير عبدالاله (١٠٠) ، وهما ينهضان بعبء رعاية الأيتام وتعليمهم القراءة والكتابة والحرف الصناعية .

المرأة فى المؤسسات الصناعية

ولا يغيبن عن البال ، في هذا المقام ، أن العراقية ولجت رحاب أعمال أخرى لم يكن فيها للمرأة المثقفة نصيب ، وكانت تشكل نسبة ملحوظة بين عمال المؤسسات الصناعية .

وكمثال على ذلك أذكر أن عدد العاملات في ٢٢٤٦ مؤسسة صناعية في سنة ٥٥ــ٩٥٦ بلغ (١٢٣٠٧) من جملة (٩٠٢٩١) من المستخدمين .

ومن هذا الاحصاء ٣٥ في قلع الأحجار ، و ٢١٢ في معامل الألبان ، و ٥٠٥١ في صناعة حفظ الفواكه والتمور ، و ١٣٥ في طحن الحبوب ، و ١٤٤٥ في المخابز ، و ٧٧ في صناعة الحلويات ، و ٨ في صناعة الدبس والنشا ، و ١ في صناعة البيرة ، و ٥٧١ في صناعة السكاير والتبغ ، و ١١٨٧ في الغزل والحياكة ، و ٦٤ في صناعة الحبال ، و ١٦٤٧ في أعمال الحياكة الأخرى ، و ٨٣ في صناعة الأحذية ، و ١٣١٣ في معامل الخياطة ، و ٧٤ في التطريز ، و ١٩ في النجارة ، و ٤ في الطباعة ، و ٥ في الدباغة ، و ٨٠ في صناعة الصابون والمنتجات الكيمياوية ، و ٨ في صناعة الزفت ، و ٧٠ في صناعة الطابوق ، و ١٢ في صناعة الفخار والقاشاني ، و ٢١ في المولدات الكهربائية ... الخ .

ومن ناحية أخرى بدأ فريق من السيدات بالظفر بعضوية غرفة التجارة ومزاولة الاعمال التجارية .

ويحسن أن نلمع في سياق هـذا البحث الى أن الاحصـاءات التي أشرنا اليها لا تشمل جميع وجوه العمل التي زاولتها المرأة ، فان هناك أعمالاً موسمية في بعض الأقاليم يرتفع فيها عدد العاملات ويقبل أصحاب الصناعات على التعاقد معهن لقلة الأجور التي يطالبن بها ، فضلاً عن أن عدداً ضخماً منهن يقبل الى المدن ــ وخاصة في الجنوب ــ للعمل في البناء أو صناعة الطابوق أو بعض الحرف البسيطة .

ولا تدخل في هذه الأعمال ـــ بطبيعة الحال ـــ الصناعات القروية التي تجد منافذها في المدن بأسعار خفيضة .

ولكن الحقيقة أن تطور الصناعة ، والاكثار من تأسيس المعامل الحديثة ، يهيىء مجالاً أوسع للعاملة العراقية ، ولا سيما فتاتهن التي ظفرت بحظ من التعليم .

التشريع العمالى العراقى

وبديهي أن لا يهمل التشريع العمالي العراقي المرأة بحكم النتائج السالفة لوجودها في الصناعة الحديثة . فقد أولاها قسطاً يستوقف الابصار ، ويدعو الى التقدير والاكبار .

إن قانون العمال رقم ٢ لسنة ٣٦ المعدل لسنة ١٩٤٢ قد نص على مساواة المرأة بالرجل من حيث الحقوق العامة(١) . وفتح فرص الاستخدام مع الالتفات والنظر الى طبيعة الانوثة ومراعاتها . فالمرأة العاملة ، بحكم هذا التشريع ، تتمتع كالرجل سواء بسواء ، ومن حيث التعاريف القانونية فان تعريف العامل والمستخدَم والمراهق والحدث ينطبق على المرأة والرجل من غير تفريق أو تمييز ، وكذلك تتمتع المرأة بكافة حقوقها من حيث إجازاتها الاعتيادية والمرضية والعطل الرسمية والاستراحات الاسبوعية والاعمال الاضافية وساعات العمل والتعويض عن الخدمة الطويلة والتعويض عن الاصابات وعوارض العمل والتسممات المهنية التي تصيب العامل من جراء أخطار المهنة التي يزاولها والعطل عن العمل والاستغناء عنه وغير ذلك من الحقوق العامة . وحق الانضمام الى المنظمات العمالية كالنقابات .

ومن أهم الامور التي تميز بها التشريع العمالي العراقي ، مساواة المرأة بالرجل من حيث الاجور التي تتقاضاها في مقابل عملها . ومعلوم أن الحد الادنى البالغ هو

(١) الأستاذ علي غالب غريب ـــ مدير العمل والضمان الاجتماعي العام .

(٢٥٠) فلساً للعامل غير الماهر ، و (١٨٠) فلساً للمراهق ، وذلك بموجب نظام الحد الادنى لاجور العمال رقم ٥٤ لسنة ٩٤٣ المعدل برقم ٧ لسنة ٩٥٤ .

أما الفروق الفسيولوجية التي تتميز بها المرأة عن الرجل ، فقد روعيت الى حد كبير في التشريع العمالي العراقي ، واستند الى آخر ما توصل اليه الخبراء العماليون الذين وضعوا الاتفاقات الدولية عن طريق منظمة العمل الدولية ، ومن ذلك منع استخدام العمال منعاً باتاً في بعض المشاريع التي لا تتلاءم طبيعة الاعمال فيها مع طبيعة الانوثة ، والمشاريع التي يكون استخدامهن فيها ممنوعاً دون سن معينة ، وذلك لغرض فتح المجال للمرأة لكي تحصل على فرص كافية في الحياة ، كالتعليم وغيره .

كما لا يجوز استخدامها مكدسة أو وقادة إذا كانت دون الثامنة عشرة .

وقد أخذ المشرع العراقي بعين الاعتبار أحوال المرأة الخاصة ، فحدد لها أجوراً كاملة ، ثلاثة أسابيع قبل الوضع ومثل ذلك بعد الولادة ، ومنع مستخدميها أن يستقطعوا شيئاً من أجورها عن مدة تغيبها ، ومنع حتى انذارها بالفصل من الخدمة للمدة التي انقطعت فيها عن العمل .

ونص قانون العمال العراقي على أحكام ترمي بحملتها الى رعاية الأمومة والطفولة ومنها فرض غرامة لا تزيد على ٣٠ ديناراً ، وتعويض المرأة بما تستحقه من الأجور اذا خالف رب العمل الأحكام السالفة . ومنع في بعض الاعمال تشغيل الحامل أو المرضع . ونص على عدم جواز تشغيل النساء ليلاً في أي مشروع صناعي ، وبذلك وفر على المرأة عناء الارهاق ، وهيأ لها فرصة العناية بواجباتها المنزلية . وأخيراً نجد أن في جملة ما تبناه العراق في تشريعاته الاتفاقية الدولية رقم ٤١ حول تشغيل النساء والموقع عليها في جنيف في ٩ آب سنة ١٩٣٤ التي سنت بموجب قانون رقم ١١ لسنة ١٩٣٧ . إن هذه الاتفاقية تتضمن أحدث نظرة لتحديد اشتغال المرأة العاملة ليلاً ، بغض النظر عن آخر التطورات الصناعية والعمالية في المجتمعات الحديثة .

يتضح من ذلك أن المشرع العراقي عند وضع التشريعات العمالية الخاصة قد

أخذ بنظر الاعتبار المرأة وهيأ لها فرص التكافؤ مع الرجل لتكون عنصراً منتجاً فعالاً في تنمية الدخل القومي والانتاج ، والتفت أيضاً الى طبيعتها الفسيولوجية التي ينبغي أن تراعى لضمان استمرارها أداة من أدوات بناء المجتمع وإنشائه .

العراقية فى مشروع الضمان الاجتماعى

يشمل مشروع الضمان الاجتماعي ، الذي ضمن أسسه القانون المرقم ٢٧ لسنة ٩٥٦ ، الذكور والاناث على حد سواء . فالمرأة المستخدمة في المشاريع والمؤسسات والدوائر الحكومية الخاضعة لاحكام القانون المذكور ، تتمتع بالضمانات الواردة فيه أسوة بالرجل المستخدم ، فتدفع عنها المشاركات ، ويحق لها تسلم الاعانات الواردة في القانون عند توفر شرائط استحقاقها . والاعانات هي : إعالة الزواج والولادة والوفاة والبطالة والمرض والشيخوخة والعجز الدائم ، وكذلك يستحق ورثتها إعانة الخلف عن وفاتها .

وقد خص المشروع المرأة ببعض الاحكام فجعل سن العجوز لها خمساً وخمسين سنة ، بدلاً من الستين للرجل ، كما أنه يحق للمرأة المتزوجة أو الارملة المطالبة بدفع رصيدها للضمان الاجتماعي إذا تركت الخدمة المضمونة مباشرة ، ولا يحق للرجل ذلك إلا بعد مرور عدة سنوات على تركه الخدمة .

وقد ضمن نظام توزيع إعانة الخلف المرقم ٥٧ لسنة ٩٥٦ للمرأة بعـــد وفاة زوجها المضمون ، حقاً في تسلم النصيب الأكبر من رصيد الضمان الاجتماعي ، إذ يدفع لها ثلثا الرصيد ، والباقي يقسم بين العيال الآخرين . ومن الجدير بالذكر أن قانون الضمان الاجتماعي لايشجع على تعدد الزوجة ، فقد نص في الفقرة الرابعة من المادة (١٨) على عدم جواز دفع إعانة الزواج لأكثر من مرة واحدة ، إلا اذا كان الزواج بسبب الوفاة .

العراقية فى الريف

خلال عملي في محكمة الأحداث عرض لي كثير من القضايا والوقائع مسرحها الريف ، وبطلاتها فتياته ونساؤه ، وقصصها تلك الظروف التي تهبط بالمرأة الى مستوى المأساة ، وتظهر في غير قصد الظلامة التي تتقلب على وسادها الشائك ، وتخط سطورها بالدم والدموع . ولست أعرف امرأة في العالم عانت من النكد ، والاستعباد ، والتجاهل والاغفال ، ما تعانيه امرأة القرية في العراق . وسيمضي عهد طويل قبل أن تتكشف هذه المأساة ، وتخف حدتها لتنقذ هذه النفوس البريئة مما يحدق بها من أحكام قاسية كالقدر نفسه ! وما أزال أذكر تلك الريفية السمراء الصغيرة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي وقفت أمام محكمة الأحداث متهمة بالزواج ثلاث مرات دون طلاق ! ودافعت عن موقفها بأن أمها كانت تأخذ بيدها الى المحكمة الشرعية ثم تخرج وبيدها زوج جديد يكون قد دفع الثمن الى الوالدة !!

حياة الريفية قصة متتابعة تمثل ذلك الاستعباد التأريخي الذي ورثته من أحقاب طويلة ولم تستطع منه فكاكاً . قصة الأسر بكل ما فيه من شجون وارهاق . وقصة المجتمع الريفي نفسه بما فيه من جهل وحرمان .

وهناك ما هو أدهى وأمر :

إن المرأة في الريف العراقي ما زالت جزءاً من المشكلة الاقتصادية في حياة المجتمع الريفي وهو يعادل ثلثي سكان المملكة . ولكن منزلة المرأة في حياة الرجل الريفي تهبط الى مستوى غير إنساني في كثير من الأحيان . فالزواج ، الرابطة الاجتماعية المقدسة ، ليس بالنسبة للرجل الريفي أكثر من إرضاء غريزة حب النوع ،

وهو لذلك يستوي أحياناً في نظره مع مستوى شراء ثور للحراثة ، أو آلة جديدة تحل محل الآلة المخربة في مزرعته . وكثيراً ما يقف الفلاح موقف المتردد بين شراء بقرة ، أو الاقدام على الزواج ، ويوازن طويلاً بين ما تدره عليه البقرة وما تجلبه له الزوجة من المغانم . وكثيراً ما فضل شراء بقرة على الزواج ، وعلى النقيض من ذلك أيضاً حين يضم زوجة شابة جديدة الى مجموعة الزوجات الهرمات اللواتي تقل كفاءتهن عن أداء عمل اقتصادي مثمر ، وهو كيان المزرعة . ولا شك في أن تعدد الزوجة في الريف قضية حيوية تقررها الحاجة الاقتصادية أكثر مما يقررها أي عامل آخر . وقد جعلت هذه الحقيقة مكانة المرأة الريفية في مستوى غير عادل . وما زال الرجل في الريف يقبض على زمام أمورها ، وقد ينتهي في كثير من الأحيان الى توجيهها وجهة ليست في مصلحتها بالمرة .

وما من شك في أن سيادة الرجل جعلتها بضاعة بمعنى الكلمة ، وهبطت بها الى مستوى غير لائق ، فضلاً عن أنه غير عادل . . وحتى اليوم لا تملك لنفسها كلمة في تقرير مصيرها .. ولا في أهم أمورها الدنيوية ، كالزواج . وهي توهب أو تكرم ، وتستبدل بها أخرى وتباع .. وأنا أعني ذلك ، لأن ولي أمرها يستأثر بمهرها كله ، فتذهب الى دار الزوجية خالية الوفاض ، بينما يصرف وليها مهرها في الوجوه والشؤون الخاصة به .

وهذه النظرة القاتمة الجافة ، وغير العادلة ، أرسخت في نفس المرأة شعوراً محزناً بالاستسلام والطاعة . وجيلاً بعد جيل وهذا الظلم يتسلل الى الحياة الاجتماعية فيلقي فيها كل مظاهر الظلم والشقاء .

وقد انتهت مرة إحدى الباحثات العراقيات في موضوع المرأة الريفية الى أن الفلاحة العراقية لا تشارك في الانتاج الاجتماعي كمنتجة ، ولكن كوسيلة للانتاج ، وبذلك فقدت حريتها الشخصية من حيث هي إنسانة ، كما فقدها مالكها بدوره ،

لأنه يعمل كوسيلة للانتاج بالنسبة الى الاقطاعي . وإن عبودية الفلاحة العراقية عبودية مضاعفة .. بل شقية ومتردية للغاية[1] .

وليس من المتعذر القول إن النظرة الاقتصادية التي ينظر بها الرجل للمرأة في الريف جعلها مرهقة جداً بأعباء فوق مقدرتها في كثير من الأحيان . فهي تعمل تحت ظروف قاسية لا يحتملها الرجل نفسه ، بل إن الرجل ينوط بها أصعب شؤون العمل . فهي في المزرعة دائبة الانحناء ، تجتث الأعشاب الطفيليات ، وتقوّم المعوّج ، وتستأصل الفاسد ، وتجني المحاصيل .

ولقد سمعت من رجل لا يرتقى الشك الى قوله ، وقد أمضى معظم حياته في أنحاء كثيرة من ريف العراق ، أنه رأى غير مرة فلاحة تسحب المحراث الى جانب حمار هزيل في أرض صلبة عجز الحمار عن سحب السكة وحده ، بينما يمسك زوجها من المحراث موضع القيادة .

ويكاد الأمر يستوي في هذه الظلامة في المناطق العراقية المختلفة . فالمرأة الريفية هي المتعبة البائسة . وفي كل فجر ، في أتعس المواسم ، وأكثرها إرهاقاً ، تمتلىء الطرقات الريفية المؤدية الى المدن بالفلاحات والقرويات وهن يحملن ما يمكن بيعه وبعضه كثير ومرهق ، في الوقت الذي يمضي فيه الرجل مستسلماً الى أحلامه . وهذا الشعور بالسيادة جعل الريفي إجمالاً أدعى الى الكسل ، والى استغلال المرأة بأوسع الوجوه ، بينما ترك لنفسه جزءاً يسيراً من العمل .

وليس غريباً أن تعجّ بعض المدن جنوب العراق ، على وجه الخصوص ، بريفيات أعمارهن بين السابعة والخامسة عشرة ينشدن أعمالاً مرهقة في البناء وتعبيد الطرق وغيرها من الأعمال الوضيعة . أما المرأة في الأهوار والبحيرات ، فان وضعها إجمالاً أشد تعاسة وأكثر إرهاقاً وأوصاباً .

---

(١) المرأة العراقية .

يضاف الى هذا كله انخفاض مستوى المعيشة بشكل مروع ، وتفشي الأمراض المتوطنة ، والأوبئة المعدية ، والحرمان من وسائل الصحة والتعليم .. وبنتيجة ذلك كانت الوفيات أيضاً عالية ومخيفة .

واذا تغاضينا عن هـــذه الأمور الخطيرة كلها فان نظام دعاوى العشائر ، وهو الأصل في حسم القضايا القبيلية ، ما زال الى اليوم بأحكامه مُهدراً لكرامة الريفية ، ماحقاً لانسانيتها ، منكراً لوجودها . وقد اشتدت الدعوة في الأعوام الأخيرة الى إصلاحه أو إلغائه ، من الدعاة الى احترام القيم البشرية والملكات العقليـة . . وفي مقدمتهم الأستاذ محمد رضا الشبيبي ، والمرحوم الأستاذ معروف الرصافي .. وفي آراء الرصافي ، على وجه الخصوص ، تصوير واقعي لحالة المرأة في الريف وتعبير عن بؤسها وشقائها ، وإفصاح عن مدى الحيف اللاحق بها :

« ... إني أقول لك باختصار ان المرأة عند هؤلاء لا ترث ، بل هي نفسها مال موروث ، فهي عندهم كالبقرة والشاة وغير ذلك من دوابهم ، تباع وتشترى وتجرى فيها المساومة ، فتعطى في الديات ، وتمنح متعة في الجنايات . وبالجملة هي مال متقوم ، حتى ان من كان منهم ذا بنات عدّ نفسه من الأغنياء ، واذا كانت المرأة ذات زوج فساوم وليها رجل آخر بأكثر مما دفع زوجها ، أرغم زوجها على الطلاق ، وربما اذا كان زوجها غائباً زوّجها وليها آخر من دون طلاق ، طمعاً في أخذ الصداق ... »

ويروي الأستاذ الرصافي حادثتين تدمغان قسوة هذا النظـام ، وتفضحان مدى ظلامة المرأة في القرية :

« كنت في سنة ١٩٢٨ قد زرت صديقي السيد خيري الهنداوي ، وكان إذ ذاك قائممقاماً في علي الغربي (بلدة على شاطيء دجلة دون العمارة) ، وبينما كنت جالساً عنده في مكتبه الرسمي ، إذ جيء اليه برجلين من عرب عشائر العمارة ، كان أحدهما قد صيّح أخت الآخر . والتصييح في عرفهم ، هو أن يتعرض الرجل لامرأة بشيء

من المراودة ، يقولون في كلامهم « صيح فلان بنت فلان » إذ راودها عن نفسها . فأخذ السيد خيري يكلمها بما فهمت منه أن الحكم في قضيتها هو إعطاء المدعى عليه ، أي الجاني المراود ، أخته الى المدعي عليه الذي أخته مصيحة ، أي مراودة ، يتزوجها بلا مهر ولا صداق ، ويأخذها كأنها أمة يتسراها أو يستخدمها كما يشاء .

فأخذني العجب من هذا الحكم الجاهلي الجائر ، وقلت للسيد خيري : ما ذنب هـــذه المسكينة أخت الجاني تعطى على هذا الوجه من أجل جناية جناها أخوها ؟ فأجابني السيد خيري : بأن هذا هو حكم قانون العشائر الذي يقضي بينهم بما لهم من عرف وعادة . فقلت : إن هذا حكم لم تقبله العرب وهم في الجاهلية ، فكيف وهم في الاسلام !؟ فقال : وأزيدك علماً بأن التي تعطى كهذه في الجنايات لا تكون لها أي حرمة عند أخذها ، بل تعيش محتقرة مهانة ، تمتهن في المهن كأمة من الاماء ، أللهم إلا اذا ولدت ولداً فان خطبها عندئذ يهون بعض الشيء » .

« وفي سنة ١٩٣٢ كنت في العمارة ، وكان المتصرف فيها إذ ذاك السيد عارف قفطان العاني ، وبينما كنت جالساً عنده ذات يوم في مكتبه الرسمي أيضاً ، إذ جيء اليه بامرأة ورجلين من عرب لواء العمارة ، فانهار المتصرف على أحد الرجلين لعناً وشتماً ، ثم التفت إلي وقد رآني متعجباً منه وقال : أنظر الى هذا الملعون وهو أخو المرأة ، وذلك الآخر زوجها . أتدري ماذا فعل أخوها ؟

قلت لا .

فقال : إن زوجها هذا ذهب الى البصرة قبل شهرين ليفتش له عن شغل هناك ، وبينما هو في البصرة ، إذ جاء رجل الى هذا الملعون أخيها ، فطلب منه أن يزوجه إياها ، فوافقه على ذلك طمعاً في المهر . ولما بلغ ذلك زوجها في البصرة جاء مشتكياً . ثم التفت المتصرف الى أخيهـا وقال : يا ملعون ، كيف تزوجهـا وهي ذات زوج موجود في البصرة ؟ فما كان من أخيها إلا أن سمعته يقول ، وهذه كلماته : « والله

يا بيج ما يدزلها خرجيه » ، أي أن زوجها لم يرسل اليها نفقة . وفي النتيجة كان الحكم باعادة المرأة الى زوجها الأول ، واستعادة المهر من أخيها الى الزوج الثاني الذي هو غير شرعي . فكان هذا الحكم بمثابة رحمة نزلت من السماء على الزوج الثاني ، لأنه استرد المال الذي أعطاه مهراً وقضى وطره مجاناً مدة من الزمن[1] » .

نخلص من هذه الدراسة العاجلة الى أن العدالة الاجتماعية تكاد تكون مفقودة بالنسبة للمرأة في الريف ، بل إن الرجل حين يستشري به الغضب ، أو ضيق العطن ، يفرغ فيها كل شقائه دون ما رحمة ، فينفس بذلك عن تعاسته هو وشعوره بالظلم اللاحق به من سيادة الاقطاعي وجبروته . فلا يمكن أن ننتظر تحقيق عدالة ، ولو نسبية للمرأة ، ما لم تحل مشكلة الريفي الاقتصادية ، مشكلة الأرض والماء ، والملكية الصغيرة المستقلة ..

واذا أنعمنا النظر في قضية المرأة من جانب آخر ، نرانا مرة أخرى مع المشكلة الرئيسة التي تكيفها الحاجة الاقتصادية . فالزواج في الريف يتم في سن مبكرة جداً بالنسبة للمرأة ، وغاية الرجل وأمنيته أن تكبر ابنته ليزوجها ويستحوذ على مهرها ، فهي لا تكاد تقترب من دور المراهقة ، حتى تنتقل الى سيدة عليلة منهوكة القوى .

ولا أحسب أن التشريعات المنصوص عليها في القوانين الحالية ، أو أية قوانين أخرى توضع ، بقادرة على وجدان الحلول لهذه المشكلة ما لم تكن هنالك معالجة أساسية جذرية ، وأعني بذلك حل مشكلة رجل الريف الاقتصادية وإعطائه ضمانات تكفل في النتيجة ، بتحسين مستواه الاقتصادي والثقافي بصورة عامة .

إن تركية مثلاً ، عالجت مشكلة الريف عموماً بطريقة قليلة التكاليف ، ولكنها منظمة تنظيماً ناجحاً . فقد وضعت حدوداً للديون ، وجعلت صاحب الأرض مسؤولاً عن حياة فلاحيه ومستقبلهم لعدد من السنين ، وعينت نسب المهور وأعمار

---

(١) آراء الرصافي .

الزواج ، ولكي تنفذ كل هذا ، جعلت تنظيمات الريف الادارية مترابطة بشبكة من التنظيم العسكري . فلا يعين مختار ، أو رئيس وحدة ريفية ، إلا من كان مسرحاً من الجيش ، وحين يكون عددهم كثيراً ، يتم اختيار الأقدم رتبة بينهم ، وتكون مهمته الهيمنة على تطبيق أنظمة الادارة والبلدية ، ويظل مرتبطاً مع الادارة العامة بنطاق قوي من المسؤولية شبه العسكرية .

ونحن اذا ما أردنا إصلاح الريف ، ترتب الأخذ بهذه الفكرة وما سواها من إنشاء الجمعيات التعاونية ، لأن كل إصلاح للريف لابد أن يعم أثره المرأة ، ويعمل على رفع حالتها بصورة عامة .

وعندي أنه لمصلحة الرجل ، قبل المرأة ، يتعين إدخال الريف في كيان المجتمع العراقي ، كخلية سليمة قابلة للالتصاق والانسجام ، بدلاً من هذا التخلخل والفراغ الملحوظين في حياتنا الاجتماعية في المدينة والريف . ولابد من أن ترسم الخطط للنهوض بمستوى المعيشة والمستوى الاقتصادي ، والعمل على تيسير فرص التعليم والثقافة للريفيات ، وتطوير الفكرة السائدة في الريف نحو الثقافة الى توضيح أهميتها وخطر شأنها في بناء المجتمع العراقي بناءاً سليماً .

عند ما تتجه الدولة في الحاضر الى العناية بالريف ، وإنفاق الملايين من الدنانير على إنشاء قرى نموذجية ، يجب أن لا تحرم المرأة هناك من حقها الطبيعي ، من حيث هي إنسانة ، وأعتقد أن كل معالجة تغفل هذا الجانب ستظل بتراء شوهاء ، لا نفع فيها ولا جدوى .

إننا نعتقد أن جهودنا ، رسمية أو شعبية ، يجب أن تتجه نحو الريف لاحقاق عدالة يكون فيها للمرأة نصيب يستنقذها من هذا المستوى المؤلم الذي يحز في نفوسنا حين نراه على حقيقته الكئيبة المظلمة .

العراقية فى الكفـاح القومى

بقيت حقيقة أخيرة تتعلق بأول الطريق . .

حقيقة دور العراقية في الحيـاة القومية ، واستجابتها لصدى ما يدور في الوطن العربي الأكبر من انفعالات . . وإيمانها بوحدة الآمال بينهـا وبين أخواتها في ديار العرب .

وعند ما نشير الى التجاوب بين العراقية وأخواتها في الأقطار الشقيقة ، نؤكد المؤثرات العديدة التي جمعت بينهن برباط واحد . فقد صدرت صيحات قاسم أمين والزهاوي وأضرابهما من قادة المفكرين للمرأة العربية عموماً ، فاستفادت منها في توحيد كفاحها الذي شهده نصف القرن الماضي في كل ركن من أركان العروبة ، وخرجت منها بنصر باهر فيه الكثير من الروعة والاشراق .

لقد رأينا من الفصول السابقة أنه لا يمكن ، في ضوء الحقائق ، فصل أو تجريد الحركة النسوية عن مظاهر التطور العـامة التي شهدها العراق منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى عند ما بدأت تباشير الوعي الجارف تتناول ـــ بحكم فترة الانتقـال وامتداد الصراع التأريخي الطويل ـــ مختلف وجوه الحيـاة ، وتطبعها بطابع من التجدد والشمول .

على ان تأثر المرأة العراقية في رأيي ، أعمق من غيره ، لأن الحركة الوطنية التي اجتاحت العراق ألقت على المرأة أعباء لا تقل بحال من الأحوال عما كان يتحمله المواطنون في سبيل التحرر والسيادة ، فاشتركت في المظاهرات وقامت بقسطها في كبح جماح الطغيان ، مندفعة مع أواذي التيار القوي الذي كان ينتظم العراقيين ويوجه عقولهم في مثالية طاغية لم تدنسها المطامع والأغراض الشخصية والنزوات العابرة . لقد وجدت المرأة العراقية في زحمة الصراع الذي قام يومذاك للظفر بسيادة البلاد ، وانعتاقها أكثر من مجال واحد ، تدلل فيه على أهليتها ، وتبرهن على أنها لا تهز المهد

فحسب ، بل تصنع الايمان في القلوب ، وتحوله الى مطالب وطنية ، لا نكول عنها ولا نكوص .

ولا يسع المتأمل لنهضة العراقية ونضالها الشاق ، إلا الاقتناع بأن وعي المرأة في هذه البلاد كان يمثل في سائر الأحداث والظروف تلك الخلة المأثورة عن حب العراقيين لوطنهم ، ودفع النائبات والنوازل عنه بتلك الروح المعطاء من البذل والفداء والتضحية .. كما حصل في الثورة العراقية مثلاً .

ومن المفيد أن نذكر بأن العراقية لم تتخل في أي وقت من الأوقات عن تلك المسؤوليات التي كانت تلقيها عليها ماجريات الحوادث والوقائع ، وكان صداها يتحول دوماً الى أعمال تفيض خيراً وتحناناً ، وايثاراً بالمال والجهد ، مضافاً الى ما يتميز به من الاعمام ، بحيث لم يقتصر برّه ونفعه على العراق وأهله ، بل تعداه الى الديار العربية ، منساقاً مع مفاهيم العراقية ونظرتها السليمة للفكرة القومية . فلا غرو اذا تجاوبت نفسها مع كل صيحة أو انتفاضة في وادي النيل ، وديار الشام ، أو المغرب العربي وفلسطين ، أو أي جزء من أجزاء الوطن العربي ، وتفاعلت معها بكل جوارحها وأعصابها .

ومصداق ذلك أن ما حدث عام ١٩٤٨ بعد دخول القوات العراقية والعربية الى فلسطين ، عزز الاعتقاد بهذا التجاوب الروحي القومي ، إذ سرعان ما نهضت الجمعيات النسوية ، وطالبات المدارس وغيرهن من سائر الطبقات ، الى القيام بواجباتهن في هذا الظرف ، وبينما انتظم بعضهن في دورات للتمريض ، وعملت أخريات على إعداد الهدايا للجنود ، نجد البعض الآخر يحزم أمتعته ويغادر العراق الى قلب المعركة للقيام بأعمال الطبخ ، وتضميد الجرحى ، وإسداء العون للأطفال والنسوة من اللاجئين .

ثم تجيء بعد ذلك أحداث أخرى تدل في مجموعها على عمق وعي العراقية

وحرارة ايمانها ، كما حدث بعد عقد معاهدة « بورتسموث » عام ١٩٤٨ وغيرها من الاحداث المحلية .

ولا تفوتني الاشارة أيضاً الى ما قامت به الجمعيات النسائية بعد الاعتداء على مصر في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، فقد بادرت عضواتها الى القيام باكتتاب ترتبت عليه مبالغ كبيرة سلمت الى لجنة الاكتتاب . وكذلك ما قامت به المرأة العراقية بصفة خاصة في دفع غائلة فيضان دجلة عام ١٩٥٤ واشتراكها مع الرجال جنباً لجنب في حمل أكياس الرمال لتدعيم السدود وانقاذ العاصمة مما كان يهددها من أخطار .

اذا كانت العراقية بلغت بهذا الموقف الذروة من التحسس والوعي ، فقوام ذلك ايمانها بنبل الدافع وسلامة القصد والتصميم . وحسب العراقية ما بلغته عن طريقهما من الخطوات المسددة والمرامي الرشيدة .

●

اوّل الطريق

ملحق

لم تكد المطبعة تنتهي من طبع « أول الطريق » حتى أعلن فخامة السيد نوري السعيد رئيس الوزارة العراقية في مساء السادس من آذار ١٩٥٨ « مباديء جديدة يقتضيها تطور العراق السياسي والاجتماعي في خلال السنين الأخيرة ، ومن ذلك منح المرأة العراقية الحقوق السياسية وفقاً لأسس ومؤهلات معينة تلائم حالة البلاد الاجتماعية والثقافية » . . والنص على تلك المباديء في تعديل الدستور العراقي .

وبحسبنا أن تجد هـــذه الوجهة طريقهـا في حياتنا ، في الوقت الذي خطت المرأة في البـلاد العربيـة خطواتها المتلاحقة الثابتة في الحيـاة العامة ، وفي الوقت الذي أحرزت فيه الايرانية ذلك النجاح في تخفيف القيود الاجتماعية والقـانونية التي تجعل ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ منهن مواطنات معترف بهن . فقـد تمكنّ من الحصول على موافقة مجلس الشيوخ على منحهن حق التصويت في الانتخابات البلدية ، وحتى في ترشيح أنفسهن لرئاسة البلدية ... ومع ذلك ، فالذي هو آت أعظم وأضخم .

والآن ، إذ يعلن مثل هذا الاتجاه ، لابدّ من التنويه بالمذكرة التي قدمتها جمعية الاتحاد النسائي ، برئاسة السيدة آسيا توفيق وهبي ، في ٢٣ شباط ١٩٥٨ الى ولاة الأمر للنص على حقوق المرأة السياسية في تعديل الدستور ، ونثبتها هنـا لأهميتها التأريخية والواقعية :

« يتشرف الاتحاد النسائي أن يتقدم باسم المرأة العراقية مطالباً بما يأتي :

١ــ ان الاتحـاد النسائي العراقي يطالب بمنح المرأة العراقية حقوقهـا السياسية كاملة ، كناخبة ومنتخبة ، وأن الدعوة الى الطلب أصبحت من الأمور البديهية المعترف بها والممارسة لدى العالم المتمدن أجمع .

(أ) ان التمتع بالحقوق السياسية ، هو كأي حق آخر ، يجب أن يتمتع به كل فرد من أفراد البشرية ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

(ب) ان أختنا العربية في الأقطار الشقيقة كلها ، من عربية وإسلامية ، قد نالت هذا الحق ، وأصبحت تتمتع به ، وصار جزءاً من حياتها ، لا بل من مقومات كيانها ، لا سيما وأن الأردن الذي أصبح جزءاً من الاتحاد العربي تمارس فيه المرأة حقها السياسي ، وليس من المعقول أن تعامل المرأة بصورة مختلفة في كلا شقي الاتحاد .

(جـ) هناك الكثير من الدول ـ ومن ضمنها إسرائيل ـ تصمنا بوصمة التأخر ، ومن أقوى حججها على ذلك ، هو عدم مساهمة المرأة في الحياة العامة ، وعلى الأخص في حقل النشاط السياسي .

(د) ان من أقوى العوامل التي ساعدت على تقدم الأمم في العصر الحاضر ، تضافر جهود المرأة والرجل في جميع حقول العمل المنتج ، بما في ذلك الحقل السياسي ، وليس من المعقول أن يبقى نصف الشعب معطلاً في بعض النواحي الحيوية في أمة تنشد التقدم السريع كأمتنا .

(هـ) أما الحجج الواهية التي تدعي بواجبات المرأة البيتية ، فهي نغمة قديمة بالية تنبعث عن نظرة الرجعية ، وهي لا تمت الى الحياة العصرية بصلة ، وقد أصبح من المعروف لدى جميع الأمم الراقية اليوم أن المرأة تستطيع أن تقوم بواجباتها البيتية ، كربّة بيت ، وكأم ، وأن تمارس في الوقت ذاته حقوقها السياسية وتقدم الى المجتمع خدمات جلى في هذا الحقل .

ثم ان الاحتجاج بالواجبات البيتية لا يتفق مع واقع الحال في العراق ، فاذا كان الانصراف الى العمل البيتي يتطلب عدم مزاولة النشاط في حقل الخدمة ، فبالأحرى ـ بمقتضى هذا المنطق ـ ألا يسمح للمرأة حتى بالتوظف ، لأن من متطلبات الوظيفة الأساسية هي أن تلتزم المرأة بمواعيد ساعات الدوام يومياً في دائرتها ، ومعنى ذلك

أنها تقضي ساعات العمل خارج منزلها . ومعلوم أن عدم السماح بالتوظف أصبح أمراً غير معقول ، ولا مستساغ حتى في العراق .

وبالاضافة الى ذلك ، فهنالك دائماً عدد كبير من النساء المتفرغات اللاتي لم يك يشغلهن أي شاغل من الأعمال البيتية ، ولديهن متسع من الوقت للاشتغال في مختلف الحقول ، وليكن من ضمنها الحقل السياسي .

وعلى كل حال ، حتى في حالة قيام المرأة بواجباتها البيتية ، يجب ألا يحول ذلك بأي وجه من الوجوه دون تعبيرها عن رأيها ومساهمتها في الشؤون السياسية العامة باعتبارها شخصية بشرية لها قيمتها وكرامتها كمواطنة .

(و) هناك من يحتجون بقلة ثقافة المرأة ، وعدم تفهمها للأمور العامة ، ويتخذونها كأسباب تمنعها من التمتع بحقوقها السياسية ، ولكن حجة عدم توفر الثقافة الكافية تنطبق حتى على الأغلبية الساحقة من الرجال . فلماذا يزاول الرجال ـ حتى الجهلاء منهم ـ حقوقهم السياسية ، وتمنع المرأة ـ حتى من بلغت منهن الذروة في الثقافة والفهم ـ هذا الحق ؟

(ز) اذا كان الأفضل أن تتمتع المرأة بحقوقها السياسية ،كناخبة ومنتخبة وفقاً لشروط خاصة ، كما يدعي البعض ، فان ذلك يجب ألا يمنع من النص على تمتعها بهذه الحقوق في صلب الدستور ، على أن تعين تلك الشروط فيما بعد بقانون ، أو نظام خاص ، أو أن يعاد النظر فيها من حين لآخر » .

احصـــاءات

مجموع سكان العراق
فى تسجيلات ١٩٣٤ و ١٩٤٧ و ١٩٥٧

السنة	الذكور	الاناث	المجموع	الزيادة المئوية
١٩٣٤	١ر٦٨٨ر٢٣٩	١ر٦٩٢ر٢٩٤	٣ر٣٨٠ر٥٣٣	
١٩٤٧	٢ر٢٥٧ر٣٤٥	٢ر٥٥٨ر٨٤٠	٤ر٨١٦ر١٨٥	٣٠
١٩٥٧	٣ر٢٩٤ر٠٧٣	٣ر٢٤٤ر٠٣٦	٦ر٥٣٨ر١٠٩	٤٠

توزيع السكان حسب الحالة الزوجية
(احصاء ١٩٤٧)

	غير متزوجين	متزوجون بواحدة أو متزوجات	متزوجون من اثنين	متزوجون من ثلاث
ذكور	٥٤٢ر٥٠٢	٧٣٨ر٥١٥	٥٦ر٢٨٣	٥ر٣٠٤
اناث	٤٠٤ر٥١١	٨٦٠ر٨٤٦	...	...

	متزوجون من اربع	مطلقون ومطلقات	مترملون ومترملات
ذكور	١ر١٣١	٢ر٨٦١	٣٤ر٢٧١
اناث	...	٩ر٩٣٣	٢٤٣ر١٩٧

	مفترقون ومفترقات	حالات غير معينة
ذكور	٥	١
اناث	٥٤٣	٤٧٨

احصائية بنسب الزواج والطلاق فى العراق

●

المحكمة الشرعية السنية ببغداد

السنة	وثائق الاذن بالنكاح	الحجج المتضمنة للطلاق
١٩٥٣	١٨٣٣	٣٤٦
١٩٥٤	١٨٨٩	٣٥٨
١٩٥٥	٢٢٥٨	٣٢٢
١٩٥٦	٢٣٥٦	٣٨٤
١٩٥٧	٢٤٦٢	٣٧٦
المجموع	١٠٧٩٨	١٧٨٦

المحكمة الشرعية الجعفرية ببغداد

السنة	وثائق الاذن بالنكاح	الاعلامات المتضمنة للطلاق
١٩٥٣	٢٢٠٨	١٦٧
١٩٥٤	١٦٣٥	٣٦٢
١٩٥٥	١٩٢٣	٢٢٦٩
١٩٥٦	٢٦٥٤	٥٠٥
١٩٥٧	٢٠٣٤	١٠٥
المجموع	١٠٤٥٤	٣٤٠٨

المتخرجات فى المعاهد العالية منذ عام ١٩٣٨

السنة	كلية الحقوق	دار المعلمين العالية	كلية الهندسة	كلية الملكة عالية	كلية التجارة والاقتصاد	كلية الآداب والعلوم	كلية الطب	كلية الصيدلة والكيمياء	المجموع
١٩٣٨ - ١٩٣٩	-	-	-	-	-	-	١	-	١
١٩٣٩ - ١٩٤٠	١	-	-	-	-	-	١	-	٢
١٩٤٠ - ١٩٤١	٢	٩	-	-	-	-	٢	٢	١٥
١٩٤١ - ١٩٤٢	٢	٦	-	-	-	-	٣	١	١٢
١٩٤٢ - ١٩٤٣	-	٦	-	-	-	-	٧	١	١٤
١٩٤٣ - ١٩٤٤	٣	٤	-	-	-	-	٤	-	١١
١٩٤٤ - ١٩٤٥	-	١٨	-	-	-	-	٥	-	٢٣
١٩٤٥ - ١٩٤٦	٢	٣٥	-	-	-	-	١	٣	٤١

١٩٤٦ ـ ١٩٤٧	١٣	١٨	ـ	ـ	ـ	ـ	٢	٤	٣٧
١٩٤٧ ـ ١٩٤٨	١٠	١٥	ـ	٣٧	ـ	ـ	٥	ـ	٦٧
١٩٤٨ ـ ١٩٤٩	١١	٢٢	ـ	٤٧	ـ	ـ	٥	ـ	٨٥
١٩٤٩ ـ ١٩٥٠	٢١	٥٠	١	٥٦	ـ	ـ	١	٤	١٣٣
١٩٥٠ ـ ١٩٥١	٢٨	٦٤	١	٦٤	٣	ـ	٤	٤	١٦٨
١٩٥١ ـ ١٩٥٢	٤٦	٦٤	ـ	٧٧	١٥	ـ	٢	١٢	٢١٦
١٩٥٢ ـ ١٩٥٣	٢٠	٤٨	١	٨٧	١٦	١٣	٧	٧	١٩٩
١٩٥٣ ـ ١٩٥٤	١٨	٤٥	٢	٧٤	١٩	١٧	٩	٥	١٨٩
١٩٥٤ ـ ١٩٥٥	٧	٤٨	١	١٠١	٣٠	٢١	٨	١	٢١٧
١٩٥٥ ـ ١٩٥٦	٧	٥٨	٣	١١٤	٣٠	٣٨	١٢	١٤	٢٧٦

احصاء عام بطالبات المدارس الابتدائية والاعدادية

(محسوبة كل خمس سنوات)

السنة	المدارس الابتدائية	الثانوية
١٩٢٠ ـ ١٩٢١	٤٦٢	...
١٩٢٥ ـ ١٩٢٦	٤٠٥٣	...
١٩٣٠ ـ ١٩٣١	٧٠٤٦	١٧٦
١٩٣٥ ـ ١٩٣٦	١٧٧٦٥	٨٣٢
١٩٤٠ ـ ١٩٤١	٢٣٣٢٩	٢٤٧٥
١٩٤٥ ـ ١٩٤٦	٢٨٠٦٨	٢٦٩٣
١٩٥٠ ـ ١٩٥١	٤٢٢٤٩	١٠٥٥٨
١٩٥٧ ـ ١٩٥٨	١٢٤٧٠٤	١٢٢٨٥

احصائيــة بولادات ووفيات الاطفال

السنة	الولادات	الوفيــات
١٩٥٣	٦٥ر١٥٤	٢ر٤٠٦
١٩٥٤	٦٤ر٣٦٥	٢ر٨٤٧
١٩٥٥	٧٤ر٥٦٧	٢ر٥٧٥
١٩٥٦	٨٠٣٩٦	٢ر٢٩٥

احصائية بالاحكام الصادرة من محكمة الاحداث

	١٩٥٦		١٩٥٧	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث
الايداع فى سجن الاحداث	١٢	–	٥	–
الغرامة	٢١٤	٢	٢٥٢	٦
الحجز فى المدرسة الاصلاحية	٨٣	٢	٥٢	١
التسليم للوالدين او للوصى او للقيم	١٨	١	٢٢	٢
المبرؤون او المفرج عنهم او غير المسؤولين	٥٠٦	١١	٤٠٣	١٩

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	٣	١٩٣٣	١٩٣٥
٥٢	٣	ارجفافاً	ارجافاً
٥٨	١٣	١٩٢٨	١٩٢٦
٦٠	٣	نزهت	ملك
٧٠	١٠	أخواتها	إخوانها
١٤٤	٣	الدكتور	الدستور
١٧٨	٨	الكسى	الكسا

دليل أول الطريق

الاهداء ٥

مقدمة لمعالي الأستاذ منير القاضي ٧

أول الطريق ١٥

العراقيـة في ثورة ١٩٢٠ .. .. ٢٥

التعليم النسوي ٣٧

أول الطريق الى التعليم العالي ٦٣

نادي النهضة النسوية ٨٣

معركة العراقية مع الحجاب ٩٣

« فضيحـة » سـوق عكاظ ١٠٩

الملك فيصل ينشيء مدرسة في بيته ١١٧

مفكرون انتصروا للمرأة ١٢٥

العراقية تطالب بحقوقها السياسية ١٣٩

العراقية في المؤتمرات النسـوية الدولية ١٥٣

الجمعيـات النسوية ١٧١

العراقية في التيـارات الأدبية والفكرية ١٨٥

المرأة في ميدان العمل ٢٠٩

العراقيـة في الريف ٢٢١

أول الطريق ـــ ملحق ٢٣٣

طبع الغلاف فى اوفست مطبعة الرابطة ـ بغداد

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

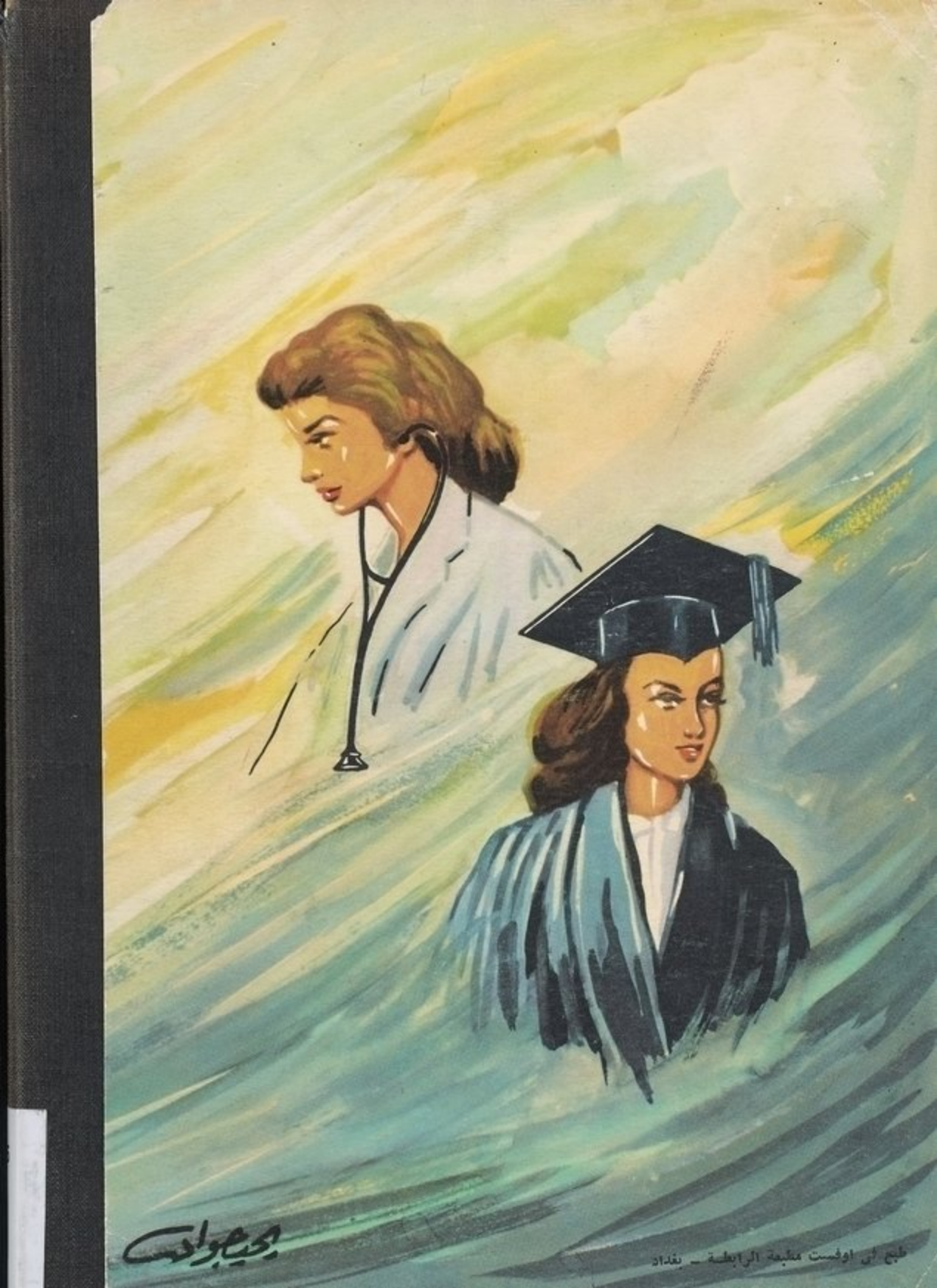

طبع في اوفست مطبعة الرابطة ـ بغداد